رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية
(١٨)



القضية الفلسطينية
في الشعر الإسلامي المعاصر

١٣٨٧-١٤١٠هـ/١٩٦٧-١٩٩٠م

تأليف
حليمة بنت سويد الحمد

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحمد، حليمة بنت سويد
القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر.- الرياض، ١٤٢٣هـ
٣٤٤ ص، ١٦،٥×٢٤سم
ردمك: ٢-٢٤٥-٤٠-٩٩٦٠
١- الشعر الإسلامي. ٢- القضية الفلسطينية - شعر. أ. العنوان
ديوي ٨١١،٩٠٦٢ ١٤٢٣/٥٤٥٢

ردمك: ٢-٢٤٥-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٣/٥٤٥٢

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م

الناشر
مكتبة العبيكان
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة
ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المجاهدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كانت مأساة فلسطين معيناً لا ينضب وينبوعاً لا ينفد، يمد الأدباء والشعراء -ليس في فلسطين فقط بل في جميع الأقطار العربية- بأروع ما أبدعوا وأعذب ما غنوا.

فمأساة فلسطين جرح متجدد الألم في كيان الأمة الإسلامية، لكونها جزءاً من ديار الإسلام، ولأنها الأرض المقدسة المباركة، مهبط الرسالات، وملتقى النبوات على امتداد التاريخ.

وقد شغلت القضية الفلسطينية الشعراء واستقطبت اهتمامهم. وبخاصة بعد نكبة (١٩٤٨م) وما نجم عنها من تشريد وهجرة ومذابح دامية للشعب الفلسطيني المسلم، فانبرى الشعراء يصورون تلك الفاجعة وإحساسهم إزاءها.

وفي عام (١٩٦٧م) جاءت النكبة الثانية، فاستولى العدو الصهيوني على جملة أراضي فلسطين وعلى أجزاء أخرى من الأراضي العربية، فهزت هذه الكارثة مشاعر المسلمين هزة عنيفة؛ أيقظتهم من غفلتهم، وعمقت في نفوسهم الإحساس بخطورة المؤامرة التي تستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين، وتصاعد هذا الإحساس ونما مع الصحوة الإسلامية. فبرز صوت الشاعر المسلم الملتزم الواعي،

ليبارز الأصوات الأخرى ذات الاتجاهات البعيدة عن التصور الإسلامي الصحيح لحقيقة المعركة.

وقد أدى الشعر الإسلامي في هذه الفترة التي أعقبت نكبة (١٩٦٧م) دوره الفعال في إذكاء الهمم وإلهاب المشاعر، فالدواوين الشعرية التي بين أيدينا تتضمن قصائد كثيرة تصور عمق المأساة وأدوارها المتكاملة.

فمنذ تاريخ النكبة حتى يومنا الحاضر ظلت القضية الفلسطينية القضية الكبرى التي تشغل العالم الإسلامي، وتشغل المكان البارز في الصراع الدولي؛ نظراً لخطورتها؛ ولعدم استطاعة العالم أن يجد الحل المناسب لها. ولذلك كتب على الشعب الفلسطيني -خاصة- والشعوب الإسلامية -عامة- أن تحمل السلاح جهاداً في سبيل الله، ودفاعاً عن كرامة مضاعة وحرية مسلوبة وحقٍ منتزع.

وفي عام (١٩٨٧م) كانت الانتفاضة، باكورة ثمار ذلك الشعر الإسلامي الذي بشر بها، ورسم لها المنهج الصحيح ووجه مسارها. كما أن هذه الانتفاضة غذت الأدب بمضامين جديدة تحيي عزة المسلم، وتبعث في نفسه الأمل بالنصر القريب. فلم يكن شعر الانتفاضة شعر شكوى أو تباكٍ، بل إنه شعر أمل مشرق متفائل بدنو فجر التحرير والعودة. وقد كانت الانتفاضة رمزاً لثورة الشعب الفلسطيني وصموده. كما كانت الحلقة الأكثر صلابة في سلسلة متصلة الحلقات من جهاد الشعب الفلسطيني؛ لأنها انطلقت -منذ البداية- على خط إسلامي واضح المعالم، وتميزت بعمومها أرض فلسطين، وشمولها قطاعات الشعب كافة.

ويقوم هذا البحث على دراسة: ((القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، منذ عام النكبة الثانية (١٣٨٧هـ) (١٩٦٧م) إلى عام (١٤١٠هـ)

(١٩٩٠م) وهي مدة من الزمن تتابعت فيها الأحداث وبرز خلالها كثير من المستجدات في القضية؛ مما جعل الشعر يتجه إلى الفاعلية والإيجابية دون التوقف عند مجرد الانفعال والتأثر)).

ولذا كانت هذه المدة من تاريخ القضية مجالاً خصباً للدراسة الأدبية؛ لوفرة الإنتاج الشعري. فقد وقفت على كثير من شعر الجهاد في هذه المرحلة؛ وكان علي أن أختار بعض ما لدي، لأن الإحاطة بكل ما عثرت عليه مستحيلة. فرأيت أن أعمد إلى أجود ما أراه ممثلاً للفترة محل الدراسة؛ لأن مأساة فلسطين قد تركت ما يملأ عدة مجلدات.

وقد اخترت لهذه الدراسة المنهج التحليلي التطبيقي، الذي عماده النص الشعري، وقراءته القراءة الفاحصة، التي يمكن من خلالها استكناه خصائص الأدب الإسلامي الفكرية والفنية، ومن ثم يكون التقويم النقدي على أسس قويمة ثابتة.

وقد استخدمت مصطلح ((الشعر الإسلامي)) وأعني به الشعر الصادر عن شعراء عرب مسلمين عقيدة وفكراً، وإن كان هذا المصطلح يتضمن الشعر الإسلامي بلغات أخرى، ولكن ما قصدته هو الشعر العربي فقط؛ فهو مجال التخصص، ولندرة المترجمات الشعرية من آداب الشعوب الإسلامية.

وتجدر الإشارة إلى أنني اكتفيت في هذه الدراسة بتناول النصوص الشعرية العمودية، دون الشعر الحر، وليس ذلك رفضاً لهذا القالب الفني الجديد، ولا جموداً في مواجهة الحياة المتغيرة، وإنما إيثاراً للأصالة، وتوحيداً لأطر الدراسة، ورغبة في الإيجاز؛ ولأن هذا الشعر الحر لا يزال في حاجة إلى استخلاص قانون عروضي يضبطه ويحدده.

كما تجدر الإشارة إلى وجود بعض الدراسات التي تناولت القضية في الشعر الإسلامي المعاصر وهي:

١- الوظيفة الإعلامية للشعر الإسلامي المعاصر في قضية فلسطين، للأستاذ محمد منير الجنباز، وقد استقصى الباحث -من وجهة إعلامية- شعر القضية على مدى ستين عاماً.

٢- الاتجاه الإسلامي في الشعر الفلسطيني الحديث، للأستاذ مأمون جرار، وهو بحث موجز اقتصر على أربعة شعراء إسلاميين فلسطينيين، وشعرهم في القضية.

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز إسلامية القضية من خلال تناول الشعر الإسلامي لها، والوقوف على ما يملكه الأدب الإسلامي من إمكانات عظيمة في التأثير والتوجيه؛ مما يحفز على تأليقها وتجليتها؛ لإدراك سعة عوالمه وشمول نظرته وتسخيره الكلمة لخدمة قضايا الإسلام.

كما أن هذا البحث يتغيّا إنصاف الشعراء الإسلاميين المعاصرين الذين لم ينالوا حقهم من اهتمام الدراسات النقدية، مع ارتفاع مستوى إنتاجهم الفني، فيرمي هذا البحث إلى دراسة هؤلاء الشعراء ومدى ما في شعرهم من تصوير للواقع وتوجيه للأحداث من خلال المنهج التحليلي الذي يُعد محور الدراسات النقدية والأدبية.

وتقع هذه الدراسة في خمسة فصول:

الفصل الأول: لمحة تاريخية، ويضم مبحثين:

المبحث الأول: الأرض المباركة في التاريخ الإسلامي:

أ- موقف الرسول ﷺ من اليهود: وتحدثت فيه عن عداء اليهود للإسلام منذ فجر الدعوة، وعن غدرهم ونقضهم لعهودهم مع المسلمين غير مرة.

ب- الإسلام والأرض المباركة: وفيه تحدثت عن مكانة فلسطين في الأديان السماوية، ومترلتها المتميزة في عقيدة المسلم وتاريخ الإسلام.

جـ- فتح فلسطين والمعارك الإسلامية: وتتبعت فيه -بتركيز وإيجاز- معارك المسلمين في بلاد الشام -ومن ضمنها فلسطين- من لدن عهد الرسول الكريم وحتى عهد الدولة الأيوبية، حيث تم الفتح العظيم على يد صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين المجيدة.

د- فلسطين في العهد المملوكي والعثماني: وفيه بينت كيف حافظ المماليك على فلسطين وردوا عنها هجمات الفرنج والتتار، وكانت معركة عين جالوت الحاسمة التي انتصر فيها المماليك على التتار. وثنيت بالحديث عن فلسطين في العهد العثماني، والمؤامرات الصهيونية التي انتهت بتقسيم البلاد العربية -ومن ضمنها فلسطين- بين روسيا وفرنسا وإنجلترا، وكانت فلسطين من نصيب الأخيرة.

المبحث الثاني: الأرض المباركة في التاريخ الحديث:

أ- أحداث ما قبل عام (١٩٦٧م)، (نكبة عام ١٩٤٨ وجذورها التاريخية): وتناولت فيه تحقيق الصهيونية هدفها الأول في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين؛ بعد تجزؤ وحدة الدولة العثمانية، واشتعال الثورات في أنحاء فلسطين

كلها، وأهمها: ثورة الشيخ عز الدين القسام، وثورة الشيخ عبد القادر الحسيني: ثم دخول الجيوش العربية أرض فلسطين، وكانت النكبة والهزيمة عام (١٩٤٨م): ومن نتائجها: إعلان قيام الدولة الباغية، ثم تناولت حرب عام (١٩٥٦م): ونتائجها، ثم النكبة الكبرى في هزيمة (١٩٦٧م) التي كانت من نتائجها: احتلال إسرائيل جملة أراضي فلسطينية، وأجزاء أخرى من الأراضي العربية.

ب- أحداث ما بعد عام (١٩٦٧م) وأبرزها الانتفاضة: وتناولت فيه كارثة حريق المسجد الأقصى عام (١٩٦٩م) وتوسيع عملية الاستيطان اليهودي: وحرب عام (١٩٧٣م)، وتصاعد الأعمال الفدائية في فلسطين المحتلة، ثم تحدثت عن اجتياح لبنان عام (١٩٨٢م) وما أسفر عنه من نتائج، وأخيراً تناولت انتفاضة عام (١٩٨٧م) دوافعها ونتائجها، ودور حركة المقاومة الإسلامية في قيادتها.

الفصل الثاني: تفاعل الشعر الإسلامي مع الواقع الحي للمأساة: ويضم خمسة مباحث:

المبحث الأول: نكبة عام (١٩٦٧م) أسباها وآثارها: وتناولت في هذا المبحث وصف الشعراء لمآسي الهزيمة الكبرى وتسجيلهم لمظاهرها وأسباها ومقدماها ونتائجها، وتأكيدهم على ضرورة الوحدة الشاملة والاستعداد لاسترداد الوطن المغتصب.

المبحث الثاني: من معاناة الشعب الفلسطيني ومظاهر الإرهاب الصهيوني: وتناولت فيه النصوص الشعرية التي عبرت عن الآلام التي كابدها شعب فلسطين ومظاهر المعاناة التي يعيشونها تحت نير الاحتلال الغاشم.

المبحث الثالث: مأساة النزوح ومشاعر الحنين والغربة: وبينت فيها معاناة النازحين وتعبير الشعراء عن الاغتراب والحنين إلى الوطن.

المبحث الرابع: إحراق اليهود المسجد الأقصى عام (١٩٦٩م) وردود الفعل العربية: وتحدثت فيه عن تصوير الشعراء لهذه الكارثة الجسيمة ومناشدتهم الدول العربية التحرك لإنقاذ المقدسات من رجس اليهود.

المبحث الخامس: اجتياح اليهود لبنان ومذبحة صبرا وشاتيلا: وفيه تناولت دوافع هذا الاجتياح، وتعبير الشعراء عن المذابح الدامية التي حدثت للفلسطينيين في المخيمات في لبنان.

الفصل الثالث: الشعر الإسلامي ومحاور الإبداع الشعري: ويضم ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مكانة فلسطين وقداسة المسجد الأقصى: وألمحت فيه بكيفية تناول الشعراء لمنزلة الأرض المقدسة مبرزين هذه المكانة الجليلة، والدعوة إلى ضرورة استرجاعها.

المبحث الثاني: كشف طباع اليهود وعدائهم للإسلام: وتحدثت فيه عن إبراز الشعراء لصفات اليهود وعدائهم السافر للمسلمين منذ فجر الدعوة.

المبحث الثالث: استنهاض همم أبناء الإسلام للجهاد لتحرير الأرض المقدسة: وقد وقفت فيه على الشعر المحرض على الصمود والثورة ضد العدو الغاشم والتحرر من قيد اليأس وخيبة الأمل الذي صنعته الهزيمة.

الفصل الرابع: الشعر الإسلامي واستلهام قيم الانتفاضة، ويضم ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الابتهاج بالانتفاضة والأمل بالنصر والعودة: وفيه عبر الشعراء عن فرحهم وابتهاجهم بثورة أبطال الحجارة متفائلين بهذه البارقة من الأمل.

المبحث الثاني: رثاء الشهداء وتهوين الموت في سبيل العقيدة: وتحدثت فيه عن تأدية الشعراء واجبهم في الدعوة إلى الجهاد وتخليد مواقف البطولة والفداء والاستشهاد.

المبحث الثالث: الحل الإسلامي هو الطريق لإنقاذ فلسطين: وفيه أشرت إلى الطرح القوي للحل الجهادي في هذه الفترة بعدما استجد من أحداث واكبت الانتفاضة.

الفصل الخامس: التجربة الإبداعية في ميزان النقد الفني: ويضم أربعة مباحث:

المبحث الأول: التجربة الوجدانية والتعبير عنها: وفيها أشرت إلى مدى صدق الشعراء في التزامهم بالإسلام ديناً ومنهاجاً وشريعة وجهاداً، وكيف نفذت هذه المعاني إلى عواطفهم فأذكت فيها روح الصدق والحرارة الدافقة، كما نفذت إلى الأسلوب فجاء -معظمه- مطبوعاً واضحاً لا تكلف فيه ولا غموض.

المبحث الثاني: الوحدة العضوية: وفيه بينت أن الشعراء قد فطنوا إلى الوحدة العضوية والنفسية وطبقوها في أشعارهم إلى حد كبير؛ مما يدل على الطاقة التعبيرية الكبيرة لدى الشاعر وتمكنه من السيطرة وتوجيه مجريات النص الشعري.

المبحث الثالث: الخيال الإبداعي: وقد قسمته إلى صور جزئية: من تشبيه واستعارة وكناية، وصور كلية مركبة: تعددت فيها الصور، واجتمعت في أكثر من بيت، وبينت ما كان للشعراء من خيال لا يخلو من الروعة الشعرية، وجاء طبعياً لا تكلف فيه ولا تصنع. فجاءت هذه الصور في مواضعها وأدت الغرض منها في تكثيف المعاني واستيعابها.

المبحث الرابع: الموسيقا الشعرية: وفيه وضحت معالم الصورة الموسيقية لدى الشعراء الإسلاميين، حيث جاءت موسيقاهم ملائمة للموضوعات التي طرقوها.

وختمت الدراسة بخاتمة احتوت على ما أسفر عنه البحث من نتائج.

وقد اعترضت مسيرة هذا البحث صعوبات عدة، منها: تعذر الحصول على بعض نتاج الشعراء في القضية الفلسطينية نظراً لقلة نشر بعض الشعراء الإسلاميين لشعرهم أو قلة توزيعه عند نشره، وتفرق معظم إنتاجهم في الصحف والمجلات الإسلامية، كما تعذر علي الحصول على إنتاج الشعراء في بعض الدول العربية مثل لبنان والسودان واليمن والجزائر مع المحاولات العديدة التي قمت بها للحصول عليه؛ بمراسلة الجامعات ودور النشر في هذه البلاد والمهتمين بدراسة الأدب الإسلامي من الأدباء والنقاد.

وقد اعتمدت في دراستي على كثير من الكتب التاريخية التي أرّخت للقضية وذلك لتهيئة أرضية البحث، وللتمهيد لعرض النصوص، وفهمها فهماً صحيحاً،

كما رجعت إلى بعض الصحف والمجلات التي حوت بعض النصوص، إضافة إلى بعض المخطوطات من الشعراء أنفسهم. هذا فضلاً عن الكتب الأدبية والنقدية التي رجعت لها في الدراسة الموضوعية والفنية.

وبعد، فإن أصبت فهذا من توفيق الله جل وعلا، ولا أزعم في دراستي هذه أني قد بلغت الشمول والتكامل غير أني بذلت جهدي لبلوغ هذه الغاية. وأسأل الله تعالى أن يلهمني الإخلاص في القول والعمل، وييسر لي المساهمة في خدمة قضايا الأمة وهو نعم المولى ونعم النصير.

حليمة بنت سويد الحمد

الفصل الأول

لمحة تاريخية

❁ **المبحث الأول: الأرض المباركة في التاريخ الإسلامي.**

أ- موقف الرسول ﷺ من اليهود.

ب- الإسلام والأرض المباركة.

جـ- فتح فلسطين والمعارك الإسلامية.

د- فلسطين في العهد المملوكي والعثماني.

❁ **المبحث الثاني: الأرض المباركة في التاريخ الحديث.**

أ- أحداث ما قبل عام (١٩٦٧م): نكبة عام (١٩٤٨م) وجذورها التاريخية.

ب- أحداث ما بعد عام (١٩٦٧م) وأبرزها الانتفاضة.

المبحث الأول

الأرض المباركة في التاريخ الإسلامي

أ. موقف الرسول ﷺ من اليهود:

إن القضية الفلسطينية هي قضية المسلم الأولى، فينبغي النظر إليها من منطلق مبدئي عقدي، ولا بد من نقلها من نطاقها القومي العربي الضيّق إلى النطاق الإسلامي الواسع.

فمنذ مبدأ انتشار الإسلام ((أصاب اليهود جنون الغيرة والحقد الأسود، كما هو كامن في طبيعتهم))[1]؛ فأعلنوا عداءهم السافر للإسلام وللنبي الكريم. وقد زاد هذا العداء بعد الهجرة؛ لما وجد الإسلام قبولاً وذيوعاً وأنصاراً[2].

فقد كان أحبار اليهود على يقين من أن النبي الخاتم سيكون من جزيرة العرب. وكانوا يطمعون أن يكون منهم؛ لذا فقد بدأ عداؤهم للإسلام منذ اليوم الأول الذي وطئت فيه قدما الرسول الكريم أرض المدينة المنورة، محاولين القضاء على الإسلام في مهده[3].

فكان من الأعمال الأولى التي قام بها النبي في المدينة موادعة اليهود ومعاهدتهم. فكتب بينه وبينهم ميثاق الأمان الذي نظم فيه العلاقة بين المسلمين

---

(١) الإسلام وبنو إسرائيل: ١٣٦.

(٢) انظر: المرجع السابق: ١٤٥.

(٣) انظر: صراعنا مع اليهود، من أين؟ وإلى أين؟: ٣٧-٣٨.

واليهود؛ ومن أهم ما جاء فيه: «... إنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة... وإن اليهود ينفقون على المؤمنين ما داموا محاربين،... وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم[1]، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم... وأن بينهم النصر على من دهم يثرب...»[2]، ولكن اليهود أضمروا نقض هذه المعاهدة، مع إظهارهم الاستجابة لها، شأنهم في كل عهد أو ذمة يبرموها مع غيرهم.

فبدأت مؤامراتهم ومكائدهم ضد المسلمين. وكان بنو قينقاع أغنى اليهود في المدينة؛ فساءهم انتشار الإسلام وعلو شأنه -وبخاصة بعد نصر المسلمين في بدر- ولم يستطيعوا إخفاء حقدهم على الإسلام، فعندما وفدت على سوقهم امرأة مسلمة لحاجةٍ لها في سوق الصاغة، أحاط بها عدد من اليهود، وآذوها بما تأنف منه كل حرة، (فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله -وكان يهودياً- وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع)[3]. وبذلك كان بنو قينقاع أول من نقض العهد من اليهود؛ فسار إليهم النبي -عليه الصلاة والسلام- وحاصرهم في حصونهم، ثم أمر بإجلائهم وغنم أموالهم[4].

(١) ((كان هذا قبل أن تفرض الجزية وحين كان الإسلام ضعيفاً، كان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم، إذا قاتلوا مع المسلمين، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب)) انظر: حاشية مختصر سيرة ابن هشام: ١٠٨.

(٢) المرجع السابق:١٠٧-١٠٨.

(٣) انظر المرجع السابق: ١٣٣.

(٤) انظر المرجع السابق: ١٣٥.

وقد شنّ بعض شعراء اليهود حرباً على الإسلام والمسلمين؛ وكان على رأس هؤلاء كعب بن الأشرف الذي كان يحرض أهل الشرك -بعد بدر- على الانتقام من المسلمين، (وجعل ينشد الأشعار، ويحرض الناس على رسول الله ﷺ، ويبكي على قتلى بدر من أصحاب القليب، ثم رجع إلى المدينة فشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم)[١] فلما بلغ أذى هذا الشاعر مداه، أمر الرسول بقتله، فقتله عدد من المسلمين.

وأدرك بنو النضير أن شأن المسلمين يرتفع يوماً بعد آخر، فرأوا أنه لا بد من التخلص من النبي ﷺ؛ حتى ينتهي الإسلام والمسلمون، فكانت مؤامرتهم لقتله ﷺ حين خرج إليهم يستعين بهم في دفع دية، فقالوا: (...يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه -ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد- فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟...)[٢] فصعد أحدهم -ورسول الله مع جماعة من أصحابه- فأوحى الله إليه بما دبروه من غدر، فقام ورجع إلى المدينة، وتهيأ لحربهم، بعد نقضهم للعهد، فحاصرهم، ثم أجلاهم عن المدينة، وغنم المسلمون أرضهم وأموالهم[٣].

ونزلت فيهم سورة الحشر، وفيها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ

(١) مختصر سيرة ابن هشام: ١٣٥.

(٢) المرجع السابق: ١٥٩.

(٣) انظر المرجع السابق: الصفحة نفسها.

ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٥٩/٢].

وتستمر المؤامرة، حيث يعمل اليهود على تأليب الأعداء والأحزاب لحرب المسلمين، ويمنّوهم أنهم سيكونون معهم بأموالهم ورجالهم، فلما علم رسول الله بما أجمعوا عليه، ضرب الخندق على المدينة، فكانت غزوة الأحزاب، التي طال فيها الحصار على المسلمين، وكان نقض يهود بني قريظة للعهد بلاءً عظيماً على المسلمين فزُلزلوا زلزالاً شديداً، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/١١] إلى أن أذن الله بالنصر لجند الحق، وهُزم الأحزاب ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٩]. وحاصر المسلمون بني قريظة -بعد غزوة الأحزاب- حتى أنهكهم الحصار؛ فأدركوا أنهم لا قبل لهم بقوة المسلمين، فنزلوا على حكم الرسول الكريم، وحكّم فيهم سعد بن معاذ، الذي حكم ((بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء))[1].

فكان ذلك جزاءً وفاقاً لغدرهم ونقضهم العهد. ونزل قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٧].

وفي خيبر -بؤرة الفساد- تجمعت فلول اليهود المنهزمين؛ فقاموا بتأليب الأعراب على المسلمين، فباغتهم النبي ﷺ ذات صباح، ففتح الله على يديه حصونهم المنيعة، وجاس خلال ديارهم دون مقاومة؛ فاستسلموا وسألوا الصلح، فصالحهم

(١) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: ٢٦٥.

الرسول على نصف خيبر[١]. ولكنهم عاودوا الغدر، حين أهدت يهودية من خيبر شاة مسمومة لرسول الله، فلما وضعته بين يدي رسول الله ﷺ قال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم» ثم دعاها، فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك؟» فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر؛ فتجاوز عنها رسول الله ﷺ وكان بشر بن البراء بن معرور يأكل مع رسول الله ﷺ فأكل منها قطعة وكان ذلك سبب موته[٢].

وهكذا فإنه مع سياسة اللين والتسامح التي عامل بها النبي ﷺ اليهود، ومع معاهدة الأمان المعقودة بينهم وبين المسلمين، فقد ظل اليهود يقاومون الدولة الإسلامية ويتآمرون ضدها دون أن يأبهوا بالمواثيق والعهود إلى أن أمر الله تعالى رسوله بإجلائهم بالقوة من المدينة المنورة.

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلى من بقي منهم في فدك وتيماء ووادي القرى إلا من كان عنده عهد أو بيّنة من رسول الله ﷺ. وتم بذلك تطهير الجزيرة العربية من اليهود[٣].

ب. الإسلام والأرض المباركة:

يرتبط أتباع الأديان السماوية بأرض فلسطين ارتباطاً تاريخياً وثيقاً؛ فهي الأرض التي بعث الله فيها كثيراً من الأنبياء، وفيها وُهب إبراهيم -عليه السلام- ذرية مسلمة طيبة، تدين بالمنهج الإسلامي الرباني.

---

(١) انظر السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: ٣٠٣.

(٢) المرجع السابق: ٣٠٥.

(٣) انظر: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: ٤٨١.

وتضم هذه الأرض مدينة القدس ذات المكانة المتميزة في عقيدة المسلم وتاريخ الإسلام؛ ففيها المسجد الأقصى الذي أُسري بالرسول ﷺ إليه، ثم عرج به إلى السماوات العلا، يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١٧/١][(١)].

فكان الإسراء والمعراج من الأحداث الإسلامية البارزة التي خلدت اسم القدس وربطت بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ربطاً روحياً قدسياً، قبل أن تتصل حدود أرضيهما ببضعة عشر عاماً[(٢)].

والمسجد الأقصى ثاني مساجد الدنيا وجوداً بعد المسجد الحرام، لما ثبت في سنن ابن ماجه عن أبي ذر الغفاري، قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وُضع أول؟ قال: المسجد الحرام. قال: قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً... الحديث[(٣)]. كما أن هذا المسجد هو ثالث الحرمين الشريفين ولا تشد الرحال إلا إليها: لحديث رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا»[(٤)].

(١) وانظر حديث الإسراء في صحيح البخاري: ١٣١/٥ الحديث (٣٨٨٦)، وحديث المعراج: ١٣٢/٥-١٣٤ الحديث (٣٨٨٧).

(٢) انظر أهمية القدس في الإسلام: ٢١-٢٥. وانظر بيت المقدس وما حوله: ٦٢-٦٣.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه: ١٢٥/١ (٧٥٣).

(٤) صحيح البخاري: ٥١٢/٢ (١٩٩٥).

وضمت هذه الأرض المباركة القبلة الأولى التي اتجه إليها النبي الكريم، إلى أن أمر الله تعالى باستقبال الكعبة؛ وذلك حين هاجر الرسول إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود؛ ففرحوا لتوجه الرسول الكريم إلى قبلتهم (بيت المقدس)(١)؛ فنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢/١٤٤]. فتمّ تحويل القبلة إلى الكعبة بعد ستة عشر شهراً من الهجرة(٢). ولهذا، كانت فلسطين أرضاً حباها الله بالخير، وخصها بالبركة، وقد وصفها القرآن الكريم بصفات الطهر والقدسية والبركة في مواضع عديدة منها آية الإسراء والمعراج السابق ذكرها، وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٧١]. فالأرض التي بارك فيها -كما ذكر الشوكاني- ((قيل [إنها] بيت المقدس؛ لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء، وهي أيضاً كثيرة الخصب))(٣). وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ [سبأ: ٣٤/١٨]. ((قال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها هي بيت المقدس))(٤) وهي الأرض المقدسة التي ذكرت على لسان موسى في قوله جل شأنه: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٥/٢١](٥).

(١) انظر تفسير ابن كثير: ١/١٦٩.

(٢) انظر حديث تحويل القبلة في صحيح البخاري: ١/٨٣ (٤٠) و(٣٩٩).

(٣) فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: ٣/٤١٦.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/٥٣٣.

(٥) انظر تفسير الآية في فتح القدير: ٢/٢٦.

ومؤدى ذلك -لا مراء- أن فلسطين لدى المسلم قضية عقيدة وحضارة، لا قضية أرض وتراب، فأرض فلسطين هي منبت عقيدة التوحيد، ومهبط الرسالات، وملتقى النبوات على امتداد صفحات التاريخ.

وإزاء هذا فإن مسؤولية الأمة العربية والإسلامية، مسؤولية تامة عن قدسية الأرض الفلسطينية ووحدتها؛ بوصفها أمانة تاريخية، لا يجوز التفريط فيها، أو التصرف بها، ولا يحق لأحد التنازل عنها.

جـ. فتح فلسطين والمعارك الإسلامية:

كان أول عمل حربي للمسلمين خارج الجزيرة العربية هو تسيير أول قوة إسلامية إلى بلاد الشام، حيث بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة -في السنة الثامنة للهجرة- على رأس تلك القوة، وكان عددها ثلاثة آلاف مقاتل؛ للاحتكاك بقوات الروم التي كانت تحكم سيطرتها على بلاد الشام، ومن جملتها: الأردن وفلسطين، وكان هرقل ملك الروم قد حشد مئة ألف مقاتل، وانضم إليهم مثل هذا العدد من قبائل العرب. ومع هذا التفوق العددي الكبير للعدو، أقدم المسلمون بشجاعة، وقاتلوا جموع الروم في معركة مؤتة. ودارت المعركة التي أثبتت استعداد المسلمين للتضحية والفداء في سبيل الله. فاستشهد في هذه المعركة زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة[١].

وفي العام التاسع للهجرة، جهز رسول الله ﷺ جيشاً لغزو الروم، وخرج في ثلاثين ألفاً من أصحابه، فلما بلغوا تبوك، لم يجدوا للرومان أثراً يدل على تأهبهم للحرب؛ فقد آثروا الصلح على ملاقاة الجيش الإسلامي الفتيّ الذي كان أول

---

(١) انظر مختصر سيرة ابن هشام: ٢١٥-٢١٧.

جيش إسلامي يخرج بهذا العدد. ثم عاد الرسول الكريم إلى المدينة بعد أن صالح أهل أيلة[١]؛ وأعطوه الجزية[٢].

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة، عقد عليه الصلاة والسلام اللواء لجيش أسامة بن زيد، وأمره أن يسير إلى موضع مقتل أبيه في تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين[٣]، وكان في هذا ((إشارة من الرسول ﷺ إلى صحابته من بعده، أن ما بدأه لا بد أن يستمر، وأنه لا بد من مواصلة الجهاد في سبيل الله حتى يسقط طواغيت الروم، وتتحرر بلاد الشام -بما في ذلك بيت المقدس- من ربقة الاحتلال النصراني ومن شايعه من أبناء العرب المشركين))[٤].

وبعد وفاة النبي الكريم، أمر الخليفة أبو بكر الصديق بإنفاذ جيش أسامة، الذي عقد لواءه رسول الله بيده قبيل وفاته قائلاً: «اغزُ باسم الله في سبيل الله فقاتل من كفر بالله»[٥]. ومع انشغال الصديق بحروب الردة، إلا أنه أبى أن يحلَّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ فوصل أسامة وجيشه إلى تخوم البلقاء، وشنّ عليهم الغارة، وقتل قاتل أبيه، وغنم غنائم كثيرة، ثم عاد إلى المدينة ولم يُصَب من المسلمين أحد[٦].

---

(١) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (الأحمر) مما يلي الشام. انظر: معجم البلدان: ١/٢٩٢.

(٢) انظر السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: ٣٦٦.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى: ٢/١٩١.

(٤) الطريق إلى بيت المقدس: ٥٤.

(٥) الطبقات الكبرى: ٢/١٩٠.

(٦) انظر المرجع السابق: ٢/١٩١.

وفي العام الثالث عشر من الهجرة وجه أبو بكر الصديق أربعة جيوش إلى بلاد الشام، فبعث عمرو بن العاص إلى فلسطين، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وأبا عبيدة بن الجراح إلى حمص، وشرحبيل بن حسنة إلى وادي الأردن، ثم سيّر الصديق جيشاً آخر بقيادة خالد بن الوليد الذي وحّد القيادة، فكانت المعركة الفاصلة في وادي اليرموك، في العام الثالث عشرة للهجرة، حيث انتصر المسلمون انتصاراً عظيماً على جيش الروم الذي كان عشرة أمثالهم. ووقعت -في العام نفسه- المعركة الثانية بين جيش الإسلام وجيش الروم، في أجنادين[١]. فتمكن أفذاذ القادة المسلمين من هزيمة جموع الروم، بعد معركة شديدة الضراوة انجلى غبارها عن نصر عزيز للمسلمين[٢].

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة عين أبا عبيدة قائداً لجيوش الفتح، المتوجهة نحو بيت المقدس، ففتح عدة مدن بفلسطين؛ مما مهد للجيش الإسلامي الطريق للزحف نحو بيت المقدس. ثم كتب أبو عبيدة إلى أهل إيلياء[٣]؛ يدعوهم إلى الإسلام، أو دفع الجزية أو يأذنوا بحرب، فلما لم يستجيبوا؛ سار إليهم أبوعبيدة وضرب الحصار حول بيت المقدس في أيام بردٍ شديدة، فضيّق عليهم، حتى استيأس أهل إيلياء من مغالبة الحصار، الذي دام أربعة أشهر، فأجابوا إلى الصلح، على أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه؛ ليعطيهم العهد ويكتب لهم الأمان. فكتب أبو عبيدة إلى عمر؛ فاستشار كبار الصحابة، وأشار

(١) أجنادين موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين، من الرملة من كورة بيت جبرين، انظر معجم البلدان: ١/١٠٣.

(٢) انظر السيرة النبوية وأخبار الخلفاء:٤٤٦-٤٥٢.

(٣) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، انظر معجم البلدان: ١/٢٩٣.

عليه علي بن أبي طالب بالخروج إليهم، فجاء عمر إلى بيت المقدس في السنة السادسة عشرة للهجرة، ودخل القدس مكبراً، وكتب وثيقة الأمان المعروفة بالعهدة العمرية[١]. ((وكانت هذه العهدة العمرية رمزاً على تسامح الإسلام، وتجربة عملية لتطبيق عدل الإسلام، ومبادئه التي تقرر أنه لا إكراه في الدين، ويلاحظ فيها النص على منع اليهود من السكن في إيلياء[٢] بناءً على طلب البطريرك؛ ذلك لأن المسلمين حينما فتحوا بيت المقدس لم يجدوا فيها أحداً من اليهود؛ لأن النصارى قد حرموا عليهم العيش في المدينة المقدسة؛ تخلصاً من مؤامراتهم ودسائسهم))[٣].

وبنى عمر رضي الله عنه مسجداً أمام الصخرة المشرفة، أما المسجد الأقصى وقبة الصخرة بشكلهما الحاضر فقد تمّ بناؤهما في عهد الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد، وما زالا إلى اليوم من أهم الآثار الإسلامية الخالدة[٤].

وظلت المدينة المقدسة عربية إسلامية مصونة محفوظة في كنف الدولة العباسية؛ وقد أولاها الخلفاء العباسيون اهتمامهم العظيم؛ فأصلحوا بناء المسجد، وجعلوه أوثق وأحسن صناعة مما كان عليه، وذلك في عهد أبي جعفر المنصور والمهدي والمأمون[٥].

(١) انظر الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ١/٢٤٦-٢٥٨.

(٢) انظر نص العهدة في الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ١/٢٥٣.

(٣) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية: ١٣١.

(٤) انظر الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ١/٢٧٢-٢٧٣.

(٥) انظر المرجع السابق: ١/٢٨٢-٢٨٣.

واستمرت هذه الأرض المباركة في أمان واستقرار تحت حكم الدولتين الطولونية والإخشيدية.

وفي عهد الفاطميين تغير الحال إلى ما لم تحمد عقباه؛ حيث عمل الحكام الفاطميون على تقريب النصارى في فلسطين واسترضائهم؛[١] مما جدد أطماع النصارى في الاستيلاء على هذه الأرض؛ فكان ذلك من الأسباب الرئيسية لتجهيز الحملات الصليبية وإغارتها على البلاد الإسلامية واستيلائها على بيت المقدس.

وانتهزت الصليبية الحاقدة فرصة تنازع الفاطميين والسلاجقة على المدينة المقدسة؛ فشنّت حرباً ضد المسلمين؛ لإخراجهم من بيت المقدس، متظاهرين بأنهم أصحاب عقيدة، وأن لهم مقدسات يرغبون في استرجاعها في أرض الشام[٢]. فوقعت القدس في يدي النصارى عام ٤٩٢هـ، بعد خمسة قرون كاملة في ظل حماية دول الخلافة الإسلامية المتتابعة.

وأمعن النصارى في التدمير ونشر الرعب، ولم يسلم من بطشهم رجل ولا امرأة ولا شيخ ولا طفل، ((وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين... وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم))[٣].

(١) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ٣٠٧/١.

(٢) انظر البداية والنهاية: ١٥٦/٢، وانظر الكامل في التاريخ: ١٩/٩.

(٣) الكامل في التاريخ: ١٩/٩.

ولا يخفى على عاقل البونُ الشاسع بين فتح المسلمين للقدس في عهد عمر رضي الله عنه وبين هذا الفتح الحاقد المدمّر، فقد أمّن عمر النصارى على أنفسهم وأموالهم، وعاملهم معاملة كريمة. فكان مثالاً للعدل والتسامح؛ لأنه داعية خير وسلام؛ فلم يستبح دماً ولا مالاً، كما فعل الصليبيون الذين نهبوا الأموال، وخربوا أثاث المسجد الأقصى ومسجد الصخرة، ونهبوا القناديل الذهبية[١].

وتبقى المدينة المقدسة في يد الصليبيين أكثر من تسعين عاماً إلى أن قيّض الله لها قائداً مسلماً غيوراً هو صلاح الدين الأيوبي، الذي عزم على تطهير الأرض المباركة؛ فدارت معركة حطين الحاسمة، قرب بحيرة طبرية (٥٨٣هـ)، حيث أحاط المسلمون بالصليبيين من كل جانب، وقطعوا عليهم السبل إلى موارد الماء، ثم أشعلوا حولهم النيران؛ فضاق بهم الأمر، واشتد القتال، فكان النصر حليف المسلمين؛ مسطّرين بذلك صفحة مشرقة مجيدة في تاريخ الإسلام[٢]. ثم سقطت المدن تباعاً في يد الجيش الإسلامي، فاستولى على قلعة طبرية وتسلّم بلاد الأردن، ثم سار إلى عكا ففتحها صلحاً؛ مما فتح الطريق أمامه إلى بيت المقدس؛ فحاصرها حصاراً شديداً، ودارت رحى الحرب بعنف إلى أن سقط البرج المحصن فيها ودخل صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ؛ فهرع الصليبيون إلى القائد صلاح الدين لطلب الأمان، فأجابهم إلى الصلح؛ ضنّاً منه بدماء الأسرى من المسلمين، الذين كانوا في أيدي الصليبيين المنهزمين، الذين هددوا بقتل أولئك الأسرى؛ ما لم يجبْهم صلاح الدين إلى الصلح[٣]. فسمح لهم صلاح الدين بدفع

(١) الكامل في التاريخ: ٩/١٩-٢٠.

(٢) انظر الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢/٧٤-٩٠.

(٣) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢/٧٤-٩٠.

الجزية؛ وجاءت شروط الصلح سهلة ميسرة؛ مع أن صلاح الدين قد حدد الفدية بعشرة دنانير عن كل رجل، وخمسة عن كل امرأة، ودينار عن كل طفل، إلا أنه عفا عن كثير منهم، وكانت معاملته لهم مضرب المثل في العدل والإنصاف، وسمح لهم بحرية العبادة في كنيسة القيامة، وأن يسكنوا بيت المقدس آمنين مطمئنين. وشتان بين هذه الروح الإسلامية السامية وبين ما فعله الصليبيون الحاقدون عند غزوهم القدس عام ٤٩٢هـ، من تذبيح للمسلمين والبطش بهم حتى خاض الناس في الدماء على شوارع بيت المقدس[١].

د. فلسطين في العهد المملوكي والعثماني:

ظلت أرض فلسطين إسلامية في عهد الأيوبيين؛ إلى أن انقسمت دولتهم المترامية الأطراف، وضعفت شوكتهم؛ فاستغل الأعداء من الفرنج هذه الفرصة؛ وانتزعوا بيت المقدس منهم ثانية. ولكن تمكن الملك الصالح نجم الدين أيوب من استعادتها سنة ٦٤٣هـ.

وبعد سقوط الدولة الأيوبية، بدأ عهد المماليك الذين دافعوا عن الأرض المباركة؛ وردوا عنها هجمات الفرنج والتتار[٢].

وفي عهد الملك المظفر سيف الدين قطز اجتاح التتار بقيادة هولاكو أرض الرافدين والجزيرة وبلاد الشام ومصر، وأنزلوا بأهلها أنواع النكال والدمار، ولما علم الملك المظفر بما كان من أمرهم بالشام، وما فعلوه فيها من نهب وسلب وتدمير، بادرهم وخرج بجيشه إلى الشام؛ فالتقى بجيش هولاكو في رمضان

(١) انظر الكامل في التاريخ: ١٠/١٤٩.

(٢) انظر الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ٢/٨٥.

٦٥٨هـ، ووقعت معركة عين جالوت العظيمة، التي انتصر فيها المسلمون، وهُزم جيش المغول هزيمة ساحقة.

وبعد هذه المعركة توفي الملك المظفر قطز، وتولى الحكم بعده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، الذي حكم بلاد الشام حكماً عادلاً، وطارد من بقي فيها من الصليبيين، كما قاوم جيوش التتار التي حاولت استرجاع الشام، فصدهم عنها وكرّوا راجعين[١].

وحينما تولى السلطان المملوكي المنصور قلاوون السلطة، واصل مسيرة الجهاد ضد الأعداء من التتار والفرنج، فنازلهم في مواقع عديدة، وألحق بهم الهزيمة، فنجت بلاد الشام من شرهم[٢].

وقام ابنه الأشرف خليل من بعده بتطهير بلاد الشام من بقايا الجيوب الصليبية، فاسترجع بقية ثغور الشام من أيدي الصليبيين سنة ٦٩٠هـ. وبذلك انتهى الوجود الصليبي في الشام؛ وأضحى العالم المسيحي الشرقي خاضعاً لحكم المسلمين[٣].

ولا ريب أن هذه المواجهات الإسلامية مع العدو الصليبي هي التجربة التي يجب أن تكون ماثلةً أمام المسلمين اليوم؛ ليعلموا أن الطريق الصحيح لمواجهة العدو هو الطريق الإسلامي الذي سار عليه صلاح الدين وقطز وبيبرس فحقق لهم النصر على الأعداء؛ لأنه هو وحده منطلق النصر.

---

(١) انظر البداية والنهاية: ١٣/٢١٩-٢٢٠-٢٢٣.

(٢) انظر المرجع السابق: ١٣/٢٩٤.

(٣) انظر المرجع السابق: ١٣/٣١٩-٣٢٣.

وجدير بالذكر أن بيت المقدس في العهد المملوكي أصبح مركـزاً للثقافـة الإسلامية، حيث اهتم المماليك بالعلم وبنوا المدارس، ووفد إليهم العلماء من كل مكان، واهتموا بترميم مسجد قبة الصخرة فزخرفوا القبة بالفسيفساء(١).

وفي عهد العثمانيين احتل السلطان سليم الأول بلاد الشام بعد معركة [مرج دابق] مع المماليك سنة ٩٢٢هـ، ثم سار إلى فلسطين وقضى على بقايا المماليك الذين تجزأت وحدهم؛ فاحتل فلسطين دون قتال، ثم غادرها إلى مصـر، الـتي أصبحت إحدى ولايات السلطنة العثمانية.

ولما توفي السلطان سليم الأول، تولى من بعده ابنه السلطان سليمان القانوني، الذي جدّد عمارة سور القدس، وعمّر قبة الصخرة، وجدران الحرم وأبوابه(٢).

((ومن السلاطين المشهورين في العهد التركي السلطان محمود الثاني الـذي جرت في عهده حوادث جسام، منها حملة نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨م، وكان الهدف منها توسيع إمبراطوريته،...لكن أمله لم يتحقق،... ومن تلك الحـوادث الجسام حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام... [الذي] كاد أن يدخل الآستانة لولا تدخل الدولة الأجنبية، وعلى رأسها إنجلترا التي خشيت من توسع نفوذ محمـد علي؛ فوقفت إلى جانب الدولة العثمانية، وضغطت على محمد علي لقبول الصلح مع الدولة العثمانية،... وأصبحت مصر وفلسطين وبعض أراضي بلاد الشـام، تابعة لولاية محمد علي [إلى أن انسحب عنها] بعد أن دام حكم أسرة محمد علي فيها عشرة أعوام))(٣).

---

(١) انظر الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ٢/٨٦-٨٩.

(٢) انظر مدن فلسطين الكبرى، القدس: ٦٦-٦٧.

(٣) المرجع السابق: ٦٨-٦٩.

ومن السلاطين ذوي الشأن، السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الذي صدر في عهده قانون يمنع اليهود من دخول فلسطين، إلا في حالة الحج والزيارة (١٨٨٢م)، ثم أصدر قانوناً يحرم بيع أراضي الحكومة إلى اليهود (١٨٩٢م). وقد واجه السلطان عبد الحميد الثاني المؤامرات الصهيونية لتهويد فلسطين، تمهيداً لإقامة الدولة اليهودية فيها[١].

ففي عام (١٨٩٧م) عرض هرتزل[٢] على السلطان عبد الحميد مبلغاً كبيراً من المال نظير السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين والتوطن فيها، ولكن السلطان عبد الحميد وقف موقفاً ثابتاً وحاسماً أمام هذا العرض الصهيوني، وقال: ((... إني لا أستطيع أن أتخلّى عن شبر واحد من الأرض؛ فهي ليست ملك يميني، بل ملك شعبي. لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم... إن عمل المبضع في بدني لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بُترت من إمبراطوريتي. إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة))[٣].

وهكذا ظلت هذه المواقف المشرفة للسلطان عبد الحميد الثاني عقبة كأداء في وجه هرتزل، ومحاولاته المتكررة من أجل تنفيذ المشاريع الصهيونية في فلسطين.

---

(١) مدن فلسطين الكبرى، القدس: ٧٠-٧١.

(٢) من أخطر زعماء الصهيونية في العالم، نُصّب في مؤتمر بال (١٨٩٧م) بسويسرا رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية، انظر الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية: ١٨٧، وانظر التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد: ٤٨-٤٩.

(٣) التاريخ الإسلامي، العهد العثماني: ٨/٢٠٠.

المبحث الثاني

الأرض المباركة في التاريخ الحديث

أ. أحداث ما قبل عام (١٩٦٧م):

نكبة عام (١٩٤٨م) وجذورها التاريخية:

لم تلبث الدولة العثمانية أن تضعضعت وتجزأت؛ فحققت الصهيونية العالمية هدفها الأول من انبعاثها حركةً سياسيةً في العصر الحديث، في إقامة الوطن القومي اليهودي، وتهجير الآلاف من اليهود من روسيا ورومانيا وبولندا منذ عام ١٨٨٢م فقد اتسع نطاق الهجرة بعد تمزيق الدولة العثمانية عن طريق النعرات العنصرية التي أثارها اليهود، وإيقاع أبرز فريقين يشكلان الدولة (الترك والعرب) في صراع شديد، انتهى بانضمام تركيا إلى ألمانيا وانضمام العرب إلى فرنسا وإنجلترا[(١)].

وكان من أهم العوامل التي ساعدت على رفع الستار عن وجه الصهيونية السافر؛ عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧م، بقيادة هرتزل، الذي اتخذ عدة قرارات مهمة منها:

- تنصيب هرتزل رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية.

- إنشاء دولة يهودية في فلسطين تجمع شتات اليهود.

---

(١) انظر المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية: ٩٠.

- تقوية الروح القومية اليهودية[١].

وبذلك اتسع نطاق الحركة الصهيونية، وتطورت أطماع اليهود. فبعد أن كانوا يتطلعون إلى الإقامة في فلسطين تحت الحكم العثماني، قفزت أطماعهم إلى الاستيلاء على فلسطين، وإقامة دولة عنصرية فيها.

وعندما أعلن الشريف حسين الثورة ضد الدولة العثمانية -مخدوعاً بوعود بريطانيا للتغرير به- في الوقت الذي كانت تجتمع فيه مع فرنسا للتفاوض على مستقبل البلاد العربية، انتهت تلك المفاوضات إلى سلسلة من الاتفاقات؛ عملت على تقسيم تركة الدولة العثمانية، وأهم تلك الاتفاقيات اتفاقية سايكس بيكو (١٩١٦م)، التي وزعت البلاد العربية بين روسيا وفرنسا وإنجلترا، وكان من نصيب الأخيرة المنطقة الممتدة من جنوب سورية حتى العراق (وشملت بغداد، البصرة، حيفا، عكا) أما منطقة القدس فكانت منطقة دولية.

وتعد هذه المعاهدة أحد الأدلة الواضحة على نفاق السياسة الإنجليزية ضد العرب أثناء الحرب العالمية الأولى[٢].

وتضاف حلقة أخرى إلى سلسلة الوعود البريطانية الغادرة؛ وذلك في تشرين الثاني ١٩١٧م، حيث تم تصريح بلفور وزير خارجية بريطانيا، الذي وعد بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين[٣]. ((والحقيقة أن وعد بلفور لم يكن مجرد وعد قطعته بريطانيا على نفسها للصهيونية العالمية لإقامة دولة يهودية في فلسطين على أنقاض

(١) انظر الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية: ١٨٧.

(٢) انظر جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن: ٥٤-٥٧.

(٣) انظر نص التصريح والدوافع إليه في: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية: ٢٣٤-٢٣٦.

أصحابها الشرعيين، و لم يكن مجرد تصريح صادر عن وزير خارجية دولة كبرى أملته ظروف معينة؛ لكنه كان في حقيقته أعمق من ذلك غوراً وأبعد أثراً؛ إنه كان نقطة تحول هائلة في مجرى السياسة الدولية؛ فقد كان حلفاً أبرمه الاستعمار البريطاني مع الصهيونية العالمية، لتنسيق سياستهما المبنية على تلاقي أطماعهما ومصالحهما المشتركة في الوطن العربي خاصة، وعلى الصعيد الدولي عامة))[١].

وبدأ الاحتلال البريطاني على الفور، ببرنامج تسليم فلسطين لليهود؛ فعُين هربرت صموئيل مندوباً سامياً في فلسطين؛ بزعم حفظ التوازن بين العرب واليهود؛ فبدأ بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين وتمليكهم الأراضي، عن طريق انتزاع الأراضي الزراعية من المواطنين العرب، ونقل ملكيتها إلى اليهود المهاجرين في سياسة تعسفية واضحة تمثلت في أمور، منها:

- فرض الضرائب الباهظة على الأراضي؛ لإثقال كاهل المزارعين وبالتالي توقيع الحجر على أراضيهم.
- منع تصدير المحاصيل؛ مما يؤثر على دخل المزارع.
- تصفية البنك الزراعي العثماني، وتحصيل ديونه عنوة من المزارعين[٢].

هذا، واستمرت سياسة التهويد بخطىً سريعة، فعمّ البلاد السخط جراء هذه السياسة الجائرة؛ فاشتعلت الثورات في أنحاء فلسطين كلها، ابتداء من ١٩٢٠م وحتى خروج الإنجليز من فلسطين في عام ١٩٤٨م.

---

(١) أعلام الجهاد في فلسطين، أحداث القضية الفلسطينية خلال ستين عاماً: ٢٩.

(٢) مدن فلسطين الكبرى، القدس: ١/٧٥-٧٧.

ومن تلك الثورات: ثورة نيسان سنة ١٩٢٠م التي حدثت في موسم موسى[(١)]، حيث هتف الثوار المسلمون ضد الصهيونية والاستعمار، وانقلب الاحتفال الشعبي الديني إلى مظاهرة وطنية مقاتلة؛ تعبر عن ازدياد الشعور بالمرارة تجاه السياسة البريطانية المعادية للشعب الفلسطيني؛ حيث حدثت هذه الثورة إثر تفاقم الاستفزازات اليهودية ضد سكان فلسطين في القدس. ومما ألهب حماس الجماهير المسلمة خطب مشايخ فلسطين الذين قادوا الثورة[(٢)] وانطلقت هذه الثورة من القدس، فكانت أول مواجهة على نطاق واسع بين الجماهير المسلمة الرافضة للوجود اليهودي، وبين العصابات الصهيونية الإرهابية، وأسفرت عن قتل عدد كبير من الجنود البريطانيين واليهود[(٣)].

وفي (أيار ١٩٢١م) اندلعت الثورة في يافا؛ وكان سببها المظاهرة التي قام بها اليهود للتحرّش بالعرب، وكانت تلك الثورة رداً رافضاً لتغلغل التيار الشيوعي الذي نشره اليهود في البلاد، وأسفرت عن سقوط عدد من القتلى من الطرفين[(٤)].

وفي (آب ١٩٢٩م) كانت ثورة البراق، وذلك عندما تزايدت صيحات اليهود المطالبة بالحائط الغربي للمسجد الأقصى (حائط البراق) الذي يسميه

(١) الفكرة التي يعبر عنها هذا الموسم هي حشد أكبر عدد ممكن من المسلمين لإحباط أي مؤامرة يمكن أن يقوم بها النصارى عند زيارتهم للأماكن المقدسة في أعيادهم، انظر البعد الإسلامي في الحركة الوطنية الفلسطينية: ٢٦-٢٧.

(٢) من هؤلاء القادة: عبد القادر المظفر، الحاج أمين الحسيني، موسى كاظم الحسيني،عبد الفتاح درويش، عارف العارف، خليل بيدس.

(٣) انظر البعد الإسلامي في الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة البراق حتى الانتفاضة: ٢٦-٢٧.

(٤) انظر المرجع السابق: ٢٨، وانظر خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية: ٢٣٦.

اليهود (حائط المبكى) ونُشرت التصريحات اليهودية التي أعلنت هدفها في إقامة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، فجاؤوا إلى الحائط في عيد الغفران بأعداد كبيرة، وأحضروا المقاعد والموائد والمصابيح؛ ليحولوا المكان إلى كنيس يهودي؛ فغضب المسلمون واتفقوا -في اجتماع لهم تحت قبة الصخرة- على تشكيل لجنة ممثلة لهم سموها ((لجنة الدفاع عن البراق الشريف)).

وكان للحاج أمين الحسيني دور بارز في إثارة الجو الإسلامي في البلاد، إثر وقوع هذه الأحداث، واكتسبت قضية البراق بعداً إسلامياً واسعاً، وبخاصة في المناطق القريبة من فلسطين[١].

وعُقد مؤتمر إسلامي في القدس كان من أهم نتائجه تشكيل جمعية حراسة الأقصى والأماكن الإسلامية المقدسة، ومركزها القدس.

ولما قطع الأعداء كل أمل في زحزحة المفتي أمين الحسيني عن موقفه الصلب بشأن البراق؛ لجؤوا إلى محاولة إغرائه بالمال؛ لتبديل موقفه، والتساهل مع اليهود؛ تمهيداً لتنفيذ خطتهم الرامية إلى الاستيلاء على البراق، ولكن الحاج أمين رفض العرض اليهودي بكل إباء.

وفي (آب ١٩٢٩م) اشتعلت ثورة البراق، عندما نظّم اليهود مظاهرة ضخمة، رفعوا فيها العلم الصهيوني على حائط البراق؛ فخرج المسلمون في باحة المسجد الأقصى، في مظاهرة عظيمة، ووقع اصطدام دموي قاتل فيه المسلمون بشجاعة فكانت حصيلة هذه الاشتباكات مئات القتلى والجرحى من الفريقين[٢].

(١) انظر أعلام الجهاد في فلسطين، الحاج أمين الحسيني، رائد جهاد وبطل قضية: ٩٨-١٠١.

(٢) انظر أعلام الجهاد في فلسطين، الحاج أمين الحسيني، رائد جهاد وبطل قضية: ٩٨-١٠١.

ولا جرم أن لهذه الثورات أهمية قصوى؛ بما أثبتته من كون العنصر الديني هو المحرك الرئيس للشعب الفلسطيني في كفاحه ضد العدو، الذي بات يهدد حرياته واستقلاله ومقدساته كذلك.

واستمرت بريطانيا في مرحلة الثلاثينيات (١٩٣٠-١٩٣٩م) في سياستها الرامية إلى تهويد فلسطين وتمزيق الكيان العربي. فكان أبرز الأحداث الوطنية التي شهدتها فلسطين في تلك الفترة، أحداث تشرين الأول ١٩٣٣م، عندما دعت القيادة الفلسطينية إلى الاحتجاج على الحالة الرهيبة في البلاد؛ فانطلقت مظاهرة القدس الكبرى من الحرم الشريف، فبادر العدو إلى إطلاق النار لتفريق المتظاهرين؛ مما أسفر عن عدد من الجرحى والقتلى الفلسطينيين.

وحدثت في العام نفسه مجزرة في يافا، قُتل وجُرح فيها عدد كبير من الفلسطينيين، فقامت مظاهرات في حيفا والقدس ونابلس وغزة؛ إثر تلك المجزرة في يافا(١).

وفي عام (١٩٣٥م) بدأت ثورة الشيخ عز الدين القسّام، الذي كوّن حركة جهادية لتحرير الوطن من العدو الصليبي والصهيوني. وامتاز القسّام عن غيره في تلك الفترة بتركيزه على الاستعمار البريطاني؛ لإدراكه أنه العدو الرئيس الذي تجب مقاومته؛ فاستقر في حيفا، وبدأ مرحلة الإعداد والتهيئة النفسية للثورة، ثم كوّن الوحدات الجهادية المنظمة، التي قامت بأعمال بطولية عظيمة؛ أسفرت عن اغتيال عدد من الضباط الإنجليز، وتنفيذ عمليات فدائية ضد المستوطنات اليهودية. ثم استشهد الشيخ القسّام بعد أن قاوم ببسالة وأبى الاستسلام، ومع

(١) انظر البعد الإسلامي للحركة الوطنية الفلسطينية: ٤٤-٤٥.

فرصة النجاة التي سنحت له ولرفاقه، الذين هتف بهم قبل موته قائلاً: ((موتوا شهداء))[١].

((ومن المهم الإشارة إلى أن معركة يعبد -التي استشهد فيها القسام- قد أكسبت الجهاد في فلسطين بعده الإسلامي الواسع.. وقد ذكر عديد من المؤرخين للحركة الوطنية الفلسطينية أن استشهاد القسّام كان بمثابة القبس الذي أشعل نيران الثورة الفلسطينية الكبرى))[٢] فقد بدأت هذه الثورة بتحرشات اليهود بسكان يافا، فردّ العرب على هذا العدوان اليهودي؛ فهرعت قوات الإنجليز لحماية اليهود والدفاع عنهم؛ وتطورت الأحداث إلى قتال بين العرب واليهود في (نيسان ١٩٣٦م)؛ فقُتل وجُرح عدد كبير من اليهود، واستشهد ستة من العرب، وبدأ الإضراب في جميع أنحاء فلسطين؛ تعبيراً عن السخط ضد السياسة البريطانية فكان إضراباً لم يُعرف له مثيل في تاريخ البلاد؛ استمر ستة أشهر. فكانت تلك صورة نادرة من صور البطولة، رسمها الشعب الفلسطيني المجاهد. وتحوّل الإضراب إلى جهاد مسلح في مختلف المدن الفلسطينية؛ فأشعلت الحرائق، وألقيت القنابل. ولم يفتّ في عضد المجاهدين القمع من قبل سلطات الانتداب، بل زادهم ذلك تماسكاً وتصميماً[٣].

((وحينما يئس الإنجليز من إخماد الثورة حربياً لجؤوا إلى الحيلة والدسائس والمكر، وأقنعوا ملوك العرب بالتوسط لإنهاء الإضراب، ووقف العصيان، واعدين بالنظر في مطالب العرب))[٤].

---

(١) انظر أعلام الجهاد في فلسطين: ٢، الشيخ عز الدين القسّام، قائد حركة وشهيد قضية: ٨٣-١٢٦.

(٢) البعد الإسلامي للحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة البراق حتى الانتفاضة: ٥١.

(٣) انظر خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية: ٢٦٨- ٢٦٩.

(٤) انظر خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية: ٢٧٠.

وبالفعل فقد أصدر الملوك والحكام العرب نداءً دعوا فيه إلى الهدوء، ووضع حد للاضطرابات؛ معتمدين على حسن نوايا الحكومة البريطانية[١] فتوقف الإضراب وهدأت الثورة لفترة. ثم امتدت تلك الثورة طوال سنوات (٣٧، ٣٨، ١٩٣٩م)، إلى أن أعلنت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م).

وفي هذا الوقت بلغ التحرك اليهودي أوجه، إذ إن سيل اليهود -الذين تطوعوا في الجيش البريطاني إبّان الحرب- بدأ يتدفق باستمرار إلى فلسطين، بصفتهم جنوداً بريطانيين؛ فقام الجيش البريطاني بجمع الأسلحة من العرب في فلسطين؛ متذرعاً بالأحداث المفتعلة التي قام بها اليهود بعد الحرب، مثل: مهاجمة المنشآت العسكرية البريطانية، واختطاف بعض الضباط، وكان هذا ثمناً باهظاً دفعه العرب، إثر استكانتهم إلى الوعود البريطانية الماكرة[٢].

وبعد أن تمّ تجريد العرب مما كانوا يملكونه من مقومات الدفاع، وتأكّد اليهود من العون الأمريكي غير المحدود، وتمّ حشد العناصر اليهودية المقاتلة؛ قامت بريطانيا -وفق اتفاق سابق- بإعلان تخليها عن الانتداب في فلسطين؛ بزعم عدم قدرتها على السيطرة على اليهود، وأعقبت ذلك بنقل القضية إلى هيئة الأمم المتحدة؛ التي أصدرت قرار التقسيم في (٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧م) الذي ينص على تأسيس دولة عربية ودولة يهودية، واعتبار منطقة القدس وبيت لحم منطقة دولية[٣].

---

(١) انظر نص النداء في المرجع السابق الصفحة نفسها، وانظر جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن: ٢٨٠.

(٢) انظر زحف الطاعون المزمن. التحركات اليهودية عبر التاريخ: ٤٠١-٤٠٥.

(٣) انظر شهداء فلسطين: ١٨٣-١٨٤، وانظر: القضية الفلسطينية من منظور إسلامي: ١٢٢.

((وأمام تآمر هيئة الأمم مع بريطانيا واليهود وسائر الدول الصليبية هبّت الشعوب العربية المسلمة تستنكر قرار التقسيم، وتشجب غدر بريطانيا وتنادي بحمل السلاح، ودخول المتطوعين المجاهدين إلى أرض فلسطين؛ لإنقاذها من المؤامرة الدولية والغدر البريطاني والجشع اليهودي))(١).

وتألّف جيش الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني، الذي كان علماً من أعلام الجهاد الفلسطيني ورمزاً له، بالنظر إلى الأعمال البطولية التي هزّت كيان اليهود؛ فنسف الوكالة اليهودية (١٩٤٨م)، وهاجم المستعمرات. فكانت مقاومة فعالة مؤثّرة؛ جعلت اليهود يهرعون إلى مجلسن الأمن؛ بعد أن عجزوا عن مواجهة جيش الجهاد المقدس، واقترفوا جرائم بشعة بتشجيع من القوات البريطانية. وكان من أبشعها مذبحة دير ياسين، وهي قرية صغيرة في غربي فلسطين هاجمها اليهود بغتةً وفتكوا بأهلها وجمعوا جثث القتلى وشوّهوها، ثم ألقوا بها إلى بئر القرية. وذلك في (٩ نيسان ١٩٤٨م). كما أعملت العصابات اليهودية القتل والخراب في المدن والقرى القريبة، مثل: عكا وحيفا ويافا وصفد وطبريا وسمخ(٢).

((وفي خضم هذا الموقف العالمي المعادي للعرب؛ لم يعد بد من تدخّل العرب العسكري في فلسطين؛ أملاً بإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها ومن سكانها العرب.

وهكذا دخلت الجيوش العربية -التي كانت في مستهلّ تكوينها مفتقرة

---

(١) شهداء فلسطين: ١٨٦.

(٢) انظر: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية: ٣٠١-٣٠٢، وانظر: على أبواب القدس: ١٥٣.

الافتقار كلّه للسلاح والعتاد- في (١٥ أيار ١٩٤٨م) أرض فلسطين؛ فوقعت الواقعة، واشتبكت وحداتها الشبه عزلاء[١] مع العصابات الصهيونية المدججة بمختلف أنواع الأسلحة الحديثة، فكان من الطبيعي أن لا يكون النصر العربي حاسماً؛ مع البون الشاسع الذي كان بين القوتين المتصارعتين. أضف إلى ذلك تدخل الأمم المتحدة الدائم لصالح الصهيونية، كلما أحرج موقفها العسكري إبان تلك العمليات...))[٢] ومع ذلك رجحت الكفة العربية في المرحلة الأولى، لولا تدخل الأمم المتحدة وفرض الهدنة على الدول العربية. وبذلك أفسح المجال أمام اليهود لإعادة التسليح وجلب المتطوعين من أوروبا، وعندما توقف القتال -بعد عدد من الاتفاقيات (١٩٤٩م)- كانت إسرائيل قد حصلت على جميع الأراضي التي تضمنها قرار التقسيم، إضافة إلى نصف الأراضي التي خُصّصت للفلسطينيين؛ وأعلنت قيام الدولة الباغية[٣].

وتتابعت الحلقات في سلسلة مآسي الشعب الفلسطيني، من إبعاد وترحيل وإرغام على الهجرة، باستخدام جميع الوسائل لإخراجهم من أرضهم؛ وإحلال اليهود محلهم.

بعد أن أشرفت بريطانيا على غرس الدولة اليهودية ((نصلاً حاداً مغمداً بين ظهراني العرب، لا يفتأ يحتزّهم ويستترف قواهم؛ حتى تتداعى، فيخلدوا للخنوع والاستسلام، ولا تقوم لهم قائمة))[٤]، بعد أن قامت بكل ذلك سلّمت علم

(١) هكذا في أصل النص، وهو خطأ، والصواب: شبه العزلاء.

(٢) زحف الطاعون المزمن، التحركات اليهودية عبر التاريخ: ٤١١.

(٣) انظر جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن: ٤٠٥-٤١٤.

(٤) الصهيونية بين الدين والسياسة: ٢٠.

الصهيونية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التي عدَّت نفسها -منذ ذلك الحين- مسؤولة عن أمن إسرائيل، وتوفير أسباب البقاء والاستمرار لها. فقدمت إليها الهبات والمنح المالية والعينية والقروض، وفتحت لها أبواب خزائنها ومخازن أسلحتها، متعهدةً بالقيام بعملية توازن القوى في الشرق الأوسط بين الدولة اليهودية ومجموع الدول المحيطة بها(١).

وهكذا تبدّت الأحقاد الصليبية والصهيونية مجتمعة ضد المسلمين، ولا عجب في ذلك؛ فقد جمعتهم وحدة الهدف، ووحدة المصالح. فالصهيونية ليست مقصورة على اليهود، بل هناك نصارى يعتنقون الصهيونية، ويفتخرون بأنهم صهاينة، وهم يزعمون أن الإنجيل امتداد للتوراة، وأن إعادة الهيكل سيُعَجّل بمجيء المسيح(٢).

وبعد أن منيت الجيوش العربية بتلك الهزيمة أمام القوات اليهودية في نكبة ١٩٤٨م، بدأت مشاعر السخط عند الشعوب العربية في كثير من الأقطار، ضد صُنّاع هذه الهزيمة. كما تفاقمت النقمة ضد الغرب وأتباعه؛ ممن كانوا وراء إسرائيل، حتى أصبحت دولة ذات كيان مستقل قوي؛ بما تتلقاه من دعم الغرب والشرق لها مادياً ومعنوياً فكانت موضع الحدب والرعاية منهم؛ بما يجعل قوتها العسكرية -وحدها- مضارعةً لمجموع قوى الدول العربية؛ فلا تستطيع أن تصمد أمامها نداً لند(٣).

وما انفكت إسرائيل تغتنم كل فرصة لتنفيذ أهدافها الإقليمية الصهيونية؛

---

(١) انظر قبل أن يهدم الأقصى: ١١٨.

(٢) انظر قبل أن يهدم الأقصى: ١٦-١٩. وانظر أمريكا وإسرائيل: ١٦-١٧.

(٣) انظر معركة الإسلام، وقائعنا بين الأمس واليوم: ١٧٩.

فقامت بتشريد أهل فلسطين، وفتحت أبواب الهجرة إليها على مصراعيها أمام كل متشرّد من يهود العالم؛ وذلك لسد النقص في العنصر البشري والقوة العسكرية. فتمكّن وكلاء الصهيونية من تهجير عدد كبير من اليهود من شتى بقاع العالم؛ بالقيام بحملة مركزة في الدعاية، غايتها زعزعة وجود الطوائف اليهودية، عن طريق غرس الخوف من الاضطهاد الوشيك، وإيجاد ضغوط سياسية واقتصادية لحملهم على الهجرة إلى فلسطين(١).

ولم تتخلَّ الدول الاستعمارية عن إسرائيل، بل عملت دائماً على دعم نفوذ هذه الدولة وتثبيت أقدامها؛ فأصدرت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ما يعرف باسم ((التصريح الثلاثي)) عام ١٩٥٠م، وجاء في هذا التصريح:

- أن الحكومات الثلاث تقرر بأن الدول العربية ودولة إسرائيل في حاجةٍ إلى الاحتفاظ بمستوى معين من القوات المسلحة؛ لتضمن أمنها، وتتمكّن من الاضطلاع بالدور المنوط بها.

- أن الحكومات الثلاث تلقت من جميع الدول التي تعتمد عليها في التسلّح، ضماناً بأن هذه الدول لا تعتزم القيام بأي عمل عدواني إزاء أي دولة أخرى.

- أن هذه الحكومات تنتهز هذه الفرصة لتعلن اهتمامها بتوطيد أركان السلم في منطقة الشرق الأوسط(٢).

ومما لا ريب فيه أن الهدف الحقيقي من هذا التصريح هو تقديم ضمانات جديدة للكيان الإسرائيلي في فلسطين، وتهديد العرب، حتى لا يفكروا في استعادة

---

(١) انظر أطلس الصراع العربي الصهيوني: ٤٣-٤٥.

(٢) انظر زحف الطاعون المزمن، التحركات اليهودية عبر التاريخ: ١١٧.

أراضيهم بالقوة. وأوضحت الدول الثلاث -فيما بعد عملياً- أنها لم تكن تعني بتصريحها هذا، إلا حماية إسرائيل من اعتداء العرب. أما اعتداء إسرائيل على العرب، فإن هذه الدول تغمض أعينها عنه. فقد كانت الغارات الإسرائيلية العديدة على العرب عمليات عسكرية منظمة، ولم يحدث أن انتهكت أي من الدول العربية اتفاقات الهدنة بأي هجوم على إسرائيل[١].

وبدأت إسرائيل تمارس سياسة الإدارة القائمة على مبدأ الأمر الواقع في القسم الذي احتلته من القدس عام (١٩٤٨م)[٢] فمارست الإجراءات التي من شأنها تهويد هذا القسم من بيت المقدس، باعتبار ذلك مرحلة أولى من مراحل أطماعها النهمة في القدس جميعها. متجاهلة القوانين والمواثيق الدولية كلها، وبالرغم من القرارات كلها الصادرة عن هيئة الأمم، التي تدين مثل هذه الأعمال. وشجعت الاستيطان اليهودي في القدس: مما أدى إلى تفوق سكاني يهودي في المدينة المقدسة[٣].

هذا وأيّاً ما كانت الظروف الصعبة التي كان الشعب الفلسطيني يمرّ بها، فإنه تابع تأدية واجبه الجهادي، فقام بأعمال بطولية ذات طابع عسكري، بمبادرات فردية أو جماعية. مما كبّد العدو خسائر عظيمة؛ فكان رد فعله على تلك

---

(١) انظر شهداء فلسطين: ٣٦٧.

(٢) في حرب (٤٨) تجزأت القدس إلى قسمين: أولهما- القدس القديمة (الشرقية): وهي التي يحيط بها سور القدس العتيق، وبها كل المقدسات، وظل هذا الجزء بيد العرب بعد الحرب المذكورة، وثانيهما- القدس الجديدة (الغربية): وتقع خارج السور القديم، وتتميز بعمرانها الحديث، وقد احتلتها إسرائيل عام (١٩٤٨م).

(٣) انظر: بيت المقدس في ضوء الحق والتاريخ: ٥٤-٥٥.

العمليات شن العدوان على القطاع في تشرين الثاني عام ١٩٥٥م[١]. فلم تكتف إسرائيل بما استولت عليه في حرب ١٩٤٨م، من الأراضي الفلسطينية، بل تابعت أطماعها التوسعية للاستيلاء على المزيد من الأراضي العربية.

وعندما أعلنت مصر تأميم قناة السويس، اشتعلت نار الغضب لدى بريطانيا؛ فكان أن تحالفت مع فرنسا[٢] وإسرائيل وكانت الأخيرة ترى أن الفرصة قد سنحت لاحتلال باقي أرض فلسطين، وشبه جزيرة سيناء، فتكون لها السيادة على مشارف قناة السويس[٣].

وقد بدأت إسرائيل هجومها في تشرين الأول عام ١٩٥٦م، وسرعان ما تدخلت فرنسا وبريطانيا؛ بدعوى وقف الحرب بين مصر وإسرائيل. وذلك تنفيذاً للمؤامرة السرّية مع إسرائيل، وضماناً لمصالحها للتقدم نحو القناة[٤].

وقد واجه أهالي القطاع حكماً إرهابياً خلال الاحتلال الصهيوني، بعد الهجوم الثلاثي؛ حيث اتّبعت القوات الإسرائيلية سياسة الإرهاب العام، والإبادة الجماعية[٥] والتعذيب النفسي والجسدي.

---

(١) انظر: البعد الإسلامي للحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة البراق حتى الانتفاضة: ٩٨.

(٢) كانت فرنسا في ذلك الوقت تحتل الجزائر؛ فرأت أن قهر القيادة العربية في القاهرة، يؤدي إلى سهولة تحطيم الثورة الجزائرية التي كانت مصر تساندها.

(٣) انظر: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن: ٤٤٩، وانظر تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٧٠-٧١.

(٤) انظر: أطلس الصراع العربي الصهيوني: ٥٦.

(٥) كما حدث في بلدة خان يونس (٣ تشرين ثاني ١٩٥٦م) حيث مارست إسرائيل عمليات الفتك والقتل. انظر: البعد الإسلامي للحركة الوطنية الفلسطينية: ١٠١.

وما انفكت إسرائيل تغتنم كل فرصة لتنفيذ أهدافها التوسعية الصـــهيونية. فكانت ((تعزّز قواها العسكرية، وتستعدّ لمعركة قادمة مع العرب؛ للاستيلاء على مزيد من الأرض، ولفرض الصلح، بحيث تستطيع أن تخفف من الأعباء المالية التي يفرضها سباق التسلح، وسياسة الحرب الدائمة، وبحيث تفتح أمامها أسواق العا لم العربي. فقد كان وضع إسرائيل الاقتصادي يسوء بسبب المقاطعة العربية، وغيرها من العقبات الاقتصادية))(١).

وكان من العوامل التي دفعت إسرائيل إلى عدوان عام (١٩٦٧م)، تعـــاظم قدرتها العسكرية، وتزايد نشاط الفدائيين، ومحاولة تقليص النفوذ الســـوفييتي في بعض الدول العربية، والأزمة الحادة في الاقتصاد الإسرائيلي. فمن شأن الحرب أن توفر دعماً مالياً قوياً عن طريق التبرعات، وكذلك قيام مصر بإغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية. فكانت تلك أبرز الأسباب التي مهّدت للحرب(٢).

وفي الخامس من حزيران ١٩٦٧م، بادرت إسرائيل بشنّ هجـــوم غـــادر بطائراتها على المطارات المصرية، ثم استولت على قطاع غزة، وشبه جزيرة سيناء، إلى أن بلغت قناة السويس. كما احتلت الضفة الغربية للأردن والقدس الشـــرقية ومرتفعات الجولان السورية. وسقط عدد كبير من القتلى، وتوقـــف العمـــل في القناة، وأعلنت إسرائيل القدس عاصمة لدولة الكيان الصهيوني، بعد اســـتيلائها على القدس القديمة (الشرقية)، والتي كانت تحـــت حكـــم الأردن. وزاد عـــدد

---

(١) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٧٢.

(٢) انظر دراسات في تاريخ العرب الحديث: ٤٨٠، وانظر تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٧٣.

اللاجئين عن ربع مليون فلسطيني من الضفة الغربية وقطاع غزة. ودخل عرب القطاع والضفة تحت حكم إسرائيل[١].

وبعد هذه الهزيمة الساحقة، بادر مجلس الأمن إلى التدخل لوقف إطلاق النار، ثم أصدر قراراً بسحب القوات الإسرائيلية من المناطق العربية. ولكن إسرائيل رفضت الانسحاب من الأراضي التي احتلتها، وأصرّت على ضم القدس عاصمة لها[٢].

((وبعد ذلك باشرت إسرائيل تنفيذ مراحل التهويد النهائية (في القدس) ضمن عدد من الإجراءات والقرارات والأوامر العسكرية والإدارية والتشريعية والإرهابية))[٣].

ب. أحداث ما بعد عام (١٩٦٧م) وأبرزها الانتفاضة:

في (٢١ آب ١٩٦٩م)، تعرض المسجد الأقصى لحادث حريق مفتعل من صنع أحد الإسرائيليين. وقد احترق في هذا الحادث منبر صلاح الدين، وأثاث المسجد وجدرانه. وبعد محاكمة صوريّة للفاعل، ادّعت السلطات الصهيونية عدم تحمله للمسؤولية الجنائية؛ لأنه مختل عقلياً[٤].

---

(١) انظر أطلس الصراع العربي الصهيوني: ٦٢-٦٧، وانظر تاريخ العرب الحديث والمعاصر: ٧٣.

(٢) انظر دراسات في تاريخ العرب الحديث: ٤٨٢.

(٣) بيت المقدس في ضوء الحق والتاريخ: ٥٠.

(٤) انظر أيام دامية في المسجد الأقصى المبارك: ١١، وانظر القدس الشريف خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي ٤٠-٤٢، ٨٢-٨٤.

ووسّعت إسرائيل عملية مصادرة الأراضي العربية، مع تقديم الدعم الكبير لحركة العمران الاستيطاني اليهودي في القدس. وبدأت عملية هدم الأملاك العربية حول الحرم الشريف ومصادرتها. كما أعملت الحفريات بالقرب من الحرم الشريف، وتحت أساساته بهدف تقويضه وهدمه؛ وذلك تحت ستار القيام بأعمال الحفريات الأثرية، للتنقيب عن آثار هيكل سليمان المزعوم(١).

هذا، وقد استتبع نكبة حزيران أن تنبه العرب من غفلتهم؛ واستشعروا الخطر الداهم الذي يتهددهم؛ مما أدى إلى تحرك الدول العربية في إطار المساعي السياسية والدبلوماسية؛ لإنهاء النزاعات العربية، وإقامة علاقات جديدة، لدعم التقارب في الجبهة العربية. ((وقد كان للملك فيصل -رحمه الله- النصيب الأوفى في تحقيق تضامن العرب وحشد طاقاتهم، وتسخيرها لخدمة القضية العربية، بفضل حنكته السياسية، وغيرته على العروبة والإسلام))(٢).

وباشرت الحكومات العربية العمل الدؤوب في سبيل إعادة بناء قواتها المسلحة، وتقوية قدراتها القتالية؛ لتهيئتها لعملية الثأر. فمع ذلك الانتصار العسكري الكبير لإسرائيل، إلا أنه لم تتمكن من حمل العرب على الاعتراف بها، أو التفاوض معها. وأدركت الحكومات العربية أن ما انتزع بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. ومن هنا بدأ الاستعداد العربي لاسترجاع الأراضي المحتلة، واستعادة

---

(١) انظر حركة المقاومة الإسلامية، نظرات في الفكر والممارسة: ١٢-١٥، وانظر القدس الشريف خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي: ٤٠-٤٧، ٨٢-٨٤.

(٢) من سيناء إلى كامب ديفيد: ٧٥.

الحقوق المشروعة لشعب فلسطين. فتمّ توقيع اتفاقية عسكرية بين مصر وسورية، تحدّدت فيها أهداف الصراع القادم وطرق قيادته[١].

وتمّ الإعداد العسكري للحرب، وبنت القيادة المصرية خطتها على عدّة مبادىء رئيسة من أهمها: إقامة نظام دفاعي جوّي متفوق؛ لحرمان العدو من هذه الميزات، والتخطيط الدقيق لاقتحام قناة السويس وتدمير خط بارليف[٢].

وبدأت الحرب في ٦ تشرين الأول ١٩٧٣م -في شهر رمضان- حين اجتازت القوات المصرية قناة السويس، وتم تدمير خط بارليف (خط الدفاع الإسرائيلي) على الضفة الشرقية من القناة[٣].

واستطاعت إسرائيل -بعد ذلك- اختراق القناة، واحتلال بعض أجزاء الضفة الغربية لقناة السويس، واختراق خطوط القتال السورية.

وانتهت هذه الحرب بإصدار مجلس الأمن قراراً دعا إلى وقف إطلاق النار. وذلك بعد أن اتفقت الولايات المتحدة وروسيا على وقف القتال بين العرب وإسرائيل، لمحاولة الوصول إلى تسوية للنزاع. ((فكانت اتفاقية فكّ الارتباط بين القوات المصرية والإسرائيلية في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٤م، وبقيت القوات

(١) انظر تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٧٥.

(٢) خط بارليف: خط دفاعي أنشأه اليهود بمحاذاة قناة السويس من جهة سيناء؛ ليحول دون أي هجوم من جهة مصر على إسرائيل، وصاروا يتفاخرون به، وأنه سيكون مقبرة لكل من يحلم بعبوره، انظر: من سيناء إلى كامب ديفيد (٦٧-٧٩): ٧٦-٧٧.

(٣) انظر المرجع السابق: ٨٨-٨٩، وانظر: تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٧٦-٧٧.

المصرية في الضفة الشرقية))[١] وأعيد فتح قناة السويس للملاحة الدولية (١٩٧٥م)، بعد إغلاقها ثمانية أعوام، منذ حرب حزيران ١٩٦٧م[٢].

وجدير بالذكر أنه تمّ استخدام البترول سلاحاً سياسياً في هذه الحرب. فكانت المبادرة السعودية هي أول مبادرة قوية في هذا الصدد[٣]. إذ أرسل الملك فيصل رسالة إلى الولايات المتحدة، جاء فيها: ((إن العربية السعودية لن تزيد إنتاجها الحالي من النفط إذا لم تغيّر الولايات المتحدة موقفها المنحاز إلى إسرائيل))[٤]. وقرر الوزراء العرب -في اجتماع للدول العربية المنتجة للبترول عقد في الكويت- خفض الإنتاج بنسبة ٢٥% ثم يزداد التخفيض بمعدل ٥% حتى يتمّ جلاء القوات الإسرائيلية؛ ويستعيد الشعب الفلسطيني حقوقه المشروعة. وأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار النفط، وبالتالي إلى أزمة اقتصادية تهدّد الأمن الداخلي والاستقرار السياسي للدول الأوروبية[٥].

هذا، وقد ((تصاعدت الأعمال الفدائية... وتميزت بقدرة الفدائيين على اختراق حدود فلسطين المحتلة، والتوغّل بالعمق، وضرب أهداف كان يعدها العدو آمنة وخارج نطاق العمليات الفدائية))[٦].

(١) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٧٨.

(٢) انظر المرجع السابق: الصفحة نفسها.

(٣) حاول العرب استخدام البترول في المعركة مع إسرائيل مرتين، ولكن المحاولة أخفقت لعدة أسباب، انظر: من سيناء إلى كامب ديفيد: ١٤٧.

(٤) المرجع السابق: الصفحة نفسها.

(٥) انظر أطلس الصراع العربي الصهيوني: ٨٤.

(٦) المرجع السابق: ٩٦.

وإزاء ذلك، شرعت إسرائيل تحوك المـؤامرات للقضـاء علـى المقاومـة الفلسطينية، فتذرعت بالعمليات الفدائية -التي كانت تنظمها المقاومة الفلسطينية في لبنان- مقدمة لاجتياح لبنان. ففي عام ١٩٧٢م أغارت القوات الإسـرائيلية على جنوب لبنان، وقصفت مخيمات الفلسطينيين، تحت ستار ضـرب قواعـد الفدائيين. ولكنها كانت في الواقع نوعاً من حـرب الإبـادة ضـد الشـعب الفلسطيني[(١)].

واستمرت الحرب في لبنان، وتمكن العدو في حزيران ١٩٨٢م من اجتيـاح لبنان، والوصول إلى العاصمة بيروت. وجرت معارك عنيفة بين الطرفين، انتهت بخروج منظمة التحرير بكامل أسلحتها عن طريق البحر؛ بعد أن توسطت بعض الدول العربية لإنهاء القتال[(٢)].

واستمرت خيوط المؤامرة حول الوجود الفلسطيني في لبنان. وكان من أبرز الأحداث، العدوان الوحشي على مخيمي صبرا وشاتيلا في جنوب لبنان، في ١٦ أيلول ١٩٨٢م. حيث اجتاح الجيش الإسرائيلي وعملاؤه هذين المخيمين، وقام بمجزرة رهيبة؛ ذهب ضحيتها حوالي سبعة آلاف فلسطيني. وقد هـزّت هـذه المجزرة الرأي العام العالمي، وقوبلت بالسخط والتنديد، وأظهرت الحقد الصهيوني السافر ضد الفلسطينيين[(٣)].

---

(١) انظر أسباب وأسرار الحرب اللبنانية (٧٥-٧٦): ٢٠٩-٢١٠، وانظر أطلس الصراع العربي الصهيوني: ٧٩.

(٢) انظر تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٨١.

(٣) انظر المرجع السابق: ٨٩.

وفي غمرة تلك الأحداث ((سارت العلاقات العربية في اتجاه مختلف؛ أدى إلى التفكك والتمزق...، وأدى أيضاً إلى خروج مصر من ساحة الصراع؛ بتوقيع اتفاق صلح مع إسرائيل))[1] وقد قوبلت هذه الاتفاقية (كامب ديفيد) بموجات عارمة من الشجب، من قبل الدول العربية.

واستعاد السوريون القنيطرة من إسرائيل، بعد أن دمّرها تدميراً كاملاً، وتراجعت القوات الإسرائيلية في سيناء، وجلت عن مجموعة من البقاع التي أعيدت إلى مصر، والتي احتوت على حقول البترول[2].

هذا، وقد تُوّج تاريخ جهاد الشعب الفلسطيني، بانتفاضة عام ١٩٨٧م؛ فكانت هذه الانتفاضة حلقة جديدة في سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد الفلسطيني، منذ بداية العدوان الصهيوني على فلسطين.

وثمة أمر لا بد من تجليته بادئ ذي بدء -عند الحديث عن الانتفاضة- وهو أن هذه الانتفاضة تتميز بالتنظيم الدقيق، والتنسيق التام. في حين كانت الثورات السابقة تحدث بصورة عفوية غالباً وتكون ردة فعل لبعض الاستفزازات الصهيونية، أو للتعبير عن المشاعر الوطنية في بعض المناسبات.

وقد كان لهذه الانتفاضة وتطورها أسباب ودوافع، من أهمها: الإرهاب الصهيوني؛ إذ ((شملت قوانين الاحتلال الاستيطانية التوسعية جميع مجالات الحياة في فلسطين، و لم تترك للشعب متنفساً للحياة الكريمة المستقرة))[3] فاستولت

(١) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٧٩.

(٢) انظر ملف الانتفاضة: ٧٣، وانظر الانتفاضة المباركة، وقائع وأبعاد: ١٦-٢٢.

(٣) الانتفاضة المباركة، وقائع وأبعاد: ١٦-٢٢.

السلطات الصهيونية على الأراضي والأوقاف الإسلامية؛ وشيّدت عليها المستوطنات بعد إبعاد أصحابها وتهجيرهم منها. كما لجأت إلى التنكيل بالشعب، واعتقال أبنائه، ضاربة عرض الحائط بالقوانين الدولية التي تحدّ من صلاحيات الدولة المحتلة، فيما يتعلق بالمواطنين تحت الاحتلال. وقامت تلك السلطات بنسف المنازل بدعوى مقاومة أصحابها الاحتلال. كما قامت بإبعاد الفلسطينيين من أراضيهم وترحيلهم، وفرضت الضرائب الباهظة، لتدعم بذلك اقتصادها؛ وتجعل أوضاع المواطنين في تردٍ دائم. وتدخل الاحتلال في مناهج الدراسة، فغيّرها، وقيد مجالات الدراسات الأكاديمية وأنواعها، هذا فضلاً عن أنواع أخرى من القهر الصهيوني، لسحق الشعب الفلسطيني المسلم(١).

وكان تنامي الصحوة الإسلامية التي عمّت البلاد منذ منتصف السبعينيات، من أهم الدوافع التي أبرزت الانتفاضة، وحدّدت منطلقاتها، في مواجهة العدو اليهودي بفاعلية وعنف.

وفي ((٨ كانون الأول ١٩٨٧م، وأثناء عودة عمال قطاع غزة خرجت مقطورة من مستوطنة (إيريز) وانحرفت إلى الشارع الموازي لتحطيم سيارتين مما أدى إلى مقتل عدد من الفلسطينيين من مخيم جباليا، وجرح آخرين))(٢).

وبعد هذه الحادثة دعا الشباب المسلم كافة سكان المخيم للمشاركة في جنازة الشهداء. وتحولت إلى مظاهرة قادها شباب حركة المقاومة الإسلامية، وقاموا بهجوم على مركز الجيش الإسرائيلي في المخيم. ودارت معركة ضارية بين

---

(١) انظر ملف الانتفاضة: ٧٣، وانظر الانتفاضة المباركة، وقائع وأبعاد: ١٦-٢٢.

(٢) القضية الفلسطينية من منظور إسلامي: ١٧٣.

الجانبين[1]. فكانت هذه الحادثة هي ((الشرارة التي أشعلت الفتيل، بقرار حركة المقاومة الإسلامية، بتصعيد الانتفاضة المباركة))[2].

واستمرت التظاهرات قوية صامدة، مع اشتداد الممارسات القمعية من قبل الجيش الإسرائيلي. وامتدت إلى جميع مناطق غزة، ووصلت إلى مدن الضفة الغربية ومخيماتها[3].

كما استمرت سياسة القمع الصهيونية؛ لمواجهة هذه الانتفاضة الشعبية العارمة. فكثّف العدو عمليات القتل والاعتقالات والتعذيب والإبعاد وإخلاء الأرض من السكان وجباية الضرائب من المواطنين[4].

وقد كان للانتفاضة تأثيرها الفعال على العدو الإسرائيلي. حتى إن وزارة دفاعه تركت مهماتها الأساسية لمواجهة هذه الثورة، التي استخدمت الحجارة، والزجاجات الحارقة، وإشعال الحرائق؛ ونشرت الرعب بين المستوطنين اليهود[5].

وتظل الانتفاضة الجهادية تعبيراً عن رفض الوجود الصهيوني في إسرائيل، فتقدم مئات الشهداء والجرحى والمعتقلين، مع استمرار وسائل القمع التي يستخدمها العدو. وكان من أهم سمات هذه الانتفاضة المباركة، ظهور دور حركة المقاومة الإسلامية في قيادة الانتفاضة وتوجيهها، في معظم قرى الضفة

---

(١) انظر الانتفاضة المباركة ومستقبلها: ٥٣.

(٢) المرجع السابق: الصفحة نفسها.

(٣) انظر القضية الفلسطينية من منظور إسلامي: ١٧٤.

(٤) انظر ملف الانتفاضة: ٢٣٨، وانظر: الانتفاضة المباركة: ٣٢.

(٥) انظر حركة المقاومة الإسلامية: ٤٣٣، وانظر الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية، دراسة في الإدراك والكرامة: ١١٠-١١٤-١٢٢.

والقطاع ومدنها، وإصرارها على استمرار الثورة الجهادية حتى التحرير وطرد الاحتلال. فمما جاء في ميثاق هذه الحركة: ((تتعارض المبادرات، وما يسمى بالحلول السلمية، والمؤتمرات الدولية؛ لحل القضية الفلسطينية، مع عقيدة حركة المقاومة الإسلامية. فالتفريط في أي جزء من فلسطين، تفريط في جزء من الدين...))[1].

ويستمر صراعنا مع اليهود -الصراع العقائدي في منطلقاته وخططه وأهدافه- صراعاً بين العقيدة الإسلامية، وعقيدة التوراة المحرفة. وهو جهاد يستهدف الوصول إلى نتيجة واحدة محددة، هي تحرير الأرض المقدسة.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١/١٢].

---

(١) القضية الفلسطينية بين ميثاقين: ١٠١.

الفصل الثاني

تفاعل الشعر الإسلامي
مع الواقع الحي للمأساة

- المبحث الأول: نكبة عام (١٩٦٧م): أسبابها وآثارها.
- المبحث الثاني: من معاناة الشعب الفلسطيني ومظاهر الإرهاب.
- المبحث الثالث: مأساة النزوح ومشاعر الحنين والغربة.
- المبحث الرابع: حريق المسجد الأقصى عام (١٩٦٩م) وردود الفعل العربية.
- المبحث الخامس: اجتياح لبنان ومذبحة صبرا وشاتيلا.

مقدمة

الشعراء مرايا الأمة، يعكسون واقعها ويحكون آلامها وآمالها، ويجسدون مسارات فكرها، ويؤرخون لكل أحداثها.

وقد واكب الشعر الإسلامي أحداث القضية الفلسطينية، وصور محنة الشعب الفلسطيني ومعاناته في سبيل تحرير أرضه المقدسة المغتصبة، فانسابت القصائد التي تصور المأساة بلسان يبين عن زفرة الأسى ولظى الحنين وتدفق الألم، مما يعكس استشعار المسلم للمسؤولية المنوطة به، فعبر عن آلام الشعب في محنته القاسية وآماله في غد مشرق وحياة آمنة كريمة، ونبه الضمائر إلى ضرورة الدفاع عن الحق السليب واسترجاع الوطن المحتل.

وقد طرق الشعراء هذا الباب من خلال موضوعات عديدة منها:

المبحث الأول

نكبة عام ١٩٦٧م، أسبابها وآثارها

بعد استقراء جملة صالحة من الشعر الذي عرض لهذه النكبة وما تلاها من مضاعفات وما أعقبها من عواقب، وجدت أن تلك الأشعار تتناول بصورة رئيسة القضيتين التاليتين:

- وصف أحداث النكبة والهزيمة، والتعرض للأسباب التي أدت إلى وقوعها، والأثر النفسي الذي تركه هول هذه النكبة في النفوس الشاعرة.

- سبيل مواجهة النكبات التي منيت بها الأمة -وهذه إحداها- ورسم طريق النجاة الوحيد، مستمداً من عقيدتنا وديننا الذي يوجه سلوك المسلم وينير خطواته.

لذا سأحصر الكلام في هاتين القضيتين، مستشهدة بأشعار سبعة من الشعراء الذين تناولوا هذه النكبة، على أنها نماذج للكثير الذي قيل في ذلك، مما لا سبيل إلى الإحاطة به جميعاً.

في مقدمة الشعراء الذين توقفوا عند هذا الحدث، الشاعر السوري عمر بهاء الدين الأميري[1]، الذي نظم قصيدة طويلة عنوانها: الهزيمة والفجر. وهذا العنوان

---

(١) عمر بهاء الدين الأميري: (١٩١٥-١٩٩١م) ولد في حلب في سورية، عمل في التدريس والمحاماة، ثم عين وزيراً مفوضاً في باكستان وفي السعودية، ثم اختار الإقامة في المغرب إلى أن توفي وله دواوين كثيرة. انظر من شعر الجهاد في العصر الحديث: ٢٨٥.

الذي اختاره لقصيدته ينبيء بنفسية الشاعر وتأرجحها بين مشاعر اليأس والأمل حيث يقول(١):

على بُراقٍ من الإشراق منطَلَقي ... من حَومةِ الهمِّ واللّأواء والقلقِ
في مطمحي أملٌ لم تخبُ جذوتُه ... برحمة الله والأعباءُ في عُنُقي
أرنو إلى الله والضراءُ تُحدِقُ بي ... ونكبةُ المسجدِ الأقصى على حَدَقي

فنكبة الأقصى تملأ قلبه وبصره، والأمل برحمة الله يشده للتطلع إلى المستقبل، ولكنه غير قادر على تصور ما آلت إليه حال المقدسات بعد الاحتلال(٢):

عيناي عيناي ويلُ الهولِ صورتُه ... في أَدمعي حيثُما يَمّمتُ من أفقي
ما لي أرى الصخرةَ الشمّاءَ في كمدٍ ... تذوي وعهدي بها مرفوعةَ العُنُقِ
ومنبرُ المسجدِ الأقصى يئن أسىً ... قد كان يحبو الدُّنا من طُهرِهِ الغَدِقِ

كما كان للشاعر وقفة واعية على أسباب الهزيمة ومقدماتها، فاليهود -مع ذلتهم وتفرقهم وقلة عددهم- أخذوا بأسباب القوة، وتوحدوا في حروبهم، واستخدموا المكر والحيلة التي جُبلوا عليها، فكان لهم النصر(٣):

وقائلين يهودٌ قلت واحَرَبا ... أجل يهودُ يهودُ الذلِّ والفَرَقِ
يا لائمون انظروا فالله من أزلٍ ... أرسى نواميسه في الخَلْق كالفَلَقِ
هم حاربونا برأي واحد، عددٍ ... قِلٌّ ولكنْ مضاءٌ ثابتُ النَّسَقِ
علماً ودأباً وإعداداً وتعبئةً ... وبادروا غزونا في مكرِ مسْتَبِقِ

(١) من وحي فلسطين: ٦٥.

(٢) المرجع السابق: ٦٥-٦٦.

(٣) المرجع السابق: ٦٩.

وهو ينظر بالمقابل إلى حال المسلمين فيجدهم كثرة لا تغني شيئاً، وآراء بدداً، شُتّت شملهم وبُدِّد جمعهم[1]:

كُثْرٌ ولكن عديدٌ لا اعتدادَ به ... جمع ولكن بديدٌ غيرُ متّسقِ
حارتْ عقائدُنا زاغتْ قواعدُنا ... أما الرؤوسُ فرأيٌ غيرُ متفقِ
وأعلنوها وما خاضوا معامعَها ... ولا أعَدّوا لها إعدادَ ذي حَذَقِ
فكان من أمرِنا ما كان من فشلٍ ... هذي جحافلُهم مهزومةُ المِزَقِ
بهم هُزمنا وما زلنا وما اتعظَتْ ... عُمْيُ النفوسِ ألا إن الشّقِيَّ شَقِي!

فالشاعر هنا يؤكد سبب الهزيمة؛ إنه الفرقة والاختلاف وعدم وضع الأمور في نصابها الصحيح؛ فقد كانت البلاد العربية في ذلك الوقت غارقة في خلافاتها، مما شغلها عن تهيئة أسباب القوة والإعداد للحرب، فأعلنوا الحرب و لم يخوضوها، وإنما هزمهم العدو في الساعات الأولى منها مستغلاً عنصر المفاجأة بعد أن استكمل الإعداد لها فكانت النكبة والهزيمة.

وخلاصة ما ذكره الشاعر أن مقدسات فلسطين الإسلامية ملء السمع والبصر، وأن اليهود عَدَوا عليها متسلّحين بتوحيد الصف والكلمة، وآخذين بأسباب النصر، وأن العرب والمسلمين بالمقابل حملوا بذور الفرقة وزيغ العقيدة وافتراق الكلمة فكانت هذه النتيجة الفاجعة.

وفي ذكرى الهزيمة ينظم الشاعر قصيدة بعنوان ((سيطول الطريق والنصر آتٍ)) ويقدم لها بقوله[1]: ((أيام وتطل ذكرى الهول الفاجع، ذكرى الهزيمة

---

(١) من وحي فلسطين: ٧٠-٧٢.

والنكبة، ذكرى الخامس من حزيران، فأين نحن من معركة الثأر، وأين نحن من يوم النصر؟)). وعنوان القصيدة يدل على مغزاها، حيث يعرض الشاعر في مقدمتها أثر هزيمة الخامس من حزيران وما تبعها من أحداث أليمة. ثم طفق يؤنب المسلمين على التراخي عن نصرة إخوانهم في الأرض المباركة. وانشغالهم بالشعارات الخادعة التي أوردهم موارد الذلّ والخضوع، وأعمت أعينهم عن ((دواهي حزيران)) وموهت عليهم ((النكبة الضروس)) يقول[٢]:

تتوالى ذكرى حزيران والأحـــ ـــداثُ تَتْرى والجرحُ يزدادُ عُمقا
وَنُسيغ الحياةَ في رَهَـــج الزيْـــ ـــفِ ونَلْوي عن المخاطرِ عُنْقا!
وكأنّا قد أَزْمَـــنَ البُطـــل فينـــا فغَدَوْنا لا نعـــرفُ الحـــقَّ حقّـــا

((ويميط الستار عن سبب بارز في النكبة: إنه تكبيـــل الطغـــاة للشـــعوب والوصاية عليها والنطق ظلماً باسمها. ولقد هُزم الطغاة بتكبيل الشعوب وإهـــدار طاقاتها وعقيدتها، ومصادرة حرياتها))[٣] يقول[٤]:

الشـــعاراتُ للخـــداعِ هتافـــا تٌ وزورٌ نرقى بها شـــرَّ مَرْقـــى
ويساقُ الشّعبُ المكبّلُ بالأغْـــ ـــلالِ في موكبِ التحررِ سَـــوْقا
موّهوا النكبةَ الضـــروسَ عليـــه خنقوا ثـــورةَ الجمـــاهيرِ خَنْقـــا
أيها الصُّمُّ عن دواهـــي حزيـــرا ن بَكِمْتُم فلا تطيقـــون نطقـــا

---

(١) من وحي فلسطين: ١٦٤.

(٢) المرجع السابق: ١٦٥.

(٣) شعراء وأدباء على منهج الأدب الإسلامي: ٢/١٨.

(٤) من وحي فلسطين: ١٦٦.

والأفكار نفسها التي وردت في قصيدتي الأميري يكررها الشاعر أحمد محمد الصديق(١)، الذي نظم قصيدة في نكبة حزيران مطلعها(٢):

من رعشة الجرح بل من وطأة الألم يجيش بالشعر في ليل الأسى قلمي

ويُلمَح من هذا المطلع مدى المعاناة التي غشت قلب الشاعر باللأواء والأسى جراء النكبة، ثم يقول(٣):

عجبتُ من أمةٍ قد أسلمتْ يدَها للقيدِ مذلولةً منكوسةَ العَلَمِ
ألا بقيةُ إيمانٍ تحركُها ونفحةٌ من إباءِ الروحِ والشّممِ؟
ما جرّعتْ محنةٌ بالخزيِ مثقلةٌ أمرَّ من كاسِنا كاساً لمنهزمِ

وهو في ذلك يتعجب من الحالة التي آلت إليها الأمة؛ إذ أصبحت أعلامها منكسة حين أسلمت يدها للقيد في ذلة واستكانة، ويتساءل: أين روح الإباء والعزة التي يذكيها الإيمان في قلب المسلم؟ ألم يبق منها بقية؟. ثم يقرر أن هذه المحنة المثقلة بالخزي قد جرعت الأمة كأساً مراً لم يتجرعه أحد.

واستمراراً في استثارة المشاعر الإسلامية لدى أبناء الأمة، نظم الشاعر نفسه قصيدة أخرى عقب النكبة أسماها ((يا مسلمون)) غمرها الروح الجهادية وظللتها

(١) أحمد محمد الصديق: شاعر فلسطيني، ولد في (شفا عمرو) بالقرب من حيفا في فلسطين، عام ١٩٤١م، درس الشريعة في السودان، وعمل في التدريس في قطر، وحصل على الماجستير في الشريعة الإسلامية في جامعة الأزهر. انظر الشعر الإسلامي الحديث: ٢٠١.

(٢) نداء الحق: ٢٢٢.

(٣) المرجع والصفحة نفسها.

بظلال الثورة والدعوة إلى الانتقام والأخذ بالثأر. وفيها يوجه الشاعر نـداءه إلى المسلمين فيقول[١]:

يا مسلمون ومن سواكم للحمى ... إنْ كَشّرتْ عن نابها الأخطـارُ؟
يدعوكم الوطنُ الذبيحُ ومسجدٌ ... أُسـري إلى سـاحاته المختـارُ
يجترُّ في القيدِ العـذابَ مـردداً ... شكواه: أين الأمـةُ الأخيـارُ؟
أين الذين همُ الرجالُ إذا دُعـوا ... هَبُّوا، وإن دوّى النفيرُ أغـاروا؟

فالشاعر يهيب بأبناء الأمة إلى الزحف المقدس لنصـرة إخـوانهم في أرض الإسراء، فليس من الإيمان أن يسمع المسلمون نداء ((الوطن الذبيح)) ولا يجيبون وليس من الإسلام أن يروا المسجد الأقصى ((يجتر في القيد العذاب)) ولا يلبـون نداءه.

ويصف الشاعر الهزيمة وأثرها في نفوس المسلمين، وما أحدثت من هزة عنيفة نبهتهم من غفلتهم، وأزالت الغشاوة عن أعينهم فيقول[٢]:

خطـبٌ ألمّ ومحنـةٌ مكتوبـةٌ ... بدمائنا زاغـتْ لهـا الأبصـارُ
ولعلها تجلو القذى عـن أعـين ... فتخط درباً لـيس فيـه عِثـار
فلينقشعْ عنّـا الضـبابُ فإنـه ... دون الحقيقـة حائـلٌ وسـتارُ
ولينكشفْ ليلُ الطواغيـتِ الأُلى ... عاثوا فساداً في البلادِ وجـاروا
الله لـيس بغافـلٍ وقضـاؤه ... عَدْلٌ، تعـالى الواحـدُ القهـارُ

(١) نداء الحق: ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) نداء الحق: ٢٢٩.

ومن الشعراء الذين توقفوا عند هذا الحدث الشاعر أحمد فرح عقيلان[١]: فقد نظم قصيدة بعنوان ((صرخة في مأتم العيد)) في أول عيد بعد نكبة حزيران سنة ١٩٦٧م. والقصيدة حافلة بالنداء الوجداني الذي يهز المشاعر ويوقظ القلوب ويثير العواطف.

يحدثنا الشاعر في مستهل قصيدته عن العيد بعد الهزيمة فيقول[٢]:

يا عيدُ يا مأتماً للأهل والدار ... لا عُدْتَ إن لم يُزَيِّنْكَ الدّمُ الجاري!

حطمتُ قيثارتي قَطّعْتُ أوتاري ... جفّ الغِنَاءُ ودقّت ساعةُ الثارِ

ماذا أغنّي وتاريخُ العروبةِ في ... مستنقعِ الذلِّ والتشريدِ والعارِ؟

والقدسُ والمسجدُ الأقصى وصخرتُه ... عاد الأذانُ بها تهريجَ كفّارِ

ويرتفع صوت الشاعر مخاطباً عيد الهزيمة؛ لأنه لا عيد إلا بعد النصر في معركة الثأر، فهذا هو العيد الحقيقي وهو الفرحة الكبرى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠/٤-٥] ويتساءل الشاعر: هل للفرح مكان في هذا الواقع المؤلم وقد حلّ بالأقصى ما حلّ حيث عاث اليهود به فساداً وإفساداً؟.

وفي جو الهزائم والغمة التي تخيم على الأمة، يتوجه الشاعر إلى أعماق

---

(١) أحمد فرح عقيلان: شاعر فلسطيني، ولد في قرية الفالوجة بفلسطين سنة ١٩٢٤م، نشأ في أسرة متدينة تحب العلم والأدب، عمل مدرساً في فلسطين وفي السعودية، ثم أصبح مستشاراً ثقافياً في الرئاسة العامة لرعاية الشباب، وله مشاركات في الإذاعة والصحافة والتلفاز، انظر مدرسة بدر وشعراؤها: ٤٦.

(٢) جرح الإباء: ٢١.

التاريخ، فيسمع صوت صلاح الدين الأيوبي غاضباً ساخطاً، منكراً على أبناء الأمة الخنوع والاستكانة وهم أهل العقيدة ونسل الصحابة من الصيد والأطهار، ومذكّراً إيّاهم بما حققه من انتصارات على العدو الصليبي بتأييد من الله لإعلاء راية التوحيد، جاعلاً شعاره ((الله أكبر)) ومجاهداً في سبيله تحت هذا الشعار(١):

كأن صوتَ صلاحِ الدين من غضبٍ يكاد يقذفُ وجهَ العُـرْب بالنـارِ
يقول: يا عُربُ يا أهلَ العقيدةِ يـا نسلَ الصحابةِ من صِيدٍ وأطهـارِ
بالأمسِ دوّختُ أوربا بما حشدتْ واليومَ يهـزمكم شـذاذُ أشـرارِ
لمـا حملـتُ لـواءَ اللهِ أيّـدني وعاد (ريكردُ) قلبُ الليثِ كالفارِ
وجلجلتْ رايةُ التوحيـدِ تحرُسُـنا كأنما خفقُهـا أنفـاسُ إعصـارِ
اللهُ أكـبرُ في حطـين صـرختُنا أما الشعارُ فدينُ الخـالقِ البـاري

ويسهب الشاعر في الحديث عن أسباب الهزيمة، فبعد أن عرض تلك الصورة المشرقة للتاريخ المجيد، يأتي بالصورة المقابلة لها في الحاضر الأليم، ليظهر بوضوحٍ سبب الهزيمة بعد النصر، والضعف بعد القوة(٢):

لهفي على العُربِ أعلاماً ممزقـةً وراءهـا كـلُّ طبّـالٍ وزمّـارِ
تقسّـمتْنا شـعاراتٌ يروّجهـا في شعبِنا كلُّ طـاغوتٍ وغـدّارِ
فإن دعا للهدى والحـقِّ داعيـةٌ تناعقوا حوله: رجعـيٌّ أفكـارِ
ساروا إلى الحربِ أشتاتاً بلا هدف مزوّدين بقرعِ الـدّفِ والطـارِ
وقد رأوا صفرةَ الرنّـان بـاهرةً باعوا الكرامةَ قنطـاراً بـدينارِ

---

(١) جرح الإباء: ٢٢-٢٣.

(٢) المرجع والصفحة نفسها.

فالتمزق والفرقة والخلافات في مقدمة أسباب الهزيمة، أما الجهاد فتحول إلى شعارات يروجها الطواغيت تضليلاً للشعوب، فاستشرت الرذائل وركن الناس إلى الدنيا ((فباعوا الكرامة قنطاراً بدينار)).

ومن الشعراء الذين أبرزوا أسباب الهزيمة الشاعر مأمون جرار[١] في قصيدته ((القدس تصرخ)) التي يبدؤها بتساؤل يستصرخ فيه الأمة لإنقاذ الأقصى من براثن الأعداء، حيث يقول[٢]:

مالي أراكم ذاهلين سُكارى ... مالي أراكم تائهين حيارى؟
مالي أراكم قائمين على الخنا ... متقلبين به دجىً ونهارا؟
مالي أراكم تركضون لهوّةٍ ... خلف السرابِ. ألا ترون منارا؟
يا قوم أبكتْني مصائبُ أمةٍ ... لاقت سفينةُ ركبِها إعصارا
يا قومنا قد ذاب قلبي من أسىً ... وتخافتتْ دقاتُه استنكارا

فردة الفعل التي تركتها النكبة لدى الشاعر تتمثل في هذه التساؤلات الحائرة، لَم التيه والذهول والإعراض عن الدين؟ لَم الركض نحو السراب، ولديكم المنار الذي يهديكم في بحر الحياة؟.

---

(١) مأمون فريز جرار: أديب وشاعر إسلامي معاصر ولد في قرية صانور في فلسطين عام ١٩٤٩م، أتم دراسته الجامعية الأولى وكذا دراساته العليا وحصل على دكتوراة في الأدب العربي عام ١٩٨٧م، له عدة دراسات ودواوين شعرية، انظر: مختارات من الشعر الإسلامي الحديث: ٣٤٧.

(٢) شعراء الدعوة الإسلامية: ٣/٧٧-٧٨.

ثم يلتفت الشاعر إلى وصف الأثر النفسي لهذه المأساة. فالبكاء ديدنه على أمة تاهت سفينتها حين واجهت الإعصار، وقلبه يذوب أسىً جراء الفاجعة، حين تحول أصحاب الأرض إلى أسرى في أرضهم.

ويفصّل الشاعر في البيتين التاليين في نتائج الهزيمة، فيستنطق القدس بصرخة استنجاد توجهها إلى أسماع أبناء الأمة، لأن اليهود يخططون لهدم الأقصى، مسرى النبي. وقد استباحوا حرمة المقدسات، وعاثوا فيها الفساد، فيقول[1]:

والقدسُ تصرخُ أنقذوني فالعِدا رامـوا بإسراءِ النبيّ دمارا
ها هم بنو صهيون داسو حُرمتي جعلوا الغوايةَ والفسادَ شعارا

ويحصر الشاعر أسباب النكبة في أمرين: الأول: أننا لم نوعظ بالنكبات السابقة، التي كانت نكبة (١٩٦٧م) مترتبة عليها. والثاني: أننا أحسنّا الظن في أعدائنا مع وضوح أهدافهم العدائية يقول[2]:

يا قومُ كم من نكبةٍ مـرّتْ ولم نوعَظ بها إذ تحمل الإنذارا
لم نلقِ بالاً للنذير وإنما سِرنا نطاوع مجرماً جبارا

وفي قصيدة أخرى[3] يسهب الشاعر في بيان أسباب الهزيمة. ثم يأسف لحال الأمة الذي أدى بها إلى هذه النكبة. ويعلن أن السبب الرئيسي هو التمزق والفرقة وتعدد الأحزاب والشعارات. كما يعلن الشاعر أن الذي زرع بذور الصراع والفرقة هو المستفيد الوحيد من ذلك كله، إنه العدو المتمثل في (الثالوث المشترك)

(١) شعراء الدعوة الإسلامية: ٣/٧٨.
(٢) المرجع والجزء والصفحة نفسها.
(٣) المرجع نفسه: ٣/٨٠-٨١.

دول الغرب والشرق والصهيونية. التي اتخذت شعار (فرّق تسُد) لتفتيت وحدة المسلمين، وتمزيق جهودهم حتى لا يتوحدوا ضدها. وكل ذلك قد تمّ والأمة لا تزال سادرة في غيّها غير مدركة لما يُحاك ضدها.

وللشاعر حسان حتحوت[(١)] قصيدة يقدم لها بقوله[(٢)]:

((بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧م، قصدت العمرة والزيارة، وفي مجلس بالروضة الشريفة كانت دموع وشجون، ونجوى ودعاء)). ونجد الشاعر في هذه القصيدة يشارك الشعراء السابقين في نظرهم الواعية إلى الأحداث، فلا يتوقف عند عامل التمزق والفرقة وحسب، وإنما يتعداه إلى أسباب أخرى. فبعد أن يبدأ قصيدته بمناجاة إلهية وتضرع إلى الله يقول[(٣)]:

ولقد برى عودي وأرّق مقلتي ... أني رأيتُ الداءَ لا يتوارى
ورأيت أمةَ أحمدٍ قد أصبحتْ ... في بُعدها عن أحمدٍ تتبارى
من بعد عصمتِكم بحبلِ الله أصْـ ... ـبحتُم شراذمَ في الخِضَمّ صغارا
كنتم أسوداً في حِمى إيمانِكم ... فخلعتُم الأنيابَ والأظفارا
ولقد شهِدتُ الخطب قبل وقوعِه ... لم يألُ تحذيراً ولا إنذاراً
من يزرعُ التفريطَ في إيمانِه ... يجنِ الهزيمةَ والهوانَ ثمارا

---

(١) ولد الدكتور حسان حتحوت بمصر في كانون الأول ١٩٢٤م، ودرس الطب في جامعة القاهرة، ثم حصل على دكتوراة الفلسفة من جامعة أدنبرة عام ١٩٦٤م وحصل على زمالة كلية الجراحين الملكية بأدنبرة وكلية الجراحين الأمريكية، وعمل أستاذاً بكلية الطب بجامعة الكويت وما زال، وله كتابات علمية وإسلامية، انظر شعراء الدعوة الإسلامية: ٩/١-١٠.

(٢) جراح وأفراح: ٨٥.

(٣) المرجع نفسه: ٨٧-٨٨.

يا مسلمون وما لعيني لا ترى   للمسلمين الوردَ والإصدارا
دارَ الزمانُ عليهمُ فتغيروا   ليت الزمانَ عليهمُ ما دارا
حسبوا بأن الدينَ عزلةُ راهب   واستمرؤوا الأورادَ والأذكارا
والدينُ كان ولا يزالُ فرائضاً   ونوافلاً لله واستغفارا
والدينُ مصباحٌ حملنا نورَه   لنبثَّ ما بين الدجى أنوارا
والدينُ حكمٌ باسمِ ربِّك قائمٌ   بالعدل لا جَوراً ولا استهتارا
ذاك الهدى يا من يسائلُ ما الهدى؟   فبأي آياتِ الهدى تتمارى؟

نجد عند الشاعر حسان صوتاً موقظاً ومنبهاً المسلمين، فأساس الهزيمة يكمن في البعد عن الدين الذي به يتوحد المسلمون، وبغيره يصبحون ((شراذم في الخضم صغاراً)) وقد كانوا من قبل أسوداً في حمى الإيمان يهابهم العالم أجمع. ويعلن الشاعر أنه لم يفاجأ بالحدث، وهو الهزيمة؛ لأن الهزيمة والهوان حصاد من يزرع التفريط بالدين.

ويندد الشاعر بالحال الذي وصل إليه أبناء الأمة حين تخلوا عن إيمانهم، ففقدوا زمام الأمور وقيادة العالم، وحصروا العقيدة في دائرة ضيقة ونسوا شمولية هذا الدين وآفاقه التي تسع حياة الإنسان كلها. ومتى حُكِّم الدين في حياة الإنسان فلا مكان للجور والفساد، وذلك هو سبيل الهدى والرشاد.

ويلتفت الشاعر إلى حال الأعداء وتوحدهم ضد المسلمين رغم تفـــرقهم في الواقع، فالخوف من الإسلام وتوحد أبنائه يجعلهم يصدرون عن قوس واحدة رغم اختلافهم في العقيدة: يقول[١]:

وانظر عـــداةَ المســـلمين فـــإنهم ... داءٌ أناخَ على الحِمـــى وأغـــارا
متنافرين فـــإنْ تـــراءى مســـلمٌ ... حسموا الخلافَ ووحّدوا الأوطارا
خوفٌ من الإسلامِ يملأُ قلـــبَهم ... رعباً ويُذكي في الجـــوانحِ نـــارا

وبعد أن عرض الشاعر أسباب الهزيمة يذكر بعض نتائجها، حيث يقول[٢]:

ولرُبَّ جرحٍ في فلسطين جـــرى ... بدمٍ فـــأجرى المـــدمعَ المـــدرارا
ما زال ينتظـــرُ الـــدواءَ كتائبـــاً ... تهوى الحِمام وأنفســـاً أحـــرارا
القدسُ في أسرِ اليهـــودِ فزلـــزلي ... يا أرضُ واهْمي يا سحائب نـــارا

فالجراح الدامية تستدرّ الدموع ولا دواء لها إلا الكتائـــب المجاهـــدة الـــتي تستعذب الموت في سبيل العقيدة. والقدس أصبحت أسيرة في أيدي اليهود فمن ينقذها من الأيدي الباغية؟.

كما كان للشاعر محمد التاجي[٣] مساهمة في هذا الموضوع ففي ذكرى الإسراء ١٩٦٨م عقب النكبة نظم قصيدته ((علـــى هـــامش

---

(١) جراح وأفراح: ٨٩.
(٢) المرجع نفسه: ٩٠.
(٣) ولد الشاعر محمد محمد أحمد التاجي عام ١٩٢٥م، في جزيرة شندويل بسوهاج في مصـــر، وتلقى تعليمه الأول في معهد أسيوط الديني، ثم حصل على الشهادة العالية بكلية اللغة العربية بالأزهر، ثم حصل على دبلوم معهد التربية العالي للمعلمين، وعمل في التـــدريس ثم أصـــبح

الإسراء)) وعرض فيها صوراً للمأساة تثير الحميّة والشفقة في قلب المسلم، إذ قال(١):

حاشا لذكراكِ يا إسراء نسيانُ فأنت أنت لسفرِ الدهرِ عنوانُ
ذكراكِ بالأمسِ كانت في فمي نغماً واليومَ شجوٌ وآهاتٌ وأحزانُ
في أضلعي ثورةٌ ضجّت فضجّ دمي حقداً وثار وراءَ الصدرِ بركانُ
سهمٌ أصابَ من العلياءِ مقتلَها غدراً. ودمعٌ بجفن الحقِّ هتّانُ
لكلِّ فاجعةٍ في الدهرِ سلوانُ وما لنكبةِ أرضِ القدسِ سلوانُ

تجسد الأبيات صورة لوجدان الشاعر والألم النفسي الذي يمضّه، فذكرى الإسراء لا تُنسى، وقد كانت قبل المأساة نغماً حلواً يبعث البهجة في النفس، واليوم ارتبطت هذه الذكرى بالمأساة والهزيمة، مما جعل صدره يمور بثورة عارمة، وحزن شديد جراء هذه الفاجعة التي تلح على ذاكرته.

ثم طفق الشاعر يصف آثار النكبة في عددٍ من الصور الموحية إذ يقول(٢):

هذي مآذنُه خرساءُ ذاهلةٌ فلا أذانَ ولا في الناسِ آذانُ
بكى المصلى جباهَ الساجدين به وناح في جانبِ المحرابِ قرآنُ
بيت مشى أمسِ في ساحاته عمر فكيف يمرح فيه اليوم (دايانُ)؟(٣)

موجهاً للغة العربية، وله عدة دراسات أدبية وديوان واحد. انظر شعراء الدعوة الإسلامية: ٩/٦٣-٦٦.

(١) جراح وأفراح: ٩/٧٩.

(٢) جراح وأفراح: ٩/٧٩-٨٠.

(٣) موشي دايان: وزير الحرب الصهيوني عام ١٩٦٧م.

فالمآذن خرساء بعد أن أسكت العدو فيها صوت الأذان و لم يعد يُسمع، والمصلى يفتقد الجباه الساجدة؛ حيث انتهكَ العدو حرمة المقدسات وأهان من فيها، فالمكان الذي شهد مقدم عمر -رضي الله عنه- منتصراً ظافراً بعد الفتح أصبح ((يمرح فيه اليوم دايان)).

وللشاعر يوسف أبو هلالة(١) تصوير معبر لآثار النكبة، أودعها عدة أبيات من قصيدته الطريق إلى القدس، يقول(٢):

غصّ الثرى بدم الأضاحي ... وتلهبتْ سُوحُ الكفاحِ
وتبرّجت جندُ الضلا ... لِ وأطرقت جندُ الصلاحِ
وتواردت سحبُ الهوا ... نِ على الروابي والبِطاحِ
والنورُ طال غيابُه ... والليلُ مسدولُ الجناحِ
والقدسُ في أسرِ اليهو ... دِ وهم على دَنٍّ وراحِ
والمسجدُ الأقصى غدا ... في الأرض مغلولَ السَّراحِ
لندائِه في كل قلْـ ... ـبٍ مؤمن، وخزُ الرِّماحِ
أين الذين يقودهم ... للبذل ذبحي واجتياحي؟
ويقول هل من ضيغمٍ ... عن طُهر أمته يلاحي؟
أنا صحتُ أطلبُ عونَهم ... أتراهمُ سِمعوا صياحي؟

---

(١) يوسف محيي الدين أبو هلالة: ولد في معان في الأردن عام ١٩٤٨م، شارك في الجهاد في فلسطين، وعمل في الدعوة إلى الله مرشداً في وزارة الأوقاف الأردنية، أتمّ دراسته الجامعية وحصل على الدكتوراة في الدعوة وأصول الدين، له ديوان مخطوط، انظر شعراء الدعوة الإسلامية: ٦/٩٢-٩٧.

(٢) المرجع السابق: ٦/١٠٤-١٠٥.

يصف الشاعر صوراً من آثار الهزيمة والمآسي الدامية المترتبة عليها، فالقتلى في جميع أنحاء الأرض المباركة، وجند الضلال تتحدى جند الصلاح، وسحب الهوان والإذلال تحجب النور وتسدل جناح الظلمة الحالكة، وتسقط المدينة المقدسة في يد العدو الطاغي الذي ينشر الفساد في كل مكان، فيقع الأقصى أسيراً وتنتهك حرمته. ويستنطق الشاعر المسجد الأقصى في صيحة تعبىء المشاعر وتستثير العواطف، إذ يتساءل في حيرة: أين الأبناء الغُيُر الذين يبذلون أرواحهم فداءً للعقيدة؟ وهل من مجاهد ثائر كالأسد إذا استبيح حماه، فيثأر ممن دنس طهر مقدساته؟

أما **القضية الثانية** التي ركّز عليها الشعراء في تناولهم نكبة حزيران فهي وصف الدواء وطريق الخلاص، بعد تشخيص أسباب الهزيمة ووضع اليد على الأدواء التي أدت إليها. وطبعي أن الدواء الحقيقي الذي لا دواء غيره عند الشاعر المسلم الملتزم، يكمن في العودة إلى الله والأخذ بأسباب النصر التي رسمها لخلاص الأمة، مهما طال الزمن وعمّت الخطوب وتكاثف الضباب.

والشاعر المسلم لا ييأس أبداً، بل ينظر إلى الغد نظرة تفاؤل تنبئه بنبأ يمزق ظلام الليل ويجلو الضباب، فتشرق شمس الإسلام وتنير الآفاق. هكذا يصور عمر الأميري طريق النجاة في قوله(١):

لسنا نبالي وللقرآن في دمنا ... جُذاً من العزمِ تطوي شقةَ اللّحقِ
غداً سيشرقُ بالإسلامِ طالعُنا ... بدراً وشمساً وتجلو غرةُ الفَلَقِ
والنصرُ بالصبرِ والإيمانِ مَعْقِدُه ... والمجدُ بالعزمِ والإعدادِ والسَّبَقِ

---

(١) من وحي فلسطين: ٧٤.

ثم يملأ الأمل صدره بأن يمنّ الله عليه بزيارة ((حرم الأقصى)) محرراً من رجس اليهود فيقول(١):

يا ليلةَ القدْرِ أدعو اللهَ في لَهَفٍ أموتُ من حرمِ الأقصى على نَشَقِ
محرراً من يهودٍ يعبثون بهِ يحوطُه الصّيدُ من أبنائه الخُلُقِ
عليك أُقسمُ بالقرآنِ تلبيةً يا ربِّ يا خالقَ الإنسانِ من عَلَقِ

ويعود الشاعر في قصيدته الأخرى إلى النظرة التفاؤلية المشرقة فيقرر أننا عندما ننفض عنا غبار الدعة والاستخذاء(٢):

سيرى الكونُ من تمرُّدنا الجبّـ ـبارِ ما يسحقُ الطواغيتَ سَحقا
إن للفتحِ موعداً راسخَ العز مِ وسعياً إلى الفداءِ وسبقا
بيعةٌ في الجهاد شقّت من القد سِ إلى الخلد دربَها الوعرَ شقّا
سيطولُ الطريقُ لكن نصرَ اللّـ ـهِ آتٍ وعروةُ اللهِ وثقى

أما الشاعر أحمد الصديق فهو يعمد إلى تحريك النخوة الإسلامية في نفوس المسلمين، علّهم يمدون يد العون لإخوانهم في فلسطين حيث الغاصب يسومهم سوء العذاب، يقول(٣):

عصابةُ الغدرِ عاثتْ في مرابِعنا ومزّقتْ حرماتِ اللهِ في الحرَمِ
ودنّستْ كلَّ شبرٍ كان منتجَعاً للطّهرِ بل كانَ مهوى الروحِ من قِدَمِ
لو غضبةٌ في سبيلِ اللهِ صادقةٌ لجُندلَ الباطلُ المغرورُ من أَمَمِ
وطوّحت بقِلاعِ البَغْيِ قارعةٌ من السماءِ فلم تثبتْ على قَدَمِ

(١) من وحي فلسطين: ٨١.
(٢) من وحي فلسطين: ١٦٧.
(٣) نداء الحق: ٢٢٣.

بعد ذلك يربط الشاعر المقدمات بالنتائج، ويصل بين أسباب الهزيمة وطريق الخلاص، ويهيب بالأمة أن تستيقظ من رقدتها وتستعيد وعيها فيصرخ قائلاً متعجباً(١):

يا أمة لم يكن في الحقِّ منهجُها ... نبشَ الخلافِ ونهشَ العرضِ والرَّحِمِ
لم تبقَ آصرةٌ في اللهِ تجمعُها ... لما تقطَّعَ حبلُ الدينِ والذِّمَمِ
ومُرِّغت بالخنا أخلاقُ ناشئةٍ ... تاه الدليلُ بهم عن صالحِ القِيَمِ
فكيف نبني على رملٍ دعائمَنا ... وكيف نطمعُ أن نرقى إلى القِمَمِ؟

وحريّ بالشاعر -بعد أن وضع يده على موطن الداء وأدرك أعراضه وأسبابه- أن يصف له الدواء المناسب والعلاج الشافي.

فالشاعر المسلم لا تتردى نفسه في هوة اليأس وإن ادلهمت الخطوب وحُجب النور عن الأفق. والنصر والتمكين ملازم لهذه الأمة إن أخذت بأسبابه ووثقت عرا الإيمان واعتصمت بحبل الله المتين: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٤٧/٧] والليل مهما طال فإنه سيرحل ليشرق الفجر ويغمر بنوره الأرجاء، يقول الشاعر الصديق(٢):

إن تنصروا اللهَ ينصرْكم فلا تهِنوا ... ولا تخافوا حشودَ النّاسِ كُلِّهِمِ
ووثّقوا عروةَ الإيمانِ فهْي لكم ... عربونُ نصرٍ وسيفٌ غيرُ مُنْثَلِمِ
وسجّلوا في كتابِ الدّهرِ ملحمةً ... يشدو بها في فِجاجِ الأرضِ كلُّ فَمِ
سيرحل الليلُ لن يبقى له أثرٌ ... إلا صدى مرّ في التاريخِ كالحُلُمِ

---

(١) نداء الحق: ٢٢٣.

(٢) نداء الحق: ٢٢٥.

أما شاعرنا أحمد فرح عقيلان فهو يصرح بالحل الذي يخرج الأمة من هذا المضيق الذي حشرت نفسها فيه، والتيه الذي ضاعت في أرجائه، فانقلبت من أمة من الأحرار إلى شرذمة من العبيد، يقودهم الجزار إلى الذبح، وينتظر كل منهم دوره لا حول له ولا قوة، وهكذا لصق العار بالأمة ولازمها وصار عنواناً لها(١):

إن الشعوبَ إذا ضلّتْ حقيقتَها ... أمسى بها العبدُ نخاساً لأحرارِ
والجيشُ من دونِ إيمانٍ ومعتقدٍ ... ضأنٌ يساقُ إلى حانوتِ جزّارِ
مبادئ الكفرِ قد جرّتْ هزائمَنا ... وصيّرتْ عارَنا نشراتِ أخبارِ

وفي نهاية المطاف يناشد الشاعر قومه أن يحطموا الأصنام التي جرت عليهم الوبال، وأن يعودوا وحدة متراصة لا يتسرب إليها الوهن، تسير قدماً لتحرير الديار المقدسة وتطهيرها من رجس الأعداء، تحت قيادة قائد رباني بطل(٢):

يا قومُ لا ترتضوا الأصنامَ آلهةً ... لأنها أهدرتْنا أيَّ إهدارِ
قوموا لنعلنَها شعواءَ مؤمنةً ... لا رأي فيها لفُسّاقٍ وفجّارِ
يقودها بطلٌ لله هجرتُه ... وراءه جيشُ أطهارٍ وأبرارِ

وينظر الشاعر مأمون جرار إلى الغد نظرة تفاؤلية، فالفجر سيسطع بعد هذا الظلام الحالك، فكلما اشتدت حلكة الظلام قرب طلوع الفجر، وستعود الطيور المغردة حرة طليقة تغني للأزاهير البيضاء في الرياض اليانعة. يقول(٣):

---

(١) جرح الإباء: ٢٥.

(٢) جرح الإباء: ٢٥.

(٣) شعراء الدعوة الإسلامية: ٣/٨٢.

لكن سيبدو الفجرُ يوماً ساطعاً وأقول: ولّي وارحلي يا ليلتي
سيُطلُّ مهما طالَ هذا ما أرى ويعود نسمُ الصبحِ يبهجُ مهجتي
وتعود أسرابُ البلابلِ حرةً تشدو لزهرٍ أبيضٍ في روضتي

ويؤكد الشاعر نفسه فكرة العودة إلى الدين الصحيح والتمسك بالمبدأ الأصيل في قصيدة أخرى حيث يقول[١]:

لم يبقَ إلا مبدأٌ نرجو به أن نبلغَ الآمالَ والأوطارا
لم يبقَ إلا دينُنا إسلامُنا يمحو الفسادَ وينسفُ الأوكارا
إسلامُنا بالأمسِ أنشأ أمةً كانت تعيشُ مذلةً وصَغارا
فغدت بفضلِ الله أعظمَ أمةٍ كانت لكل الحائرين منارا

فالإسلام قد صنع من أمة جاهلية -كانت تحيا حياة الذل والمهانة- صنع منها خير أمةٍ أخرجت للناس، فكانت المنار الذي يهدي الحائرين في كل زمان ومكان إلى الطريق القويم.

ثم طفق الشاعر يمجّد الشهداء الذين كانوا دائماً وما زالوا رموزاً ومنارات تهدي السائرين على الطريق، وتدعو من يركز منارات أخرى في الطريق إلى تخليص الوطن السليب ((فشرف الشهادة لا يعادله شرف آخر، فهو عنوان لكل أمة ترفض الاستعباد والمذلة، وهو رمز ترفعه الشعوب المناضلة شعلة وضاءة تظل أبد الدهر تسطع كرامة وأنفة وتذكي لهيبها دماء الشهداء التي لا تنضب))[٢]. فيقول[٣]:

(١) شعراء الدعوة الإسلامية: ٧٩/٣.
(٢) الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر: ٢٠٧.
(٣) شعراء الدعوة الإسلامية: ٧٩/٣.

وإذا اتخـــذنا دينَنـــا منـــهاجَنا فبِـــه نـــربي صـــفوةً أبـــرارا
يشرون دنيـــاهم بـــأكرمِ ميتـــةٍ حتى ينـــالوا الخلـــدَ والأنهـــارا
وإذاً تعود الدارُ أكـــرمَ عـــودةٍ ونعود نرفع في الـــديارِ الغـــارا

ومن الشعراء الذي وقفوا طويلاً عند تمجيد الشهداء الشاعر يوســـف أبـــو هلالة في قصيدته ((الطريق إلى القدس)). فبعد أن اســـتعرض الصـــور الداميـــة للمأساة قال[1]:

ومـــن القفـــارِ الجـــردِ تبْـــ ـــــزغ نبعـــةُ المـــاءِ القَـــراحِ
فتـــدفقتْ جنـــدُ العقيـــ ـــدةِ أنهـــراً في كـــلّ ســـاحِ
وحـــداؤُها القـــرآنُ عنـــ ـــوان الهدايـــةِ والفـــلاحِ
وتقـــول: إن شـــحَّ العطـــا ءُ فـــنحن للـــدين الأضـــاحي
وعلى الطريـــق شـــدا الرجـــا لُ بألســـنِ البـــذل الفِصـــاحِ
والفـــوز فـــوزُ الخاضبيـــ ـــن جســـومَهم بـــدمِ الجِـــراحِ
والعـــائفين العـــيشَ عيـــ ـــشَ المســـتذَل المســـتباحِ

كما تنبع العيون الصافية في الصحارى المقفرة، نهضت هذه المجموعة مـــن المجاهدين كالأنهر الهادرة، وحادي ركبها القرآن الكريم رمز الهدايـــة والفـــلاح، ولسان حالها يقول: إننا نبذل أرواحنا فداءً للعقيدة، في زمن شحّ فيـــه البـــذل والعطاء. فالفوز حليف الشهداء الذين تخضَّبت أجسادهم بالدماء الزكية جهـــاداً في سبيل عزة الإسلام والمسلمين.

---

(١) شعراء الدعوة الإسلامية: ٦/١٠٥-١٠٦.

ثم شرع شاعرنا في وصف الحدث الذي قامت عليه القصيدة[١]، فقال[٢]:

خمساً من الساعاتِ يهـ ـزم روعُها هوجَ الرياحِ
ولشدةِ الأهوالِ يغـ ـدو الثبتُ فيها غيرَ صاحِ
يهوي بها رضوانُ مثـ ـلَ النَّسر مقصوص الجناحِ
من بعدما اقتحم الرّدى والقصفُ قد غمر النواحي
فرأيته وعليه من حللِ الدّما أبهى وشاحِ
وجبينُه المشجوجُ يحـ ـكي للدُنا قصصَ الكِفاحِ
وجراحُه عطراً تفو ح كأنها وردُ الأقاحي
فحنوتُ ألثمُ جرحَه الرّ عّافَ فانتكأت جراحي
وهمتْ على خدي الدمو عُ وقلت يا روحي وراحي
هلاّ رحمتَ قلوبَنا فعدلتَ عن هذا الرواحِ
فأجابني البطلُ المسجّـ ـى هازئاً بي باقتراحي
كفكفْ دموعَك ليس في عبراتِك الحرّى ارتياحي
هذا سبيلي إن صدقـ ـتَ محبتي فاحمل سلاحي

---

(١) ذكر الشاعر مناسبة القصيدة في قوله: «ذات يوم وبعد هزيمة حزيران الأسود خاضت مجموعة من الشباب المسلم معركة مع اليهود أسفرت عن استشهاد الأخ رضوان عمر بلعة، ذلك الذي عرفته في ساح الأخوة أصفى ما يكون الإنسان، والذي رأيته على مذبح الشهادة مخضب الكفين، مشجوج الجبين، في مزق لحمه ضجيج وفي رعاف جرحه صلاة» شعراء الدعوة: ٦/١٠٤.

(٢) شعراء الدعوة: ٦/١٠٧-١٠٨.

تلك هي قصة استشهاد ذلك المجاهد البطل الذي كان شـجاعاً كالنسـر، وظل صامداً في المعركة إلى أن خضب جسمه بالدماء الزكية كـورد الأقـاح، وأحس الشاعر بدنو ساعة الفراق وغالبته دموعه إلا أن الشهيد يوصيه بوصـيته الخالدة التي يوجهها إلى الشاعر جاعلاً شخصه استقطاباً للإنسان المسلم، فـيرى فيها السبيل الأوحد للنصر، فيقول: هذا هو الطريق طريق الجهاد مشيته، فـإذا توقفت فأكمل أيها المسلم الطريق واحمل السلاح وواصل الجهاد.

أما الشاعر حسان حتحوت فيوجه حديثه إلى الزعماء المسلمين مهيباً بهم أن يحيوا فريضة الجهاد إعلاء لكلمة الله، ولا مراء في استجابة أبناء العقيدة الضياغم لداعي الجهاد والتسابق لميادين الشهادة، وسيُجري الله على أيـديهم معجـزات النصر: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ٨/١٧]. يقول[1]:

يا معشرَ الحكّامِ هـذا يـومُكم ... كـي تثبتـوا الإيمـانَ والإيثـارا
من منكمُ يحيي الجهـادَ فريضـةً ... ويكـون سـيفُ إلهِـه بتّـارا
يبني على الإيمان خـطٌّ دفاعـه ... وبه يرد مـن اعتـدى أو جـارا
يدعو للاستشهاد دعوةَ مـؤمنٍ ... فنجيـبُ تلـك دماؤنـا أنهـارا
فاهجم تجدْنا في اللقاءِ ضـياغماً ... واهبُبْ تجدْنا في الـوغى إعصـارا
إن كنتَ بالقهّار ربـك مؤمنـاً ... لم تُلفِ من هذا الـورى قهّـارا
لم ترمِ كفُّك إذ رميـتَ وإنمـا ... أجرى الإلـهُ بكفّـك الأقـدارا

ويختم الشاعر قصيدته بابتهال ضارع إلى الله تعالى إذ يقول[2]:

---

(١) شعراء الدعوة: ١٠/٢٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٠/٢٧-٣٠.

ثار العبابُ بنـــا فـــنجٍّ ســـفيننا واهدِ الريـــاحَ وســـخِّر التيـــارا
واجعل لوجهِك سعيَنا وجهادَنـــا واجعل لك الإعلانَ والإســـرارا

وعبر الشاعر محمد التاجي عن الآمال المعقودة على سواعد أبناء الأمـــة في تحرير الأراضي المقدسة من ربقة الاحتلال الغاشم، فها هو ذا يقول[1]:

الويل للشرق[2] إن لانت سواعدُهُ وعاقهُ دون نصر القدسِ خـــذلانُ
دع كل صوتٍ سوى الهيجاء ناحية فكلُّ صوتٍ سوى الهيجاء بهتـــانُ

* * *

لا كنتَ يا شرقُ يوماً للكِرام حمىً إن أنتَ لم تنفجر في غضبةٍ حُمَما
كنِ الردى واركب الأجواءَ صاعقةً والأرضَ ناراً وأمواجَ البحارِ دما
فالحرُّ يغشى حياضَ الموتِ كالحةً ولا يَوَدُّ نعيمَ العـــيشِ منـــهزما
هذا عرينُك لكن أيـــن هيبتُـــه؟ والليثُ ليثٌ فتيّاً كان أو هَرِمـــا
فيمَ الوجومُ؟ تقدمْ غاضباً حنقـــاً عبر الخطوبِ وزمجرْ صاخباً عَرِما
كالسيلِ منطلقاً كالويلِ مســـتبقاً كالليلِ محتدماً كالنـــارِ ملتـــهِما
هي الوغى قد رضينا بالوغى حكماً حتى نرى حائطَ الطغيانِ منهدِما
حتى نرى القدسَ حرّاً في عروبتِه حتى نرى الحقَّ والإسلامَ مبتسما

يناشد الشاعر أبناء الإسلام أن يهبّوا لنصر القدس، الأرض المقدســـة، فـــلا سبيل إلى تحريرها سوى الجهاد، وكل ما عداه فهو بهتان لا قيمة له. ويســـتنهض

---

(١) شعراء الدعوة: ٩/٨٠-٨١.

(٢) ((إن لفظة المشرق والشرق مطاطة. عنت في الشعر العربي كله مفاهيم متفاوتة مـــن حيـــث الرقعة الجغرافية))، الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية: ١٦٠.

الشاعر الهمم لاقتحام الردى في ثورة وإقدام، فالحر يأبى العيش مهاناً، كالأسد الذي يحمي عرينه ((فتيّاً كان أو هرماً)). ويحرض الشاعر المجاهد المسلم على اقتحام غمار الحرب وعدم التخلف عنها حتى النصر وتحرير القدس لبناء مستقبل مشرق.

وهكذا كان الشعراء على وعي كامل لواقع الهزيمة؛ أسبابها وآثارها، مستنيرين بهدى الإسلام، ومدفوعين بطاقات العقيدة. فلم يكونوا شاهدين على الواقع المؤلم فقط وإنما ترقّوا في ذلك ليكونوا المحرّضين الفاعلين في شعرهم. مما يؤكد فهمهم الإسلامي لأسباب النكبة وآثارها، ومن ثم كان تركيزهم على استثارة المشاعر الدينية لدى أبناء الأمة.

المبحث الثاني

من معاناة الشعب الفلسطيني ومظاهر الإرهاب الصهيوني

لقد كان للاحتلال وممارساته الصهيونية التوسعية آثاره الوخيمة، التي أدت إلى استثارة مشاعر المسلمين وتطلعهم إلى اليوم الذي ينتهي فيه هذا الاحتلال الغاشم؛ ليستعيد شعب فلسطين حريته وسيادته على أرضه ووطنه. فلا شك أن رؤية مؤسسات الاحتلال العسكرية، ورؤية قوات الاحتلال اليومية تروح وتغدو على تراب الأرض المقدسة تملأ قلوب المسلمين غضباً وحقداً، وتطلعاً إلى تخليص المقدسات من دنس العدو الغاصب.

وقد اتخذت سلطات الاحتلال سياسات متعددة لتقييد حرية الشعب والضغط عليه، وأطلقت لنفسها العنان للممارسات الإرهابية، بعد أن اقتلعت أهل البلاد من أرضهم بالإبادة أو التدمير أو الطرد أو الاضطهاد.

وتفاوت الشعراء في تصوير المعاناة تبعاً للمواقف التي يعبرون عنها، فحين رأوا ما حلّ بالأرض المباركة وأهلها، أخذوا ينظمون وينشدون مصورين المأساة، ومنادين بالجهاد لتحرير الديار، ومحرّضين على الصمود والثبات في وجه مخططات الأعداء[1].

فكانت الفكرتان الأساسيتان اللتان دارت حولهما القصائد هما:

---

(١) انظر الاتجاه الإسلامي في الشعر الفلسطيني الحديث: ٢٨.

- تصوير المأساة ومظاهر الإرهاب الصهيوني، والأثر النفسي لدى الشعراء.

- الدعوة إلى الجهاد لتحرير الديار، والتحريض على الصمود في وجه العدو الغاشم، والتفاؤل بغد مشرق.

فهذا الشاعر يوسف العظم[١] يصف لنا الملامح الأولى للمعاناة حين يبعث إلينا ((رسالة من القدس)) على لسان شيخ فلسطيني يحكي لنا فيها عن الضيق الذي يعاني منه، والآلام التي يكابدها، إذ يقول[٢]:

في ساحةِ المسجدِ المحزونِ حدثني ... شيخٌ على وجهِه الأيامُ ترتسمُ
لمن أبثّ شكاتي والشفاهُ غدتْ ... خرساءَ ليس لها في الحادثاتِ فمُ
من ذا الذي هدّ منيّ ساعداً ويداً ... هل ضاع دربي أم زلّت بيَ القدمُ؟
لقد جرعنا كؤوسَ الذلّ مترعةً ... والقدسُ في العار والمحرابُ والحرمُ
والصخرةُ اليوم باتت غير شامخةٍ ... لأن نجمةَ صهيونٍ لها علمُ

تلك هي حكاية ذلك الشيخ الذي يصف عجزه عن مجابهة البلاء الذي دهمه وقومه، والمذلة التي اكتنفتهم من الفئة الباغية. ثم يُجري الشاعر الحديث على لسان شهيد، فيعرض صوراً ذات ظلال قاتمة تثير المشاعر فيقول[٣]:

---

(١) يوسف العظم: شاعر أردني، ولد في مدينة معان سنة ١٩٣١م، تخرج من كلية اللغة العربية بالأزهر ثم من معهد التربية للمعلمين بجامعة عين شمس، له مؤلفات عديدة في الشعر والأدب والنقد والفكر الإسلامي والتراجم والقصة وأدب الأطفال. انظر من الشعر الإسلامي الملتزم في الأردن، يوسف العظم شاعر القدس: ١٩-٢١.

(٢) في رحاب الأقصى: ٦٦.

(٣) المرجع نفسه: ٦٧.

وإذ بصوتِ شهيدٍ في مسـامعنا يـئن في ألمٍ مـاذا أصـابكُم؟
أتطربـون لآهـاتٍ نصـعّدها ويترف الجرحُ (والقطعان) تبتسمُ؟!
في ظل زيتونتي ناح الحمامُ لمـا أصاب من مزّق العدوانُ جمعَهمُ
بالأمسِ كنتُ أرى زيتاً نباركـه واليوم يترفُ من جرحي الأليمِ دمُ
في خيمةٍ عصفت ريحُ الزمانِ بها لحتُ بعضَ بني قومي وقد سلموا
فأُسلموا لنيوبِ المـوتِ ضـاريةً الـبردُ والجـوعُ والإذلالُ والألمُ

يعلو صوت الشهيد بالنكير على الأمة؛ بسبب تقاعسها وتخاذلها عن الجهاد، ويتساءل في عجب عما أصابهم، علّه يوقظهم من همود الغفلة والإلف والعـادة، ويلفتهم إلى تأمل واقع إخوانهم من حولهم. فالجراح تترف والآهات تتصاعد. وفي ظلال شجر الزيتون تنوح الحمائم لما أصاب المسلمين من تمزّق وتفرّق؛ فأضحى الزيت المبارك لتلك الشجرة دماً يترف من جرحٍ أليم. والعدو الغاشم شرد أهل البلاد من أرضهم، واغتصب بساتينهم؛ فتشردوا في نواحي الأرض، لاجـئين في الخيام، يصارعون نيوب الموت الضارية، ويعانون البرد والجوع والمرض والإذلال.

وللشاعر نفسه قصيدة أخرى يعرض فيها المعاناة التي يحياها أهل فلسـطين، فيحشد في الأبيات صوراً من ممارسات الاحتلال التعسفية، فيقول(١):

والعدوّ الدخيلُ في كـل شـبرٍ بـثّ فـيكم آذانَـه وعيونَـهْ
يملأ الأرضَ والفضـاءَ فسـاداً ويغذّي بكـل حقـد جنونَـهْ
كم صغيرٍ ذاق الـردى بيديـه وصغير ما عاد يلقى ((الحنونَـهْ))
وعجوزٍ في عتمةِ الليـلِ باتـت جرحُها يترف الـدماءَ سـخينَهْ
دمروا بيتـها فصـار حطامـاً واستباحوا في حقلهـا زيتونَـهْ
وفتاةٍ عـذراءَ مزّقهـا القيـ ـدُ وكانت رمزَ العفافِ مصونَهْ

---

(١) في رحاب الأقصى: ٥١-٥٢.

((إن الأرض المعذبة تصرخ لما يجري لها من انتهاك للمقدسات الدينية، والشعب الفلسطيني الأسير يعاني أبشع صور الإرهاب والعنف والظلم))[(١)].

فالعدو يبث جواسيسه في كل مكان لمقاومة الثورات داخل فلسطين وخارجها. ويصف الشاعر ما فعله اليهود بأهل فلسطين، حيث أعملوا القتل فيهم صغاراً وكباراً، ودمروا البيوت واستولوا على الحقول، وانتهكوا الأعراض.

ويحدثنا الشاعر محمد صيام[(٢)]. بلسان الوجدان الشعري، عن صور أخرى من صور المعاناة التي يعانيها أهل فلسطين، مقارناً بين الماضي السعيد والحاضر الأليم: فيقول[(٣)]:

أنا كان لي في أرض أجْـ ـدادي منازلُ لا تزال
في القدس في يافا وغزّ ة في الجنوبِ وفي الشمال
حريةً ورضاً وعيـ ـشاً ناعماً وهدوءَ بال

(١) الملف السري الأسود لإسرائيل: ١٠.

(٢) محمد محمود صيام: ولد في الجورة جنوب فلسطين سنة ١٩٣٧م، حصل على الليسانس في اللغة العربية من جامعة القاهرة، وعمل مدرساً لمادة اللغة العربية بمدارس غزة، وفي عام ١٩٦٠م عمل بوزارة التربية والتعليم الكويتية وكيلاً لإدارة إحدى مدارسها الثانوية، ثم عمل مديراً للجامعة الإسلامية في غزة. له عدة دواوين منشورة، انظر شعراء الدعوة الإسلامية: ٢/٦٨-٦٩.

(٣) ميلاد أمة: ٣٧٦. والقصيدة ليست على قافية واحدة في الديوان.

في هذا الإطار الجميل يرسم الشاعر صورة الماضي السعيد حيث العيش الرغيد والحياة الآمنة العزيزة على تراب الوطن الغالي؛ ليبرز في المقابل صورة الحاضر الأليم، إذ يقول(١):

ثم استدار لنا الزمانُ وأمعنتْ فينا الليال
نفياً وتشريداً وطعناً بالأسنة والنّصال

* * *

وتكاتفت من كل أنحاء الوجود قوى التحدي
تنوي الشرورَ بشعبنا الغالي بإصرارٍ وجدٍّ
فمضت وهذا الشعب غير مصدق أو مستعدٍّ
تجتثّه من أرضه بضراوة الخصمِ الألدِّ
وانهالت الأمدادُ تمْدُ عمُهنّ مدّاً بعد مدِّ
خلقٌ وأعتدةٌ وأموالٌ بلا حصرٍ وعدِّ

تلك هي الحال التي آلت إليها حياة الشاعر في موطنه، فالخطوب تتوالى والمصائب تترى، والعدو يفتك بأهل فلسطين نفياً وتشريداً وقتلاً، تسانده في ذلك ((قوى التحدي)) في الشرق والغرب.

وفي قصيدة ((وامعتصماه)) للشاعر كمال رشيد(٢)، يستغيث الشاعر بأبناء الأمة علّهم يستجيبون لنصرة الشعب المستضعف المظلوم، كما استجاب المعتصم

(١) ميلاد أمة: ٣٧٦.

(٢) كمال عبد الرحيم رشيد: ولد في بلدة الخيرية التابعة لمدينة يافا في فلسطين عام ١٩٤١م، ونزح إلى نابلس عام ١٩٤٨م، وفي عام ١٩٦٧م نزح إلى عمّان، أتمّ دراسته الجامعية في دمشق، ثم نال دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية من جامعة محمد الخامس في الرباط، عمل في حقل التدريس ثم عضواً في مديرية المناهج في وزارة التربية الأردنية، له عدة دواوين وكتب للأطفال. انظر مختارات من الشعر الإسلامي الحديث: ١٨٣.

لصرخة الاستغاثة من تلك المرأة العربية الأسيرة. ومن خلال هذه المقارنة المؤثرة يعرض الشاعر صورة المعاناة، إذ يقول[١]:

أنا في مدارِ الشمسِ كانت وقفتي ... والفجرُ والأمجادُ مِلْءُ إهابي
أنا في عرين الأُسد كانت جلستي ... ومع السنين الغيدِ ضاع شبابي
كنا وقد ساد الجدودُ بسالف ... زان الوجودَ بفكره الوثّابِ
بعقيدةٍ غرّاءَ تجمع أمةً ... للظى المعاركِ أو سنا المحرابِ
وإذا دعتْنا الحربُ كنا أهلَها ... والثأرُ كان لنا أصحَّ جوابِ
صاحت فتاةٌ فاستجاب خليفةٌ ... لبيكِ إني للمعاركِ صابي
واليومَ كل نسائِنا نَادَيْنَنَا ... أين الرجالُ وأين أُسدُ الغابِ؟

ثم يصور الشاعر أوضاع أهل فلسطين، وحياتهم في ظل الاحتلال، متسائلاً عن سبب الخنوع والاستكانة من أبناء الأمة وهم يَرَوْن هذا الواقع الأليم[٢]:

ماذا دهى الصيدَ الأباةَ وقد غدتْ ... أوطانُهم للخصمِ كالأسلابِ؟
والأهلُ أضحَوْا في الخيامِ سيوفُهم ... خُشْبٌ وفي الأوطانِ صوتُ عذابِ
الخصمُ يمرحُ في البلادِ ويزدهي ... ويعيش أهلُ الأرضِ كالأغرابِ
تتّابعُ الأحداثُ في بلدي ولا ... حدثٌ يعيدُ كرامتي وشبابي
والعابثون بأرضِنا كُثْرٌ ولـ ... ـكنّ الأمورَ تسيرُ دون حسابِ

(١) شدو الغرباء: ٢٩.

(٢) شدو الغرباء: ٢٩.

وبأسلوب المقارنة بين الماضي والحاضر يعرض الشاعر المغربي محمد المنتصر الريسوني[١] صور المأساة في قصيدته ((الغد الزاحف)) فيقول[٢]:

بكي شعراءُ العرب رسمَ الفواطِمِ ... فأجّت بذكراهم مشاعرُ هـائمِ
أقلّ مناهم خـافقٌ رقَّ عمقـه ... لنجوى طيوف مشرقات نـواعمِ
وأبكي وملءُ النفسِ غضبةُ خالدٍ ... معاهدَ كانت ً رائداتِ ً المكـارمِ

وينتقل الشاعر بعد هذه ((التوطئة التقليدية)) إلى الحاضر الألـيم في الأرض المباركة، وما يعانيه أهلها، وصدى هذه المعاناة في نفسه[٣].

فلسطينُ مذ شعّ الضياءُ بنـاظري ... منىً تجتلي فخراً بساحِ الغمـائمِ
شببتُ وأنّاتُ اليتـامى تـرجُّني ... ويرمضُ أغواري لهيبُ المظـالمِ
ويُعولِ في قلبي شتيتٌ من الأسى ... فأطوي جناحي ساهداً جدّ ساهمِ
فلسطينُ في نفسي أريـج تولّـهٍ ... يعانق أحلامـي بنشـوةِ حـالمِ

يظهر في القصيدة أثر المأساة في نفس الشاعر حيث تهزه أنّـات اليتـامى، ويحرقه لهيب المظالم، مما يسلمه إلى حالة من السهاد والحزن العميق.

ويحدثنا الشاعر شريف قاسم[٤] عن معاناة الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال

---

(١) محمد المنتصر الريسوني: ولد بمدينة تطوان في المغرب عام ١٩٤١م، ودرس على والده العلوم العربية والإسلامية، ثم درس في جامعة الرباط، وزاول التدريس ثم الإرشاد التربوي، ثم أصبح عضواً بلجنة التأليف بوزارة التعليم، ثم أستاذاً متفرغاً للبحث العلمي، رأس تحرير صحيفة النور الإسلامية. لـه بحوث ومقالات ودواوين عديدة. تُرجم له من أوراق مرسلة من الشاعر نفسه.

(٢) صحيفة النور: ١٥- ذي القعدة- ١٤٠٤هـ- ص٤، وهي صحيفة يومية مغربية كان يرأس تحريرها الشاعر نفسه.

(٣) صحيفة النور: ١٥- ذي القعدة- ١٤٠٤هـ، ص٤.

(٤) شريف الحاج قاسم: ولد في مدينة دير الزور في سورية عام ١٩٤١م، ثم انتقل إلى دار المعلمين بمدينة حلب، وتخرج منها معلماً وعمل في مهنة التدريس بدير الزور، ثم انتقل إلى السعودية ليعمل فيها ومازال. كان خطيباً إلى جانب عمله في التعليم، ونُشرت له عدة دواوين. انظـر مختارات من الشعر الإسلامي: ١٦٥.

الغاشم، وأثر ذلك في نفسه. حيث شغله الخطب، واستبد به الكــرب، وأقــضّ مضجعه المصاب(١):

طمى الخطبُ فاستهوى إجابتَه السُّؤلُ ... وللفكر محــرابٌ إذا أقبــل الليــلُ
خليليَّ إخواني فقد جلّ خطــبُهم ... وشغلي بأفكاري عليهم هو الشغلُ
وشعري على شطآن كلِّ مصــيبةٍ ... حنينٌ جرى كالفيضِ يدفِق أو مهلُ
وواللهِ ما كنتُ النؤومَ وصــوتُهم ... يئِن بصدري إذ يــؤرِّقني الهــولُ
أُخُوَّتنــا في الله أقــوى وشــيجةً ... بغير عُراها ما لنا في الورى حــولُ
طمى السيلُ بل لجّ الطغاةُ ببغــيِهم ... على أمة الإسلام واحتدم الثّكــلُ
وذابت قلــوبُ المــؤمنين كآبــةً ... يمزقهــا كــربٌ ويُثقلُهــا حمــلُ

ثم يلتفت الشاعر إلى الأمة المتخاذلة، مستنكراً تقاعسها واســتكانتها أمام الأهوال التي يعانيها أهل فلسطين، ويحذرها من مغبة هــذا الصــمت الطويل(٢):

وهدّت فؤوسُ الكافرين بأرضــنا ... معاقلَ سامُوها الهوانَ وما مَلّــوا
ونشكو ونبكي كلَّ يوم مــذابحاً ... ونشجبُ إجرامَ البغاة وقد نسلو
فآهٍ على قومي ولهفــي علــيهمُ ... وعيني علــيهم بالمــدامع تنــهلُّ
وهذي القوافي من سنين طويلــةٍ ... بآلامهم دون النوائــبِ تخضــلُّ
هي المحنُ الكبرى تمــوج وإنهــا ... لنا نذرٌ حتى تقــومَ بهــا الخيــلُ

---

(١) صدى وذكرى: ٥٥-٥٦.

(٢) المرجع السابق: ٥٦.

ويستحضر الشاعر محمود مفلح[١] صورة مشرقة لبلاده، وقد عـمّ فيها السلام، وأطلق صوت الأذان حراً طليقاً، والتقى الأهل الغرباء المشتتون في نواحي الأرض، وعاد المصلّون إلى الأقصى آمنين مطمئنين. والزيتون عاد ((يفوح مسكاً وطيباً)). فانتهى الظلام وأسفر الفجر، وعاد أبناء الأرض إلى أراضيهم فاستقبلهم شجر الليمون ((حبيباً يضم شعباً حبيباً)) حيث يقول[٢]:

أصحيحٌ ما قيل يا بلدَ الطهـ ـر بأن السلامَ صار قريبا؟
أصحيحٌ أن المآذنَ أضحتْ حـرّةً تطلق النداءَ الحبيبا؟
وبأن الصديقَ يلقى صديقاً وبأن القريبَ يلقى القريبا؟!
والمصلّون ينعَمُون لدى الأقـ ـصى عيوناً قريرةً وقلوبا؟
وبأن الزيتونَ صار طليقاً في الروابي يفوح مسكاً وطيبا
والظلامُ الذي أناخَ علينا قد رماه ((الهمامُ)) سهماً مصيباً؟
أصحيحٌ يا قدسُ أن بنيكَ الـ آن عادوا يسابقون الدروبا؟
وبأن الليمونَ نحوهمُ يسـ ـعى حبيباً يضم شعباً حبيبا؟

ولكن الشاعر سرعان ما يصحو من هذا الحلم البديع؛ ليواجه الواقع المرير، فيقول[٣]:

إنني أُرسل الكلامَ وأدري أن فيما أقول شكّاً مريبا
إنها نوبةٌ من العشقِ تعرو ني فأُزْجي كلاميَ المحبوبا
أيُّ نصرٍ ولست أسمع قصفاً أو هديراً ولا رأيت لهيبا؟!

---

(١) محمود مفلح: ولد في بلدة سمخ في فلسطين عام ١٩٤٣م، واضطر للتروح إلى سورية، فعاش في مدينة درعا، ونال شهادة الإجازة (الليسانس) في اللغة العربية من جامعة دمشق عام ١٩٦٧م، ثم عمل مدرساً في المغرب، وبعدها سافر إلى السعودية وعمل فيها موجهاً تربوياً. نشر عدة دواوين ومجموعات قصصية، انظر مختارات من الشعر الإسلامي الحديث: ٢٢٨.

(٢) الراية: ٢٤-٢٥.

(٣) المرجع السابق: ٢٥.

أيُّ نصرٍ ومخلبُ الذئبِ أدمى جبهةَ العدلِ واستباح الشعوبا؟!
أيُّ سلمٍ هذا الذي ترك النّا س شتاتاً وجرحهم مصلوبا؟!
أيُّ سلمٍ هذا الذي أمكن البغـ ـيَ ونمّى أظفارَه والنيوبا؟!

يصور الشاعر المعاناة التي تحياها بلاده من خلال تلك التساؤلات الحزينة التي بددت معالم تلك الصورة الحالمة التي رسمها في الأبيات السابقة. فأيّ نصرٍ يكون بلا حرب تبيد العدو وتشعل لهيب الثورة؟ وأيّ نصرٍ والذئاب ينشرون الفساد والإرهاب في كل مكان؟ وأيّ سلمٍ يكون مع العدو، وقد شتت أبناء الأرض عن أرضهم، وجراحهم ما تزال نازفة؟. وأي سلم وأظفار البغي ونيوبه تنمو بمرور الوقت؟.

وفي قصيدة أشجان الإسلام يحدثنا الشاعر صالح الجيتاوي[1] عن صور أخرى للمأساة فيقول[2]:

لا تسألِ العينَ فيم الدمعُ هتّانُ طغتْ على القلبِ آلامٌ وأحزانُ
انظر إلى دولةِ الإسلامِ قد طُمِست أركانُها وانبرتْ للكفرِ أركانُ
أنصِتْ فكم أنّةٍ للقدسِ ليس لها خلال قهقهةِ الأعداءِ تبيانُ
الحكم جَوْرٌ وحرُّ القومِ غيّبه سجنٌ به من صنوفِ القهر ألوانُ
البرّ أقفرَ والأرحامُ ضائعةٌ يشكو إلى الله آباءٌ وإخوانُ
والقدسُ ترسلُ أنّاتٍ مقطعةً تمضي هباءً. فما في القومِ من كانوا

(١) صالح عبد الله الجيتاوي: ولد عام ١٩٤٣م في قرية غرب مدينة نابلس بفلسطين ودرس في مصر بكلية الهندسة في جامعة القاهرة، ثم عمل بوزارة الأشغال العامة في الأردن، ثم أنشأ مكتباً هندسياً خاصاً في عمّان. له نشاط أدبي واسع، وله ديوان مطبوع، انظر شعراء الدعوة: ١٠/٦٣-٦٤.

(٢) صدى الصحراء: ٨٨-٨٩.

يرثي الجيتاوي في هذه القصيدة دولة الإسلام وعزة المسلمين في ديار الإسلام التي تسلط عليها الأعداء. وقد تأثر فيها بقصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس والتي يقول فيها[(١)]:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصانُ ... فلا يُغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتُها دولٌ ... من سرّه زمنٌ ساءتْه أزمانُ
تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ من أسفٍ ... كما بكى لفراقِ الإلفِ هَيْمانُ
على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ ... قد أقفرت ولها بالكفرِ عمرانُ

نرى في قصيدة الجيتاوي جمرات من الحرقة والألم على واقع الأمة وما أصابها من كوارث ونكبات، فيبوح بكل ما في قلبه من حسرة وقهر ولوعة على دولة الإسلام التي طمست أركانها وشيدت فيها أركان الكفر. وللقدس أنين لا يُسمع، فقد طغت عليه ضحكات البغاة. والظلم هو المسيطر، والأحرار في غياهب السجون يعذبون، أما الإخوان فالأرحام ضائعة بينهم.

وفي ذلك تعريض بالمتخاذلين عن نصرة إخوانهم في الأرض المحتلة، في حين يسوق العدو هؤلاء الإخوان إلى المجازر ظلماً وعدواناً.

ويصور الشاعر نفسه في قصيدة أخرى ما حلّ بفلسطين وشعبها من أنواع المصائب التي تزداد بتعاقب السنين، ولا من يمسح الدموع، وما لهم إلا الأحلام والأماني التي سرعان ما تتبدد أمام الواقع المرير، يقول[(٢)]:

(١) صدى الصحراء: ٨٩.

(٢) صدى الصحراء: ١١٢.

تمضـــي الســـنونَ ونحـــن في مُــــرِّ المصـــائبِ نــــرزحُ
أحزانُنــــا لا تنتــــهي ودموعُنــــا لا تُمسَـــحُ
تُمســـي وآمـــالُ المسيــــ ـــــرةِ روضـــةٌ تتفـــتّحُ
فتعــــودُ غصّـــةَ خيبـــةٍ وندامـــةٍ إذ نُصـــبِحُ

ويقول الشاعر عدنان النحوي(١) من قصيدة له يصف بعض ملامح المعاناة في ظل الاحتلال الغاشم(٢):

وتلفّت الأقصـــى لمكّـــةَ لوعـــةً أختاه! تنهش أضـــلعي الغربـــانُ
أختاه! وانقطعَتْ حبـــالُ ندائِـــه واغرورقَتْ من دمعِه الأجفـــانُ
وهوت معاولُ كي تدقَّ حياضَه وهوتْ على أمجـــادِه الجـــدرانُ

يربط الشاعر في الأبيات بين المسجد الأقصى القبلة الأولى، ومكة حيث القبلة الثانية، فيرسم لنا لوحةً داميةً تصور الأقصى يشكو ما حلّ به من كرب وبلاء إلى مكة التي تربط بينها وبينه رابطة القداسة، ويبحث الأقصى عن أبناء الإسلام فهم كثر ولكنهم كغُثاء السيل، يعيشون في هوان لا هيبةَ لهم في عيون

---

(١) عدنان علي رضا النحوي: ولد في صفد في فلسطين عام ١٩٢٨م، سعودي الجنسية، نزح سنة ١٩٤٨م إلى دمشق، حيث عمل مدرساً ثم عمل في الكويت، ثم سافر إلى مصر، ودرس الهندسة الكهربائية، ثم عاد إلى سورية وعمل مديراً للإذاعة في حمص، ومنها إلى السعودية حيث يقيم الآن، له دراسات في الأدب والفكر الإسلامي وعدة دواوين شعرية، انظر مدرسة بدر وشعراؤها: ٦٣-٦٤.

(٢) الأرض المباركة: ١٤٩.

الأمم، ويواصل الأقصى نداءه، إلاّ أنّ الألم والدموع تغلبه. ويد العدو الآثمة تسلط معاولها لتدكّ أركانه وتدمر فيه تاريخ الإسلام المجيد.

ويلتقي الشاعر محيي الدين عطية[1] مع الشعراء السابقين في وصف ملامح المأساة، إذ يقول في رسالة يوجهها إلى الحجيج[2]:

يا حاديَ العيسِ هل في الركبِ مستمعُ
لزفرةٍ في حنايا الصدرِ تصطرعُ

ويمضي الشاعر بعد هذه المقدمة -التي نسمع فيها صوت الشاعر الجاهلي حين وقف واستوقف- فيوجه دموعاً حارة من مكة إلى بيت المقدس في موسم الحج، حيث الحجاج يرفعون أكفهم بالدعاء إلى ربهم، وقد اختلطت مشاعر الفرحة والحزن، الفرحة بملايين المسلمين المجتمعين من أرجاء الأرض، والحزن لعجزهم عن إنقاذ مقدساهم. فيقول[3]:

هذا هو المسجدُ الأقصى ويا لهفي ... تبكي به الصلواتُ الخمسُ والجمعُ
يا مَنْ تطوفُ وتسعى رُبَّ تذكرةٍ ... تُذكي بجنبيْكَ مثل النارِ تصطرعُ
كم جاء يسألني الأبناءُ قصتَنا ... ويلحفون وفي أبصارِهم هَلَعُ

---

(١) محيي الدين عطية محمد: شاعر وكاتب إسلامي، ولد في القاهرة عام ١٩٣٤م، ودرس حتى حصل على البكالوريوس والدبلوم في التجارة وعمل ناشراً للكتب والدراسات المختلفة في دار البحوث العلمية في الكويت، له عدة دراسات ودواوين شعرية. انظر مختارات من الشعر الحديث: ١٠٦.

(٢) شعراء الدعوة الإسلامية: ٦/٢١.

(٣) المرجع السابق: ٦/٢١-٢٢.

الدينُ يُهدَر والأعراضُ قد سُلِبَتْ ولا يُرى في سجلِّ الغدرِ مرتدعُ
ساقوا العجائزَ والأطفالَ مغنمــةً ومن أبي الضَيمَ فالأكفانُ تبتلــعُ

إن الأقصى السليب يفتقد المصلين، ويذكر الشاعر الحجيج بمأساة إخـــوانهم في الأرض المقدسة. ويجيب السائل عن مأساهم فيقول: إن الدين قـــد أهـــين، والحرمات استبيحت. فالعدو الغادر لا يجد من يصده؛ فلم يتورع عـــن إلحـــاق الأذى حتى بالعجائز والأطفال، وإذا ما حاولوا المقاومة ((فالأكفان تبتلع)).

ويمضي الشاعر في ذكر الجرائم التي تقترفها الأيدي الآثمة فيعلن[1]:

إن المساجدَ قد دُكّــتْ مآذنُهـــا وقام في أرضِها للفســقِ مجتمــعُ
إن المحاريبَ أضحتْ بعد نكبتِها مخادعاً لفنـــون العشـــقِ تتّســعُ
إن الملايينَ منّا ضـــمّهم كفـــنٌ من الخيامِ فـــلا رِيٌّ ولا شـــبَعُ

لم تسلم المساجد ومحاريبها من عربدة المجرمين؛ فدكّوا مآذنها وعاثوا فيهـــا فساداً وإفساداً، وشرَّدوا أهل البلاد واضطهدوهم، ولم يجدوا في ذلك ريّـــاً ولا امتلاءً لنهمهم الحاقد على الإسلام وأهله.

* * *

أما الفكرة الثانية التي دارت حولها القصائد في هذا الموضوع فهي: الـــدعوة إلى الجهاد لتحرير الديار، والتحريض على الصمود في وجـــه العـــدو الغاشـــم، والتفاؤل بغدٍ مشرق. فقوة الإيمان وعزة المؤمن تأبيان له القنوط، فلا بد للّيل أن ينجلي وينبثق الفجر، ويملأ الدنيا بالأنوار. فأمتنا باقٍ فيها الخير إلى يوم القيامة.

(١) شعراء الدعوة الإسلامية: ٢٣/٦.

ومن هنا نجد الشاعر يوسف العظم بعد الظلال القاتمة التي غمرت قصيدته[١] يستثير مواطن القوة في الأمة، ويذكّرها بماضيها المجيد الزاخر بالانتصارات التي سجلها التاريخ في بيض صفحاته. فصيحة ((الله أكبر)) ((كم دانت لها أمم!)) وكم من أرض رُفع فيها لواء الإسلام يوم كان المسلم المجاهد يعتصم بحبل الله. والقدس تبحث عن صلاح الدين؛ ليفتك باليهود في حطين كما قضى على الصليبيين في تلك المعركة المجيدة. ثم يؤكد الشاعر أن المسلم سيظل على العهد؛ ولن ينسى فلسطين. بل سيترقب اليوم الذي ينتصر فيه لكرامته ومقدساته، ويقضي على الطواغيت. يقول[٢]:

يا ويحَ قومي قد لانَتْ قناتُهُمُ ... وقد وعى الكونُ والتاريخُ عزَّهُمُ
إلى متى نرتضي ذُلاًّ يُؤرِّقُنا ... فلينطقِ السيفُ وليهتفْ بنا القلَمُ
لتستجيب قلوبٌ بالهدى خفقتْ ... ((اللهُ أكبرُ)) كم دانت لها أمَمُ!
وكم رفعنا منارات وألويةً ... وكم زحفنا بحبلِ الله نعتصمُ
يا قدسُ أين صلاحُ الدينِ يبعثُها ... حطينَ تفتكُ بالباغين ويلَهُمُ؟
إنّا على العهدِ لن ننساكِ فانتظري ... يوماً يخرّ له الطاغوتُ والصنمُ

وفي القصيدة الثانية[٣] للشاعر نجد أنه بعد عرضه لصور المحنة يعلو صوت الشاعر في نداء من ((فتى ثائر يذوب جراحاً))[٤]:

(١) شعراء الدعوة الإسلامية: ٨٢.

(٢) في رحاب الأقصى: ٦٨.

(٣) المرجع السابق ص٨٣.

(٤) في رحاب الأقصى: ٥٣.

وفتى ثائرٌ يذوب جراحاً هجر النومُ والنعاسُ جفونَهْ
من لظى جرحه يصوغُ نداءً علّ قوماً تخاذلوا يسمعونَهْ
يا حماةَ الأقصى الجريح أفيقوا أين أقصاكُم الذي تحمونَهْ؟!

وحين نمضي مع الشاعر في قصيدته نراه يعبر من الحاضر المرير إلى الماضي الوضيء ليربط بينهما معاً، ويراهما كُلاً متَّصلاً، خلاف ما يراه المهزومون، بأنه ماضٍ غابر انقطعت بيننا وبينه الأسباب(١).

فها هو ذا يقول(٢):

هزَّني الشوقُ للكتائبِ تُعلي رايةَ الفتحِ في الأكفِّ الأمينهْ
تنهلُ المجدَ عزةً وفخاراً من سنا مكة ونورِ المدينهْ
والرسولُ العظيمُ في صحبه الغُرّ فداءً وهيبةً وسكينهْ
قاد جندَ الرحمنِ عزماً وحزماً وسيوفاً بتّارةً مسنونهْ
لَكَأني بمسجدِ القدس يدعو وينادي أما سمعتم أنينهْ؟
أين سعدٌ وخالدٌ والمثنى؟ كلهم بالدماءِ ينصرُ دينهْ
والسرايا يقودها ابنُ زياد ركبَ البحرَ لا يهاب سفينهْ
وصلاحٌ كغرّةِ الصبحِ يرجو أن تعيدوا وتبعثوا حطّينهْ

فهو يستحضر في ذهنه صورة لكتائب الجهاد المؤمنة ترفع راية الفتح حريصة عليها أمينة، ويرسم أمامنا هذه الصورة بكل دقائقها وتفاصيلها، فإذا بالخطوط العريضة لها تنبيء أن هؤلاء البررة إنما يستمدّون عزيمتهم وقوتهم من سنا النور

---

(١) انظر في الأدب الإسلامي المعاصر دراسة وتطبيق: ١١٧.

(٢) في رحاب الأقصى: ٥٤-٥٥.

الإلهي الذي انبثق في هذه الأرض الطاهرة فملأ القلوب يقيناً وغمرها الإيمان وغذاها بالتفاني في سبيل الله، وهم في كل ذلك ينظرون إلى غزوات الرسول يقدم فيها جنده يشحذ عزائمهم ويشد أزرهم. وسرعان ما تتلاشى خطـوط هذه الصورة الزاهية حين يصحو الشاعر على حقيقة واقع الأمة، ينبّهه أنـين الأقصى الواقع في قبضة الأعداء، ويتلفت من حوله فلا يجد أولئكم الأبطـال الصناديد الذين سطروا بدمائهم سيرة المجد والعلا. واأسفاه لقد اختفت تلك الغزوات والسرايا وغاب أعلامها الغرّ الميامين الذين حملوا النور شرقاً وغرباً ومدّوا الديار الإسلامية من أقصى خراسان إلى قلب أوربا في الأندلس وأرسوا أركان العقيدة في معارك فاصلة كحطين وحملة طارق، فمن للأقصى ينقذه من محنته الجديدة؟!.

أما الشاعر محمد المنتصر الريسوني فبعد أن عرض صورة الحاضر الأليم وأثره في نفسه نجده برغم ذلك يرى بيارق النصر تخفق من بعيد، حين يهبّ جند محمد للفتح بتأييد الله عزّ وجل. يقول[1]:

فلسطينُ ثأرٌ أطلق السخط فارساً يصوغُ الأماني من شفارِ الصوارمِ
وأقسمَ أن يُرسي بيارقَ نصـرِهِ على جثثِ القتلى وتلِّ الجماجمِ
سيفتحُها بـالله جنـدُ مُحمـدٍ بناةُ المعالي الغرّ، هـوجُ العـزائمِ

وبعد أن عرض الشاعر صالح الجيتاوي ألواناً من المآسي التي يعيشها أهـل فلسطين، يعلن أن الطريق الوحيد إلى النصر إنما يكون بالعودة إلى الله، والأخـذ

---

(١) صحيفة النور: ١٥- ذي القعدة ١٤٠٤هـ، ص٤.

بأسباب النصر. ويشير إشارةً موجزةً إلى التاريخ ويستجلي حقيقة الانتصارات الإسلامية العظيمة، إذ لا عزة إلا بالإيمان. فيقول[١]:

يا أمَّتي هل لهذا الليلِ آخرةٌ وهل لهذا الأسى والذلِّ فرقانُ
عُودي إلى الله عَوْداً مخلصاً ودعي مواردَ الكفرِ، إن الكفرَ خسرانُ
ومحِّصي الدرسَ من تاريخنا تجدي (العزُّ ما كانَ إلا كانَ إيمانُ)

وفي قصيدة ((رسالة إلى الحجيج)) -التي أودعها الشاعر محيي الدين عطية لوحات دامية من المعاناة التي يحياها أبناء الأرض المحتلة- يطلق الشاعر صيحةً مدويةً من أعماق قلبه المكتوي بنار الحزن والأسى. فيقول[٢]:

هيّا ابدؤوا ثورةَ الأحرارِ وانطلقوا إلى المسيرةِ إنّا كلّنا تَبَعُ
ماذا لوِ انتفضتْ أفواجُكم حِمَماً تُجدِّدُ العهدَ والنيرانُ تندلِعُ
يا ربِّ هذي قلوبُ المسلمين أتتْ إلى حياضكَ ظمأى كلُّها طمَعُ
فلا تخيِّبْ رجاءً أنت باعثُه ولا تنكّسْ لواءً فيك يرتفِعُ
واغفر هناتي فعذري أن لي قلماً يقتاتُ قلبي ومن عينيَّ يرتضِعُ
أُزجي قريضي من الأعماقِ أنزفُه حتى أرى الخِنجرَ المسمومَ يقتلِعُ

يستنهض الشاعر همم أبناء الأمة، ويشحذ عزائمهم، ويثير حفيظتهم كي لا يستكينوا إلى الراحة والدعة. بل ينتفضوا في وجه الطغاة ليدفعوا هذا البلاء الذي داهمهم، ويهبّوا بعَددهم وعُددهم لإنقاذ فلسطين من الفئة الباغية. ويبتهل شاعرنا إلى الله بأن يروي قلوب المسلمين الصادية ولا يخيب رجاءهم، ويمنّ عليهم

---

(١) صدى الصحراء: ٩٣.

(٢) شعراء الدعوة: ٦/٩٠.

بالنصر، ويرفع لواءهم، ويدعو الله أن يغفر ذنوبه. ويعتذر إليه بأن قلمه يمتاح مداده من قلبه النازف، وعينه الدامعة. فيزجي القريض إلى أن يأذن رب العالمين باقتلاع الخنجر المسموم المغروس في صدر الأمة.

وعلى هذا النحو كان شعر المعاناة مركّزاً في معظمه على الوصف المؤثر للمأساة، ولمظاهر الإرهاب الصهيوني، مستثيراً بذلك الحميّة ومستنهضاً الهمم ليوم الثأر.

وإذا أجلنا النظر في طريقة تناول الشعراء لهذا الموضوع؛ نلفي بعضهم يكتفي بوصف مظاهر المعاناة، والإشارة إلى الممارسات التعسفية للعدو. في حين يقارن آخرون بين الماضي المجيد والحاضر الأليم. ويركّز بعضهم الآخر على صدى المأساة وأثرها النفسي ومعاناته الذاتية. ولا شك أن في ذلك كله عطاءات شعورية ورصيداً معنوياً ثائراً تحتاجه الأمة زاداً في طريقها نحو الغد الحرّ المشرق.

المبحث الثالث

مأساة النزوح ومشاعر الحنين والغربة

تمخضت هزيمة حزيران ١٩٦٧م عن نتائج خطيرة على القضـــية الفلســـطينية منها: نزوح أعداد كبيرة من الفلسطينيين من أراضيهم. وهذا يمثل النزوح الثـــاني في مدى عشرين عاماً، فقد نزح من بلغ عددهم (١,٣١٧,٧٤٩) نسمة بعـــد نكبـــة ١٩٤٨م، وبعد هزيمة حزيران ١٩٦٧م نزح نحو (١,٨٥٨,٠٠٠)[١] نسمة هرباً من الإرهاب الصهيوني، ولينجوا بأهلهم من المذابح ونسف البيوت والتنكيل والتقتيـــل. فخرجت هذه الجموع التي ساقها الرعب والاضطهاد هائمةً على وجهها، وسكنت القرى والمدن والأراضي المجاورة ليس معها ما يكفيها الكفاف. وعاشت السنين تجتر ذكرياتها العزيزة في مرابع الوطن. وعاش عدد كبير من هؤلاء النازحين يحيون ظروفاً معيشيةً قاسيةً، في خيامٍ مهلهلةٍ ممزقةٍ أو أكواخ بائسة غـــير صـــحية أو في المغـــاور والكهوف. أما وكالة الغوث الدولية -التي أوكل إليها مهمة الإشراف على أحوال اللاجئين- فلم تقدم لأولئك اللاجئين ما يقيم أودهم.

هذه الصورة القاتمة تزداد حلكةً عندما نعلم أن هؤلاء اللاجئين قد خلفـــوا ممتلكاتهم وثرواتهم يتمتع بها الغاصبون. إنه أمر يَشْدَهُ العقل ويذهب الصواب أن تتضور جوعاً والغاصب يتمتع بما تملك أمام ناظريك فلا تملك له دفعاً[٢].

---

(١) لا تشمل هذه الأرقام النازحين الذين أعالوا أنفسهم بعملهم، ونسبتهم حسب إحصـــاءات الأمم المتحدة ٢٠% من مجموع النازحين، انظر أطلس الصراع العربي الصهيوني: ٤٨.

(٢) انظر المرجع والصفحة نفسها، وانظر القضية الفلسطينية: ١١٦-١٢٣.

ونتيجة لما تقدم اهتزت النفوس الشاعرة تصور مأساة أولئك النازحين، وتصرخ في الضمائر لتبعث روح التوثّب والثورة والصمود لتحقيق الآمال في غدٍ مشرقٍ وحياةٍ حرةٍ كريمةٍ.

وفي مقدمة الشعراء الذين وقفوا طويلاً على هذا الجرح الشاعر أحمد محمد الصديق، فقال[١]:

من وجهِكَ تطْلعُ أقماري ... وجمالُك مبعثُ أشعاري
يا وطني يا عينَ الدنيا ... يا هاجسَ ليلي ونهاري
فتشتُ كنوزَ الأرضِ فما ... ألفيتُ بديلاً عن داري
أشواقي أسرابُ طيورٍ ... عائدةٍ تحت الأمطارِ
وحنيني موقدُ أحزانٍ ... حرّى تتوهجُ كالنارِ

يوجه الشاعر حديثه إلى وطنه الذي أمضّه الحنين إليه، فيراه عين الدنيا وهاجسه ليل نهار. فليس للوطن بديل أغلى عند الإنسان.

ثم يشرع الشاعر في ذكر مواضع من بلاده (حيفا واللد وبئر السبع والقدس والأقصى) حيث فتحت سيوف الأجداد هذه المواضع، وحيث الآيات كتبت بالدماء الزكية التي قاتلت الفُجَّار هناك، فسطرت أخبارها في قلب الشمس، وعانقت أنفاس الشهداء الطاهرة؛ لتوقد نار الثورة في قلوب الأحرار. يقول[٢]:

---

(١) قادمون مع الفجر: ٧١.

(٢) المرجع والصفحة نفسها.

حيفـــا واللـــدّ وبئــرُ السبْـــــ ـــبعِ وكـــلُّ ســفوحِ الأغـــوارِ
والقدسُ ومســـجدُها الأقصـــى وســـيوفُ جـــدودي الأخيـــارِ
وروائــــع آيـــاتٍ كُتبـــتْ بـــدمٍ قدســـيٍّ الأنــــوارِ
في قلـــبِ الشـــمسِ مســـطرةٌ تتحـــدى ليــــلَ الفجـــارِ
وتعــــانق أنفـــاسَ الشــــهدا ءِ تغـــذّي عـــزمَ الأحـــرارِ

ويمضي الشاعر في قصيدة أخرى يصور معاناته في الغربة فيقول(١):

كانوا وكـــان الحـــبُّ والأمـــلُ وتفرقـــوا فالـــدمعُ ينـــهملُ
بالأمسِ ولّــوْا عـــن مـــرابعِهم وتشـــعبتْ في الغربـــةِ الســـبلُ
كـــلُّ الأحبـــةِ هـــاجروا وأنـــا وحـــدي هنـــا تنتـــابُني العلـــلُ
غصصُ التنائي حرّقت كبـــدي وكأنهـــا في مهجـــتي شُـــعَلُ
واحـــرَّ قلـــبي بعـــد غيبـــتِهم في أي أرضٍ يـــا تُـــرى نزلـــوا؟
أطيـــافُهم في البيـــتِ تصـــحبُني وتخفّـــي النظـــراتُ والمقـــلُ
وأُحسُّـــهم في كـــلِ زاويـــةٍ ضمّت خيـــالاتِ الأُلى رحلـــوا
وأشـــمّ أثوابـــاً لهـــم تُركـــت مـــن أدمعـــي في طيِّهـــا بلـــلُ

يبث الشاعر شكواه الموجعة من الوحدة والاغتراب، بعد أن تفرق الأحبة ((وتشعبت في الغربة السبل)) فهو وحيد تنتابه العلل، ويتجرع غصص التنائي التي تحرق كبده، وتشعل الحنين في مهجته. ويتساءل في حيرة وحسرة ((في أي أرض يا ترى نزلوا؟)) وهو يحيا مع أطيافهم، ويحس بوجودهم معه في كل زاوية مما حوله. ويعزّي نفسه بلثم أثوابهم فتبلّلها دموع الشوق إلى لقياهم.

---

(١) المرجع نفسه: ٦٣.

وتُسلمه هذه المشاعر إلى شيء من اليأس، فيرى الأحلام الخضراء وقد اعتراها الذبول، وذوى الزهر على أغصانه، ويد الشاعر ترتعش في وهن، فالحزن ذهب بشبابه.

ثم يبدأ في عرض صورةٍ أليمةٍ لذكرى ديار الأحبة التي تُركت مقفرةً، فالموقد سهَّدَه طولُ النوى والصمت والخوف، وشجيرة الزيتون ذبلت، وملاعب الأطفال موحشة وكذا السفح والجبل. فيقول[1]:

أحلامي الخضـــراءُ قـــد ذبلـــتْ ... والروضُ يلوي زهـــرَه الأجـــلُ
ويداي ترتعشـــان مـــن وهـــنٍ ... وشـــبابي المحـــزون يكتـــهلُ
الموقـــدُ الوســـنانُ ســـهّده ... طولُ النّوى والصمتُ والوَجَـــلُ
وشـــجيرةُ الزيتـــون مطرقـــةٌ ... والمقعـــدُ المهجـــورُ يبتـــهلُ
وملاعـــبُ الأطفـــالِ موحشـــةٌ ... من بَعـــدِهم والســـفحُ والجبـــلُ

ويأتي العيد فيعزف فيه الشاعر هذا اللحن الحزين قائلاً[2]:

للهِ كم عـــادني هـــمٌّ وتســـهيدُ ... فأعولَ الجُرحُ إذ أقبلتَ يا عيـــدُ
وكيف يَسعدُ إنســـانٌ بغربتِـــه ... يثنيه عن أهلِه ظلـــمٌ وتشـــريدُ؟!

لا يرى الشاعر للفرحة بالعيد مكاناً في قلبه، وأنّى له الفرحة وهو بعيد عن أهله ووطنه؟.

ثم يبدأ الشاعر في عرض لوحات من مأساة وطنه الذي دنس اليهود طهره،

---

(١) قادمون مع الفجر: ٦٣-٦٤.

(٢) نداء الحق: ٢٣٣.

وبثّوا الفزع والخوف في قلوب الآمنين، وحوّلوا عيشهم إلى بؤس وتنكيد. فهجروا بلادهم وذبلت زروعهم. ويتساءل في حسرة أي عيد يحسُّ به المشردون في الخيام؟ يقول[١]:

أين الربوعُ التي شعّتْ منائرُها   طهراً فدنّسها رجسٌ وتهويدُ؟!
والآمنونَ صغارُ الحيّ -وا لَهَفي-   أنحى على عشِّهم بؤسٌ وتنكيدُ
فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم   مهجورةً صوّحتْ فيها الأماليدُ
تُرى بأيّ خيامٍ سوف يشملُهم   يا عيدُ منك ومن آلائك الجودُ؟
وهل تراهم كما كانوا ذوي مرحٍ   لهم مع العيدِ والحلوى مواعيدُ؟

وبعد أن عرض هذه الصورة الأليمة للواقع البائس، نجده يعرض -في المقابل- صورة الماضي السعيد في مرابع الوطن ومجالي الطفولة والصبا حيث المرح والحلوى والأفراح والزغاريد في العيد، وحيث الأناشيد تحدو الأراجيح، وتلبس الغيد الحلل الجميلة. ويعود للتساؤل بتحسر: ((هل تُرى بدلت أثوابها الغيد؟)). يقول[٢]:

وأين موكبُ أفراحٍ تظلّلهُ   حدائقٌ لعلعتْ فيها الزغاريدُ؟
ترنّح الزهرُ تيهاً مثلما رقصتْ   فيها الأراجيحُ تحدوها الأناشيدُ
وترفل الغيد كالريحان في حلل   فهل ترى بدلت أثوابها الغيد؟

وفيما يأتي من أبيات يبثّ الشاعر آلامه من خلال مشاعر الأم، إذ يقول[٣]:

---

(١) نداء الحق: ٢٣٣.

(٢) المرجع السابق: ٢٣٣-٢٣٤.

(٣) نداء الحق: ٢٣٤.

والأمُّ كيف تراها وهي ساهرةٌ من لوعةِ الروحِ تنساب المواجيدُ
ترنو إلى حيثُ كان الشملُ ملتئماً بالأمسِ يجمعُه حبٌّ وتوحيدُ
القلبُ يذهب أشتاتاً موزعةً والفكرُ من وطأةِ الأرزاء مكدودُ

إن مشاعر الأسى والحنين إلى الديار والأحباب تحرق هذه الأم الملتاعة؛ فتهيج ذكرى الشمل الملتئم، يجمعه الحب والتلاقي، أما اليوم فالشمل مشتت، وكذا القلب، والفكر مكدود تحت وطأة الأرزاء.

وفي قصيدة ((قالوا هو العيد)) عزف الشاعر لحناً حزيناً آخر. فقال[١]:

قالوا هو العيدُ قد هلّت بشائرُهُ وأشرقتْ كالسنا الهادي شعائرُهُ

وبعد هذا المطلع المتفائل يمضي الشاعر في تصوير المأساة[٢]:

حللتَ يا عيدُ والعشُّ الحبيبُ كما عهدتَه طللاً تبكي هواجرُهُ
والشملُ كالريشةِ الحيرى يبعثرُهُ صرفُ النّوى والعوادي لا تغادرُهُ
تشعبتْ في بلادِ الله غربتُهُ والليلُ كم غوّرت نجماً دياجرُهُ
من كان بالشاةِ قد ضحّى ففديتُنا دماءُ شعبٍ بها سالت مجازرُهُ
يا عيدُ والقدسُ آلامٌ مجلجلةٌ والثأر تنفثُ بركاناً زوافرُهُ
والأرضُ تجترّ في أحشائها حِمَما ما عاد للحرِّ فيها ما يحاذرُهُ
بالصدرِ يستقبل النيرانَ مقتحماً لا يرهبُ الموتَ إن دارتْ دوائرُهُ

نلمس في الأبيات ارتباط الشاعر العاطفي بتلك البلاد التي قضى فيها طفولته

(١) جراح وكلمات: ٣١.
(٢) المرجع نفسه: ٣٢.

وصباه. فقد أتى العيد وبلده الحبيب ما زال طللاً تبعث معالمه على البكاء والأسى. وتبدّد الشمل كريشة حيرى في مهب رياح النّوى. وتشتّت أهل البلاد مغتربين في نواحي الأرض، ولا نجم يضيء ليلهم الطويل. وتحرق مشاعر الألم والحنين إلى القدس شاعرنا، فيهتف هذا الهتاف الشجيّ: أيها العيد أتيت والقدس مترعة بالآلام، ويدعو أبناءه للثأر كالبركان. فالأرض تمور بالحمم جراء ما يحدث على ظهرها من مآس دامية، والأحرار يتصدون للنيران في إصرار وصمود، ولا يعرف الخوف طريقه إلى قلوبهم.

وفي قصيدة رابعة للشاعر أحمد محمد الصديق وفي أول كلمة ينقل إلينا الشاعر حزنه العميق على وطنه الغالي فيقول(١):

يا ثرانا الحبيب هِجتَ شجوني ... ودعاني أريجُك الفواحُ
موئلُ الطهرِ والقداسةِ ماذا؟! ... كيف تكسو سماءك الأتراحُ؟
كيف تشكو فيك المساجدُ هجراً ... وهواناً تشقى به الأرواحُ؟
المحاريبُ تستغيثُ وقد غا ... مت رؤاها وأطفىء المصباحُ

هذه هي الأوضاع في وطنه موئل الطهر والقداسة. فالسماء ملبّدة بالأحزان، والمساجد مهجورة تشكو الهوان، والمحاريب تترقب من ينقذها من دنس العدو.

ثم يصور الشاعر مأساة اللجوء والشتات في نواحي الأرض قائلاً(٢):

تلك أوطاننا يعيث بها الطغـ ... ـيانُ ظلماً وحقّنا مستباحُ
أهلُها ويح أهلِها كالسبايا ... في فلاة يُغدى بهم ويُراحُ

(١) نداء الحق: ٢٤٧.

(٢) المرجع السابق: ٢٤٨.

مِزَقٌ في الخيـامِ تعـدو عليهـا كل ريحٍ يهـيجُ فيهـا النبـاحُ
واليتـامى وراء كـل شـهيدٍ صرخاتٌ في الضّيم لا ترتـاحُ
فهي بين الخيـام تغلـي وللبُـر كانِ عصفٌ وللّهيب اكتسـاحُ

فالشاعر من خلال هذه الأبيات يرسم لنا لوحة دامية للمعاناة والاضطهاد الذي يعانيه أهل بلاده. حيث يعيث الطغاة فيها فساداً وإفساداً، وتستباح الحقوق، وأهل البلاد أسرى لا حول لهم ولا قوة. يسكنون الخيام ويعانون اليتم والضيم والأسى، ويقاسون من لهيب الأحزان القاسية.

وفي مقابل هذه اللوحات الأليمة التي رسمها الشاعر للواقع البائس، نجده يبث روح التفاؤل والأمل في النفوس في القصيدة الأولى(١):

إني أتحسّـسُ في صـدري طعنـاتِ الخصـمِ الغـدارِ
فأرشّ علـى سـفحِ الـوادي قطـراتِ اللـهبِ المـوّارِ
كـي تنبـتَ في الفجـرِ الآتي بـالحقِّ أكاليـلُ الغـارِ
وتقـود الشـعبَ لغايتـه وتفجّـرَ بركـانَ الثّـارِ
لـن تـذهبَ أيّـامي بَـدَداً هبّـي يـا نقمـةَ إعصـاري
لـن تـذبلَ أحلامـي أبـداً بالنصـرِ سـتَعقدُ أثمـاري

لا يستسلم الشاعر لليأس ولا يتردّى في مهاويه، وإنما يجعل من معاناته دافعاً للثورة ذات اللهب الموار. فينظر إلى الفجر القادم في أمل وتفاؤل، ولـن تـذبل الأحلام بل ستثمر عناقيد النصر المؤزر.

---

(١) قادمون مع الفجر: ٧١-٧٢.

وفي القصيدة الثانية ينظر النظرة المتفائلة ذاتها، قائلاً[١]:

الحـــرُّ لا ينســـى وشـــائجَه ... أبداً إذا ما النـــاسُ قـــد غفلـــوا
وطنُ الفتى أغلـــى وإن عـــذبتْ ... في غـــيرهِ الأمـــواهُ والظلـــلُ
وإذا دعـــا الـــداعي لنصـــرته ... ألفيتَـــه كـــالبرقِ يمتثـــلُ

فلا يدع الشاعر الحزن واليأس يتغلب عليه، بل تبدأ صورة الحزن بالتلاشي لتأخذ طابعاً إيجابياً، وتشير إلى التحرك الإيجابي وتظهر بوادر الـدعوة لمسـيرة التحرير. فيرفض الشاعر من أعماقه أن تسرق أرضه أو أن يبقى مشرّداً، ويؤكد تصميمه على الرجوع إلى أرضه. ويردد عبارات ثائرة تعصف بـه لتدفعـه إلى المضيّ نحو أرضه في عزم وثورة وتصميم.

والعزم والتصميم نفسه نجده لدى الشاعر في قصيدته الثالثة. إذ يقول[٢]:

وإنما يقهـــر الطغيـــانَ معتصـــمٌ ... بـــالله منـــتقمٌ للهِ صـــنديدُ
وليس يعمرُ بنيـــانٌ لنـــا أبـــداً ... ما لم يكن فيه للأخلاقِ تشـــييدُ
نستقبلُ الأمر في عزمٍ وفي ثقـــةٍ ... والجندُ في ساحةِ الرحمنِ محشـــودُ
هناك تعلـــو بـــدينِ الله رايتُنـــا ... حقاً ويصـــحبُنا عـــزٌ وتمجيـــدُ

فالعودة إلى الإسلام والاعتصام بعروة الإيمان الوثيقة هو السـبيل إلى قهـر الطغيان، والعزم والثقة بالله والجهاد في سبيله هي عنوان الفلاح. فتعلو راية الحق ويعود لهذه الأمة سابق عزها ومجدها.

(١) قادمون مع الفجر: ٦٥.

(٢) نداء الحق: ٢٣٦.

وفي القصيدة الأخيرة للشاعر ينظر النظرة المتفائلة نفسها، ويعزف اللحن الواعد ذاته. فيقول[١]:

ليت شعري هل نحن كالقدر المحـ ـتومِ بِتْنـا وكـالرّدى نجتـاحُ
في انتفاضٍ تصميمُه أذهل الأعْـ ـداء طُرّاً وحارَ فيه الكفاحُ
لا نبـالي وإن تلاطـمَ بحـرٌ من دِمانا وهيض منّا الجناحُ
فاعزفي يا بنادقُ النّصرَ حتّى يتجلّى في أرضِنا الإصباحُ

بقوة وعنف يندفع الشاعر لإعطائنا صورة المسلم الثائر، الأمل المنشود للتخلص من الأعداء في انتفاض وإباء وتصميم. فتعزف البنادق ألحان النصر ((ويتجلى في أرضنا الإصباح)).

والشاعر أحمد فرح عقيلان يعبر عن مأساة اللجوء ومشاعر الحنين، في قصيدته ((صورة من المخيم)) فيقول[٢]:

ثكلتُ المنى ودفنتُ الحبيبا وأصبحتُ ما بين قومي غريبا
وصوّح روضُ الشبابِ النضيرِ وحقلُ الأماني أمسى جديبا
وعاد النشيدُ نشيجاً حزينا ولحنُ العنادلِ أمسى نعيبا
فكم غادةٍ كابتسام الجمالِ تكفكفُ دمعاً أبيّاً مهيبا
وكم من يتيم ينادي أباه وهيهات يا ويحه أن يجيبا
وكم مقلةٍ كسوادِ الدّجى تغطي سوادَ الليالي نحيبا
وكم جائعٍ بات يطوي الحشا وقد عاش بالأمسِ عيشاً رحيبا

(١) نداء الحق: ٢٤٩.

(٢) رسالة إلى ليلى: ٨١.

وتلك الخيـــامُ بهـــا المســـلماتُ طَوين على الهمّ جســـماً ســـليبا
فكـــم خيمـــةٍ لـــو تأملتَهـــا رأيـــت المخبّـــأَ قـــبراً رهيبـــا

ليس هناك شيء يحزّ في النفس أشد من مشاعر الغربة؛ فيشكو الشاعر من ضياع أمانيه وتولي شبابه النضير، فتحوّل صوت النشيد إلى بكاء حزين، وصار غناء العندليب كنعيب البوم. ويشرع الشاعر في رسم لوحات من المعاناة الدامية، فها هنّ أولاء الفتيات يذرفن الدموع الأبيّة، وها هم أولاء اليتامى ينادون آباءهم ولا من مجيب، والعيون السوداء لا تفارقها الدموع، والجياع يطويهم الجوع بعد العيش الرغيد في الوطن السليب. ويصور الشاعر حال المسلمات داخل الخيام وقد سيطرت عليهن الهموم داخل الخيمة بل القبر الرهيب.

ولكن الشاعر مع ذلك يتمسك بأهداب الأمل، ويستنهض همم الإخوة ليهبوا معه للفداء. فبغير الجهاد والفداء لا تحين العودة، يقول(١):

أخي لا تنم بعد هـــذا الضـــياع وأقبِل كليـــث يـــروم الوثوبـــا
أخي لن نعـــود بغـــيرِ الفـــداء فكن عاملاً صـــامتاً لا خطيبـــا

ويركّز الشاعر فيما يأتي من أبيات على مشاعر الإباء والصمود والعزم التي تغلي في نفوس اللاجئين. إذ يقول(٢):

زعموا بأنّـــا في الخيـــام بَلينـــا وتغـــيرتْ أحوالُنـــا ونَســـينا
وتوهمـــوا أن المخـــيّمَ خطـــةٌ ستُشيعُ إحســـاسَ الهزيمـــةِ فينـــا

---

(١) رسالة إلى ليلى: ٨٤.

(٢) جرح الإباء: ٥٢.

ومضَوا يبثـون الدعايــةَ أننــا ... في حمأةِ الفقــرِ الشــديدِ فَنينـا
خابوا وربِّ البيتِ إنّــا هاهُنــا ... مات العــدوّ بغيظِــه وحَيينــا
ما زادنــا التشــريدُ إلا عزمــةً ... وعقيــدةً وبطولــةً ويقينــا
إنا على رغمِ الشــدائدِ جــوهرٌ ... لم يُرخِص التشريدُ مــن غالينــا

يعمّق الشاعر في أذهاننا صورة المغترب الصامد رغم ما يحوطه من الأسى وشظف العيش، فمع كل المعاناة التي يحياها في المخيم إلا أنه ما زال عازماً على العودة. والعقيدة تقوّي مشاعر البطولة واليقين بالنصر، فهذا هو جوهره الغالي الذي لا يضعفه التشتت والاغتراب.

ثم يستلهم الشاعر أمجاد الماضي يوم أن كان المسلمون متمسكين بدينهم، فدانت لهم الأمم. ويذكّر الشاعر أبناء الأمة بانتصارات القادة الأفذاذ، أمثال: عماد الدين زنكي فاتح الرها وصلاح الدين بطل حطين. علّهم يحذون حذوهم متضامنين حول رباط الأخوة في الله، وحينها يتحقق النصر. قال[١]:

إســلامنا لا يقبــلُ استســلامَنا ... اسأل به كســرى وقســطنطينا
واسأل عماد الدين عن حصن الرّها ... واسأل صلاحَ الدين عن حطينــا
في مكة الغــراء رمــزُ إخائِنــا ... أبــداً ينادينــا لِمــا يُحيينــا
لا نصــرَ إلا بالتضــامنِ مبــدأً ... صــدقاً وإلا بالحنيفــةِ دِينــا

ومن قصيدة ((عيد اللاجئ)) للشاعر نفسه، نلمس أحوال النازحين وما يقاسونه من واقع مؤلم. حيث يقول[٢]:

(١) جرح الإباء: ٥٤.
(٢) المرجع السابق: ٥٥.

أيّ عيدٍ وقد ثكلتُ بلادي ... وفلسطينُ في ثيابِ الحِدادِ؟
أيّ عيدٍ وألفُ ألفِ شريدٍ ... في خيامٍ مصبوغةٍ بالسوادِ؟
أيّ عيدٍ وبين أحشاءِ قومي ... سرطانٌ يفورُ بالأحقادِ؟
أيّ عيدٍ وللدماءِ لهيبٌ ... يوقدُ الثأرَ أيّما إيقادِ؟
والربوعُ المقدساتُ الغوالي ... دنّستْها شراذمُ الأوغادِ
والعدوُّ الوضيعُ يسخر منّي ... ويدوسُ الرفيعَ من أمجادي

هذه الصورة المؤلمة التي يرسم خطوطها الشاعر تنبئ بالأسى العميق والألم الممضّ. وهذه التساؤلات الحيرى تعمّق الشعور باللوعة والحسرة: فأي عيد نفرح به وفلسطين ما تزال تلبس ثوب الحداد؟ وأي عيد والآلاف مشردة في الخيام السوداء؟ وأي عيد والعدو الحاقد يجثم على الصدور، ودم القتلى يلهب نار الثأر في النفوس، والمقدسات يدنس العدو طهرها، ويهين الأمجاد على الأرض المقدسة؟.

ويعلن الشاعر محمد صيام صمود ساكني الخيام من النازحين مع كل ما يواجهونه من مشاق. فيقول(١):

من خيمتي تلك التي ... صمدتْ على مرّ السنين
كالماردِ الجبّار في ... وجه الحوادث أجمعين
وبنيَّ فيها كلّ يو ... مٍ يزأرون مُردّدين
سنعود يا وطني ولو ... -إن شاء ربكُ- بعد حين
منها سأكتبُ قصّتي ... بصراحةٍ للعالمين

---

(١) ميلاد أمة: ٨٢.

فأنا ابــنُ شــعبٍ لــن يكــلّ مــن الجهــادِ ولــن يَلــين
ولســوف يشــعلها لظــىً حــتى يعــودَ إلى العــرين

يقرر الشاعر في ثورة وعزيمة أنه صامد رغم المحــن، كالمــارد الجبّــار يتحدى كل الصعاب. وقد علّم أبناءه الصمود والأمل في العودة إلى الوطن الحبيب. وسيكتب من هذه الخيمة قصة صموده للعالم. فهو ابن هذا الشعب المجاهد الصامد. وستظل الثورة تتلهب في صدره حتى يعــود كالأســد إلى عرينه.

والمشاعر الصامدة ذاتها يسجلها الشاعر على لسان الفــدائيين في قصــيدته ((الفدائيون)) إذ يقول[1]:

وجلســتُ أسمــع والفــدا ئيــونَ يــروون الحكايــة
قــالوا بــأن المــوتَ أصــ ــبح في ســبيلِ الله غايــة
وقــراعُ ذؤبــان الفــلا ةِ الطــامعين لهــم هوايــة

* * *

وسيصــبرون علــى المكــا رِه رغــم بطــشِ المعتــدين
حــتى نعــود إلى فلســ ــطين الحبيبــةِ ظــافرين

ثم يمضي الشاعر وقد غلبته رقة الحنين إلى وطنه. فيقول[2]:

---

(١) دعائم الحق: ١٤٤. والقصيدة متعددة القوافي.

(٢) المرجع السابق: ١٤٤-١٤٥.

سـألتُهم عـن أهلِنـا بعـد التشـتتِ والفـراق
ورفاقُنـا في المـوطن الغـا لي تُـرى كيـف الرفـاق؟
فعلمـتُ أن نفوسَـهم مُلِئـت حنينـاً واشـتياق

* * *

لكنـهم آلـوا بـأن يبقـوا هنـاك مـرابطين
رغـم التـبجّح مـن عـدوّ الله والحقـد الـدفين

إنه يسأل الفدائيين عن أهله ورفاقه في الوطن الحبيب، ماذا حلّ بهم بعد الفراق؟ لا شك أنهم يعانون مرارة الحنين والاشتياق، ولكنهم مع ذلك كله أقسموا ((بأن يبقوا هناك مرابطين)) صابرين على إرهاب العدو الغاشم.

ثم يستطرد الشاعر سائلاً عن مدن بلاده السليبة، التي لا يرى مثيلاً لها على وجه الأرض. ويسأل الفدائيين الأبطال عن بطولاتهم ومعاركهم، وعن المسجد الأقصى فيأتيه الجواب: ((برّحه الحنين)) والشوق إلى المصلين. فيقول[1]:

وسـألت عـن يافـا وعـن حيفـا وغـزّة والخليـل
وبلادِنـا تلـك الـتي في الأرضِ لـيس لهـا مثيـل
وعـن البطولـةِ في جبـا لِ القـدس أو أعلـى الجليـل

* * *

والمسـجد الأقصـى الحبيـبِ فقيـل: برّحـه الحـنين
وبـه اشـتياقٌ عـارمٌ للـراكعين السـاجدين

---

(١) دعائم الحق: ١٤٤-١٤٥.

أما الشاعر كمال رشيد فيعرض محنة الاغتراب في أسلوب تعريض ساحر، فيقول[١]:

اطرب يا شعبُ ولا تغضبْ ... واهتف للمذنبِ إذ أذنبْ
لا تغضبْ إن بلدي ضاعتْ ... فخيامُ الذلّ بنا أرحبْ
سلبوك الأرضَ وما فيها ... والخصمُ أتاك ولم يرهبْ
يا شعبُ عدوك في عملٍ ... ليلاً ونهاراً لا يتعبْ
وبنوك اليوم يطيب لهم ... ميسورُ المأكلِ والمشربْ
صاروا أشتاتاً أغراباً ... يحنون الهامَ لمن يركبْ
اللعبةُ حقاً ممتعةٌ ... والكل لمنظرِها يطربْ

يلجأ الشاعر إلى أسلوب السخرية المترعة بالمرارة. حيث ينحي باللائمة على الشعب المنشغل بالملذات عن إخوانه الذين يسومهم العدو سوء العذاب، بعد أن ضاعت بلادهم وأصبحوا يعانون حياة التشرد والمذلة والاغتراب.

كما يبث الشاعر شكواه الموجعة في قصيدة ((وطني)) قائلاً[٢]:

أما أنا فلقد سئمـ ... ـتُ من المعاني الضائعة
وتركت آهاتِ الهوى ... لذوي النفوسِ الوادِعة
أهفو إلى الوطن الذي ... أتممتُ فيه السابعة
وتركتُه طفلاً صغيـ ... ـراً للذئابِ الجائعة
وكبرتُ كالأيامِ حتّى ... ذقتُ طعمَ الفاجعة

---

(١) شدو الغرباء: ٢٦-٢٧.

(٢) شدو الغرباء: ١٥. والقصيدة متعددة القوافي.

أحيـــا رهـــينَ الغربتيـــ ـــنِ وأرضُ ربي واســـعة

* * *

وطني وفيـك الشـدو والتـ ـترجيعُ والـنغمُ الشـجي
وطـــني وغـــيرَك لا أريـ ـدُ تعلّـــةً، لا أرتجـــي
كـــالنور تلمـــع في عيـــو ني كالصـــباحِ الأبلـــجِ
سحرِ الزمـــانُ ومـــرت الـ أحـــداثُ دون تحـــرّجِ

يعبر الشاعر في الأبيات عن تخليه عن الهوى والمعاني الضائعة؛ فنفسه مثقلة بالهموم، لا تهفو إلا إلى الوطن، حيث ذكريات الطفولة. وتتابعت الأيام وكبر الطفل ليعاني مرارة الفاجعة. فصار رهين غربتين غربة عن الوطن وغربة عن النفس. ثم يناجي الوطن الذي أصبحت ذكراه نغماً شجياً يعزفه على أوتار الشعر، ولا يرضى بسواه بديلاً، فهو نور عينيه وصباحه الأبلج، وهو اليوم أسير لدى العدو الباغي الدخيل.

ولكن مهما طال الليل فلا بد له من نهاية. ولا بد للنور من عودة، حين تنطلق الزحوف المجاهدة لتشق دروب النصر، يقول(1):

وطـــني وإن طـــال الزمـــا نُ وإن تعـــددتِ الســـهامْ
واغـــبرّ وجـــهُ الأرض حيـــ ـناً وانتفـــى معـــنى الســـلامْ
وطـــني وإن نـــام الـــدعيُّ فـــإنّ عـــيني لـــن تنـــامْ
وغـــداً ســـتنطلق الزحـــو ف تزيـــل أســـتارَ الظـــلامْ
فعلـــى عـــدوي كـــلُّ شبـــ ـــرٍ من ثـــرى أرضـــي حـــرامْ

---

(١) شدو الغرباء: ٣٧.

ويصف الشاعر نفسه واقع التشرد والتشتت. فيقول[١]:

غدوتُ موزّعـاً في كـل أرضٍ وأوطاني غدت للخصم مرعـى
وفوق الـذلّ حـربٌ واقتتـالٌ وأشلاءٌ بلا هـدفٍ وصـرعى
أأيـام كـداحس قـد أطلّـت تدعّ القـومَ للبغضـاءِ دعّـا؟
وخصمي كان أشـتاتاً وأمسـى بفضل النجمةِ السـوداءِ جمعـا
أودّع إخـوتي في كـلّ يـوم وأسبلُ عـبرتي وأزيـد دمعـا

يتحسر الشاعر على وطنه وأرضه التي اغتصبها العـدو، وتركـه مغترباً في نواحي الأرض. ويصف ملامح المأساة المترتبة على ذلك، من تشريد الأهل في المخيّمات، وتفرّقهم، وتطاحن الأحزاب واختلافهـا. وكأنهم يعيدون حروب داحس والغبراء التي كانـت بـين العـرب في الجاهلية.

وفي المقابل يرى الخصم الذي كان شراذم في الآفاق، يجتمع اليوم تحت شعار النجمة المسدّسة شعار إسرائيل. ويعود الشاعر ليبكـي القتلـى نتيجـة هـذه الصراعات، ويسيل العبرات تلو العبرات.

وحول الفكرة نفسها يدور حوار بين الشاعر كمال رشيد وعاذل يلومـه قائلاً[٢]:

---

(١) شدو الغرباء: ٣٨.

(٢) شدو الغرباء: ٢٤.

الدمعُ يغمــر شــعرَك الحـــاني وكأنَّ قلبَــك فــيضُ أحــزانِ
إن الطبيعـــةَ سِـــفر معجـــزة أو ما أُخذت بسحرها الـــداني؟
لِـــمَ لْم تصـــف ورداً وزنبقـــةً ومجالســـاً في ظـــلّ بســـتانِ؟
لِـــمَ لْم تصـــف قلبـــاً يؤرقُـــه حـــبٌّ إلى معشـــوقِه الحـــاني؟
لِـــمَ لْم تصـــف بنتـــاً مدلّهـــة لِمَ لْم تقل ((يا ظبيـــة البـــانِ))؟

ينكر ذلك العاذل على الشاعر الحزن الدائم الذي يغلف قلبه وينعكس على شعره. ويتساءل في تعجب لِمَ لْم يكتب عن سحر الطبيعـــة ووصـــف الـــوردة والجلوس بين الرياض اليانعة؟ لِمَ لْم يصف هموم العشق والعشـــاق، و لم يصـــف المحبوبة ((ظبية البان))؟.

ويأتي العرض لصور المأساة، ومظاهر الإرهاب الصهيوني من خلال الرد على هذا اللوم، فيكشف الشاعر سر ذلك الشجن الذي يغلف شعره، ويأخذ بمجامع قلبه[1]:

يا عـــاذلي في الشـــعرِ معـــذرةً طولُ الجوى والبعـــدُ أشـــجاني
مـــاذا وقـــد زادت مصـــارعُنا والخصمُ يمرحُ فـــوق أوطـــاني؟!
أئذا بكيتُ علـــى ربـــا وطـــني أئـــذا رثيـــتُ لقتـــلِ إخـــواني؟
أئذا جزعـــتُ لســـجن ســـيّدةٍ مأسورة من خلـــف قضـــبانِ؟!
أئذا بكيـــتُ العـــيشَ في زمـــن أترى سأبكي كـــلَّ أزمـــاني؟!
لكـــنني بـــالحق ملتـــزمٌ والحـــقُّ يـــأمرُني وينـــهاني

(١) شدو الغرباء: ٢٤-٢٥.

وأصـــون شـــعري أن أضـــيّعَه   في وصـــفِ أجســـادٍ وســـيقانِ
مـــرّت علـــى أوطاننـــا محَـــنٌ   أخنتْ علـــى حـــبي ووجـــداني
حتى أتيـــتَ تقـــول في أســـفٍ:   ((الدمعُ يغمرُ شـــعرَك الحـــاني))

يعتذر الشاعر إلى العاذل، بأن طول البعد عن موطنه هو الذي جعل الشجن يخيّم على شعره. فالعدو يُعمل القتل ويشيع الدمار على أرض الوطن، ثم يتساءل: إلى متى سيظل يرثي القتلى من إخوانه، ويبكي السـجناء والسـجينات ظلمـاً وعدواناً؟. ثم يعلن في إصرار وتحدٍّ أنه ملتزم بالحق وإن ادلهمّت الخطوب. وأنـه يربأ بنفسه عن أن يضيّع شعره في مشاعر رخيصة وأفكار تافهة. فالمحن تطغـى على مشاعر الحب والوجدان.

ويقدم الشاعر كمال الوحيدي[١] لقصيدته بقوله[٢]: ((شمس بيروت تغيب صوب بحر فلسطين التي حرمتُ منها منذ سنين، فتذكرتُ الأهـل والأصـدقاء والوطن)). ثم يقول[٣]:

يا شمسُ حيّي موطني وصـحابي   إن غبتِ أنتِ فقد يطول غيـابي

(١) كمال عبد الكريم الوحيدي: ولد في غزة هاشم عام ١٩٣٢م، وعاش في قرية المخيزن بقضاء الرملة. شارك في الجهاد في فلسطين، التحق بكلية الحقوق في القاهرة ولكنه لم يتم دراسـته فيها، فعاد إلى غزة، ثم انتقل إلى قطر. وعمل فيها في التدريس ثم حصل على الشهادة الجامعية في اللغة العربية من بيروت. له مجموعات قصصية ومسرحية ودواوين شعرية، انظر: شـعراء الدعوة الإسلامية: ٧/١٣٧-١٤٥.

(٢) طريد الدار: ٩٣.

(٣) المرجع والصفحة نفسها.

طال الفراقُ وقُرِّحت أجفاننا ... واليأسُ حلَّ بساحتي ورحابي
عشرين عاماً قد قضيتُ ونيِّفاً ... وأنا أؤمِّل نصرةَ الأحبابِ
والشيبُ بان بعارضيّ ومفرقي ... والخطب أفقدني عظيمَ صوابي

يحدثنا الشاعر عن غربته وحنينه إلى موطنه، حيث الأهل. فيرسل لهم التحية مع الشمس، ويسألها ألاّ تغيب؛ ليظلّ آملاً في العودة إلى موطنه، كما تشرق الشمس بعد الغروب، وقد طال الفراق ويكاد يفقد الأمل، ويأخذ منه اليأس كل مأخذ بعد هذه السنين الطوال، وهو ينتظر نصرة الإخوة الأحباب، فقد علا الشيب الرؤوس جراء هول الخطوب.

ثم يلتفت الشاعر إلى جزئيات المأساة من تشرد واضطهاد وتنكيل، ويتذكر وعد بلفور المشؤوم، حين أعطاهم هذا الحاقد فلسطين وطناً قومياً، فيندد الشاعر بهذا الوعد، ويقرّر أن الإنجليز هم أعداؤنا منذ أن وقفوا خلف اليهود ظلماً وعدواناً، قال[1]:

فلقد تجرّع بالتشردِ شعبُنا ... كأسَ المرارةِ من وحوشِ الغابِ
سلب اليهودُ بلادَنا ورياضَنا ... بالغدرِ والتنكيلِ والإرهابِ
وحكومةُ الطغيانِ شدّت أزرَهم ... ((بلفور)) واعدهم بشرّ كتابِ
أعطاهمُ القدسَ الشريف لحقدهِ ... ودمُ المسيح كزعمِهم بترابي[2]

وللشاعر نفسه قصيدة ثانية في الحنين والغربة يسير فيها على سنن الشاعر

---

(١) طريد الدار: ٩٤-٩٥.

(٢) يدّعي النصارى أن المسيح قُتل وصُلب، ومع هذا يقدم بلفور لقاتلي معبوده ((لليهود)) الوطن الذي قتلوه فيه!!.

القديم حين يوجه شكواه إلى اليمامة التي هيّج هديلها كوامن الأسى في نفسه(١)، فقال(٢):

هديلكِ يا يمامـــة هـــزّ حســـي ... وبثّ الشوقَ في أعماقِ نفســـي
أثـــار الـــذكريات بهـــا لهيبـــاً ... فحنّت للـــتي ألفيـــتُ أُنســـي
إليهـــا جـــاد قلـــبي بالتحايـــا ... فمنها النورُ يسطع ضوءَ شمـــسِ
وفي ربواها أنشـــدتُ شـــعري ... نقيـــاً لـــيس ذا زورٍ ولـــسٍّ(٣)
على هضباها حلّقـــت أشـــدو ... بكل فضـــيلة وخيـــار غَـــرسِ

يعبر الشاعر عن حنينه لوطنه وشوقه إلى الديار التي وجد فيها الأنس والنور، وأنشد فيها الشعر الصادق وعلى هضباها حلّق سعيداً متغنياً بكل فضيلة.

ثم يحكي الشاعر كيف تقطعت الأسباب بينه وبين وطنه ليعمق بذلك صورة الألم فيهتف(٤):

يمامـــةُ ردّدي ســـجعاً فـــإني ... بعيدُ الدارِ عن أهلـــي وقدســـي
طريدٌ عن ديـــاري منـــذ حـــين ... وقد سُـــلبت روابيهـــا بخلـــسِ
وكان الأهل صـــرعى في عـــراءٍ ... وفي الفلواتِ قتلى دون رمـــسِ

---

(١) من ذلك قول الخنساء:

تذكرتُ صخراً إذ تغنّـــت حمامـــةٌ ... هتوفٌ على غصنٍ من الأيكِ تسجعُ
فظلتُ لها أبكـــي بـــدمع حزينـــةٍ ... وقلـــبي ممـــا ذكَـــرتْني موجَـــعُ

ديوان الخنساء: ٦٨.

(٢) طريد الدار: ١٥٥-١٥٦.

(٣) لسّ: دسّ.

(٤) طريد الدار: ١٥٦-١٥٧.

بربـــكِ يـــا يمامـــةُ شـــاطريني بأسجاعٍ أجـــد فيهـــا التأسّـــي
وبثّي الشوقَ إن يممتِ أرضـــي كنفحِ الزهر في طيّاتِ طِرســـي

تتجلى في الأبيات نغمة الحزن الحزينة الممتزجة بالأنين الموجع. فقـــد مـــرّ الشاعر بأقسى الظروف أمام عسف العدو وجبروته. فأُبعد عن بـــلاده بعـــد أن استولى عليها البغاة، خلال أيام حسوم عابسات، فأعملوا في أهله القتل والتنكيل. ويعود إلى اليمامة فيسألها أن تواسيه بسجعها، وأن تحمل أشواقه العطرة إلى أرض بلاده الحبيبة.

ويتوجه الشاعر صالح الجيتاوي إلى ربه في ابتـــهال ضـــارع شـــاكٍ، ويقول(١):

يا ربِّ يا معبود طالـــت غـــربتي ودجَت لحالك ما بهـــا أيـــامي
وتتابعتْ تترى الخطوبُ وأطبقتْ ويكاد يفلت من يـــديَّ زِمـــامي
أشكو إليك مصائباً توري الحشا بَوحاً إليك يفيض عـــن آلامـــي
أشكو إليك تنابـــذاً وتصـــارماً أشكو إليـــك تقطـــعَ الأرحـــامِ
ومصارع الشهداء ما جفّت ولا فقدت أنوف فوحـــةَ الإجـــرامِ

يشكو الشاعر إلى ربه طول غربته الحالكة السواد، محروماً من متعة العيش في موطنه، وتكاد الأحداث تفقده صوابه، والمصائب تترى ملهبة نار الألم والحنين. وشيء آخر يقاسيه الشاعر هو تنابذ الإخوة وتخاذلهم عن نصرة إخوانهم. وهـــم يرون ما يحلّ بهم من هوان وإرهاب وتنكيل.

(١) صدى الصحراء: ٧٠.

هذا وجملة القول أن بلابل الشعر صدحت متأثرة بأجواء الغربة ومشاعر الحنين والشوق إلى الوطن، في إسهاب واستفاضة.

وقد سيطر الضياع وجوّ الحزن والأسى والشفقة على قصائدهم، ولكن خفّف من سوداوية هذه الصورة وقتامتها مسحة من التفاؤل عند معظم الشعراء الذين مجّدوا الصامدين الثائرين، وأطلقوا صيحاتهم المدويّة من أعماق قلوبهم؛ لشحذ العزائم واستنهاض الهمم، محرّضين على الصمود والثبات في وجه الأعداء لاسترجاع الوطن المحتل فظلّ الأمل يداعب نفوسهم مع ما يقاسونه بعيدين عن وطنهم؛ مما ترك على شعرهم هذه البصمات القوية البارزة.

المبحث الرابع

إحراق اليهود المسجد الأقصى

عام ١٩٦٩م وردود الفعل العربية

إن إسرائيل التي تدّعي كفالتها الكاملة لحرية الأديان تضرب كل يوم عرض الحائط بهذه الكفالة، وإنّ في هذه المحاولات الاستفزازية التي تقوم بها الجماعات العنصرية والمتطرّفة ضد المقدسات الإسلامية في القدس، واكتشاف مخططات هدم المسجد الأقصى؛ لإقامة الهيكل اليهودي المزعوم مكانه، لعل في هذه المحاولات شهادة على معاداة الصهيونية للأديان السماوية[١].

((ولم تسلم أماكن العبادة للمسلمين والمسيحيين على السواء من المخططات الاستيطانية. وتتفاوت الممارسات في شدهًا ما بين انتهاك لحرمة الأماكن المقدسة أو هدمها أو إحراقها أو الاعتداء عليها وعلى موجوداتها بالسرقة والسلب))[٢].

وبعد أن ذهب البحث عن هيكل سليمان المزعوم أدراج الرياح، فلم تجد إسرائيل شيئاً مما افترضته، أوحى إليهم شيطانهم أن تدمير المسجد الأقصى وإزالته من الوجود سيعطيهم الحق في بناء الهيكل على أنقاضه، كما يُزال معلم إسلامي مهم؛ وبذلك تزول الصبغة الإسلامية عن القدس. وصمموا على تنفيذ خطتهم النكراء في الثامن من جمادى الآخرة عام ١٣٨٩هـ الموافق للحادي والعشرين

---

(١) انظر الملف السري الأسود لإسرائيل: ١١٢.

(٢) المرجع السابق: ١١٣.

من آب عام ١٩٦٩م حين تعرض المسجد الأقصى لحادث حريق متعمّد نفّذه يهودي إسرائيلي، زعمت السلطات الصهيونية أنه مختل عقلياً. وما إن شوهدت النيران بالمسجد، حتى هرع إليه المسلمون من كل حدبٍ وصوب؛ لإطفاء الحريق. فدبت فيهم روح الحميّة الإسلامية، وهاجموا الاحتلال بعنف وضراوة، واستطاعوا إنقاذ ثالث الحرمين الشريفين، بعد أن أتت النيران على منبر صلاح الدين وعلى أجزاء كبيرة منه(١).

وبعد الحريق بيوم دعا الملك فيصل بن عبد العزيز -رحمه الله- إلى مؤتمر قمة إسلامي، حضره رؤساء خمس وعشرين دولة إسلامية في مدينة الرباط بالمغرب. ونادى فيه بالجهاد المقدس، ورفض أي حل للقضية الفلسطينية لا يكفل لحرية القدس وضعها السابق لأحداث حزيران عام ١٩٦٧م كما طالب المؤتمرون جميع الحكومات -وبصورة خاصة حكومات فرنسا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية- أن تأخذ بعين الاعتبار تمسك المسلمين القوي بمدينة القدس وعزم حكوماتهم الأكيد على العمل من أجل تحريرها.

وساهم الشعراء الإسلاميون في توعية الجماهير المسلمة لما يُحاك ويدبّر للمسجد الأقصى. فانساب الشعر الإسلامي دفّاقاً يحمل مشاعر الغضب والثورة جراء هذا الحادث المؤلم. قال عمر بهاء الدين الأميري مقدماً لقصيدته(٢): ((في الذكرى الأولى للإسراء والمعراج بعد حريق المسجد الأقصى وانعقاد مؤتمر القمة الإسلامي)).

---

(١) انظر الوظيفة الإعلامية للشعر الإسلامي المعاصر في قضية فلسطين: ٥٥٩-٥٦٠.

(٢) من وحي فلسطين: ١٣٢.

يفتتح الشاعر قصيدته بتوجيه نداء حار إلى ذكرى الإسراء والمعراج ويصرح ببكائه ((والأبيّ على البكاء يلام)) إذ قال[١]:

يا يوم معراج الرسول وأنـــت في ... كرّ الـــدهور، هدايـــة وســـلامُ
عذراً إذا خنـــق البكـــاء تحـــيتي ... لك، والأبيّ على البكـــاء يـــلامُ

لكنه لا يلبث أن يبيّن سبب البكاء وعدم القدرة على حبس الدموع[٢]:

لكنـــه الأقصـــى وفي نكباتِـــه ... وحريقِه، حبسُ الدموع حـــرامُ
دمع الأبيّ الحرّ بعـــضُ جهـــادهِ ... وزفـــيرُه عنـــد الـــوغى إقـــدامُ

ثم يقول[٣]:

فالقدسُ نارُ محاجري ومشاعري ... هولٌ يغـــولُ هنـــاءتي وحِمـــامُ
هل تطمئنُّ بيَ الصلاةُ وقبلتي الـــ ... أولى يدنّســـها خـــنى وأثـــامُ
في عين إيماني قـــذىً وأذىً وفي ... قلب الســـكينة للـــهموم عـــرامُ

وبعد أن عبّر الشاعر عن مكنون يفيض بالأسى والألم الممضّ، بدأ بعـــرض ملامح المحنة المتمثّلة في استباحة العدو لمقدسات المسلمين وكرامتهم نتيجة بدهية للفرقة والخصام الذي يحيونه. والبعد عن الدين سبب آخر وراء هـــذا الحـــادث الأليم، فقال[٤]:

أممٌ يشتت شملَهـــم زعمـــاؤُهم ... وعـــدوُّهم متكـــاتفٌ غشّـــامُ

(١) من وحي فلسطين: ١٣٢.
(٢) من وحي فلسطين: ١٣٣.
(٣) المرجع نفسه: ١٣٤.
(٤) المرجع نفسه: ١٣٩.

والحكمُ لا ما أنـزل الله الهـدى   لكنّـه الأهـواءُ والحكـامُ
ورسالةُ الإسلامِ ناموسُ الهـدى   للعـالمين رُعاهـا أقـزامُ

ويعود الشاعر ليوجه نداء مؤثراً إلى الأمة، فيه لوعة الأسى وحرقة الأحزان، قائلاً[١]:

يا أمـةَ المجـدِ العريـقِ إجابـةً   هـل يسـتقيمُ لمسـلمٍ إسـلامُ؟
والمسجدُ الأقصى يُحـرَّق عنـوةً   وذوو البلاءِ، عـن الـبلاءِ نِيـامُ؟
متجبّـرون، وإنـه اسـتئثارهم   وهـوانُهم والبغـيُ والإحجـامُ
أغرى ((اليهود)) بنا، وأمكن كيدُهم   منـا، فعـدنا والـبلاد حطـامُ

إنها دعوة إلى اليقظة، وتقريع يخاطب ما في نفوس المتخاذلين من بقايا كرامة الإنسان المدافع عن كيانه وعن وجوده. ثم يقول محيّياً مؤتمر القمة في الرباط[٢]:

يا ((قمةَ)) الحكام بورك سعيهم   ما أخلصوا، ومضى به الحكـامُ
جهدُ الدعاة بكم سيثمرُ غرسُـه   فلقـاؤكم درعٌ لـه وحـزامُ
هذي طليعةُ مسـلكٍ منشـودة   غاياتُـه، تخذيلـه إجـرامُ
عملتْ له شمُّ النفوسِ وماونـت   واستشـهدت ولهـا إليـه أوامُ
جمعٌ على قربى العقيدةِ والنّهـى   دفعٌ لخطـب ردى، أذاه ركـامُ

يحيّي الشاعر حكام المسلمين المجتمعين في المؤتمر، ويبارك سعيهم، ويرى فيهم أملاً قوياً في النجاة، وسبيلاً مؤدّياً إلى الغايات المنشودة. فالوحدة والتضامن هي

(١) من وحي فلسطين: ١٣٩.
(٢) من وحي فلسطين: ١٤٥.

الطريق لتجاوز الهزائم التي صنعتها الفرقة. فيدعو الشاعر ضمناً إلى التلاقي والتوحد الإسلامي؛ لأن وحدتنا هي طريق سيادتنا على الأعداء، وفرقتنا طريق السيادة للأعداء علينا.

ويهدي الشاعر أحمد فرح عقيلان قصيدته ((واحترق الأقصى)) ((إلى مؤتمر القمة الذي انعقد في الرباط إثر حريق المسجد الأقصى الشريف)). فيقول[1]:

تكشّف الأمرُ عن حقدٍ وعن لهبِ ... وشبّت النارُ في ميراثِ خيرِ نبي
وطأطأت هامةُ التاريخِ من خجَلٍ ... وديسَ في التُّرب عزُّ الشرقِ والعربِ
وقهقه الكفرُ في لؤمٍ وسخريةٍ ... لما رأى القدسَ يذري دمعَ منتحبِ

يفتتح الشاعر قصيدته مبيّناً الأسباب الكامنة وراء هذا الحدث الفظيع، فالحريق المتلهب في الأقصى يحكي اللهب المتضرم داخل نفوس اليهود الحاقدة. ويرسم الشاعر صورة للتاريخ وقد أطرق إغضاءً وحياءً من جراء هذا الحدث المهين لكرامة المسلم.

ويؤكد الشاعر فظاعة هذا الحدث بقوله[2]:

يا من رأى القبلةَ الأولى وقد حُرقت ... نفسي الفداءُ لذاك المسجد الخربِ
بكت له الكعبةُ العظمى شقيقتُه ... ومادت الروضةُ الغراءُ من غضبِ
لو كان في العُرب إسلامٌ لما شقيت ... منازلُ الوحي بالأوثانِ والصلبِ
ولا تركنا على رُغمٍ ومجبنةٍ ... مسرى النبي لأفّاقٍ ومغتصبِ
يا مسلمون لقد عدنا بلا وطنٍ ... ولا تراثٍ ولا مجدٍ ولا حسبِ
إن لم تثرْ لحريق القدس غضبتُنا ... فنحن من معدنِ الأحجارِ والخشبِ

---

(١) جرح الإباء: ٢٦-٢٧.

(٢) جرح الإباء: ٢٦.

يتحدث الشاعر عن حريق الأقصى حديثاً نرى فيه الألم الذي يعصر قلبه، والتبكيت الذي يهز مشاعر المتقاعسين من الأعماق. فالكعبة المشرفة والروضة الشريفة تبكيان أسىً لما حصل للأقصى. ويبلغ الألم من الشاعر مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً؛ فيهتف متسائلاً: أين الرجولة والحميّة الإسلامية؟ هل نجبن عن حماية مسرى النبي ونتركه نهباً ((لأفّاق ومغتصب))؟ إن ضياعه يعني ضياع مجدنا وتراثنا وعزّنا.

ثم يصور الشاعر شراسة الأعداء، وطباع اليهود من بغض وحقد على الإسلام والمسلمين، مما دفعهم إلى إعمال القتل والتنكيل فيهم، كما صنعوا ذلك بأنبيائهم من قبل. حيث يقول[1]:

إن اليهودَ أشدُّ الناسِ مبغضةً   للمؤمنين رواها أشرفُ الكتبِ
حَرْقُ المصلى وذبحُ الطفلِ شِرعتهم   أفٌّ لهم شِرعة السكين واللهبِ
كم من نبيٍّ تترّى من خناجرِهم   فخرّ يدعو على الكفار بالغضبِ

ويثني الشاعر على مؤتمر القمة والقادة المجتمعين فيه فيقول[2]:

يا خيرَ مؤتمرٍ لله منعقدٍ   للحقِّ منتصرٍ للدينِ منتسبِ
يا قادةَ الأمةِ الغرّاء أمتنا   إذا رَمت بسوى الإسلام لم تُصبِ
لما رأى خصمُنا في الدين قوتَنا   مضى يضلّلنا بالهدمِ والكذبِ
ويوهم النَّشْءَ أن الدين ليس سوى   رجعيّة تُركس الإنسانَ في التعبِ

---

(١) جرح الإباء: ٢٧.

(٢) جرح الإباء: ٢٨.

لو اجتمعنا على الإسلامِ من زمن لبات جدُّ بني صهيون في صَـــبَبِ
لكن حملنا شـــعاراتٍ موزعـــةً فكان ما كان من خِزي ومن عَطَبِ
إذا ابتغينا سوى إســـلامنا بـــدلاً فإننا من بـــني حمّالـــةِ الحطـــبِ

يشير الشاعر إلى المؤتمر ويأمل أن يكون فيه انتصار للحق. ويوجه نداءه إلى القادة المجتمعين مذكّراً بأن لا نصر ولا عزة إلا بالإسلام.

ثم ينتقل الشاعر إلى أسباب الهزيمة أمام العدو، فيرجعها إلى أن العـــدو قـــد أعمل الهدم والتضليل بمبادئ أبناء الأمة؛ لإدراكه بأن قوة الأمة تكمن في التمسك بعروة الدين القويم. فعمل على إضعاف العقيدة في نفوس الـــنشء، بـــدعوى أن الدين سبب في الرجعية والتخلف عن ركب الحضارة.

ثم شرع يندّد بالشعارات التي مزقت المسلمين إلى أحزاب؛ فأوهنت قواهم، وأمكنت العدو منهم وأركستهم في جاهلية حديثة.

ثم يستنهض الشاعر العزائم بقوله[1]:

اليـــومَ للعـــروةِ الـــوثقى تجمُّعنـــا لا رأي فينـــا لمشّـــاء ومغتـــربِ
فأَعلِنُوها علـــى الكفّـــار مســـلمةً تلقي بمن حرقوا الأقداسَ في اللهبِ
سيروا على اسم الذي يحمي مسيرَتكم فمن سعى في سبيل الله لم يخـــبِ
ومن تكن في ســـبيل الله هجرتـــه فتحت إمرته جيش مـــن الرعـــبِ
ولتجعلوا من حطامِ القدسِ أشوطةً تنصبّ فوق عدو اللهِ كالشـــهبِ

(١) جرح الإباء: ٢٨-٢٩.

يهيب الشاعر برجال الأمة أن يمضوا في ثورة وعزيمة إلى الجهاد في سبيل الله انتقاماً ممّن حرقوا المسجد المبارك. ومن كانت مسيرته على اسم الله فالنصر حليفه ولا شك. وسيوقع الله الرعب في نفوس الأعداء؛ مصداقاً للحديث الشريف ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي (وذكر منها:) ونصرت بالرعب بين يَدَيْ مسيرة شهر..))[١] الحديث.

أما الشاعر كمال رشيد فيقول من قصيدة حافلة بالنداء الوجداني الذي يهزّ المشاعر ويوقظ القلوب، ويثير العواطف[٢]:

جلّ المصابُ وزادت الآلامُ ... وعدت على أرض الهدى الأقوامُ
يا ثالثَ الحرمين حرقُك نكبةٌ ... فيها يزيدُ الجرحُ والإيلامُ
يا موطنَ الإسراءِ خصمُك غادرٌ ... وسبيلُه التقتيلُ والإجرامُ
إن يحرقوك فليس ذلك بدعةً ... في دينهم بل إنها الأحلامُ
حربٌ على الدين الحنيفِ وإنها ... لطويلة ما طالت الأيامُ

كشف الشاعر عن أثر مأساة الحريق على نفسه. فنراه يعبر عن نار الحزن والأسى التي تحرق قلبه، وتزيد جراحه. ويلتقي مع الشاعر عقيلان في كشف طباع اليهود من غدر وإجرام؛ فليس ما فعلوه بدعة في دينهم بل هو أمانيهم وأحلامهم في هدم المقدسات والقضاء على الدين الحنيف. ثم يعود الشاعر لتصوير أثر المأساة في نفسه، حيث يقول[٣]:

---

(١) صحيح مسلم: ١/٣٧٠ (٥٢١).

(٢) شدو الغرباء: ٣٢.

(٣) شدو الغرباء: ٣٣.

أسفي على الأقصى وقد عبثتْ به ... نارُ العدو وقد علاه قتامُ
أسفي على الإسلام يترف جرحُه ... والمسلمون عن الجهادِ نيامُ
لم يغضبوا لله غضبةَ مؤمنٍ ... رأوا العدو بأرضِهم وتعاموا
ما قيمةُ الدمعِ الهتونِ أصوغُه ... شعراً وشعبي للهوان يسامُ؟
في كل أرضٍ من ديار محمدٍ ... ذلٌّ يرادُ وفرقةٌ وخصامُ

أودع الشاعر الأبيات آهاته وحسراته على ما حلّ بالأقصى. كما أودعها تقريعاً للمتقاعسين عن الجهاد، المتعامين عن جرائم العدو الآثم على الأرض المقدسة. ويتساءل في حسرة: ما جدوى الدموع والشعب يسومه العدو سوء العذاب، وفي كل أرض مسلمة يوجد الذلّ والفرقة والاختلاف؟

ثم يلتفت الشاعر إلى إثارة حفيظة الإنسان المسلم؛ علّه يستيقظ من غفلته، وينفض عنه غبار التواني والتخاذل، إذ يقول(١):

يا من ركنتَ إلى الحياةِ وطيبِها ... الذل في الدين الحنيفِ حرامُ
والحق أبلجُ والحياة قصيرةٌ ... فعلامَ خوفٌ إن أتاك حِمامُ
(من لم يمتْ بالسيف مات بغيره) ... ولكلّ نفس في الحياةِ مرامُ
أين الملايين الذين نعدّهم ... أوَليس فيهم فارسٌ مقدامُ؟
بخلت علينا الوالداتُ بمثلِهم ... وأتى على آثارِهم أقزامُ

فالمسلم الحرّ لا يستمرئ عيش الهوان ولا يقبل الذل، وإنما يقدم على الموت في سبيل العقيدة، دون وجل أو تهيّب، فالموت مصير كل حيّ، والعاقل من يختار

---

(١) شدو الغرباء: ٣٤.

الموت في إباء وعزّة. ويتساءل الشاعر عن الملايين من المسلمين ((أوَليس فيهم فارس مقدامُ؟!)) وهل عجزت الوالدات أن يلدن إلا الأقزام؟!

ثم طفق الشاعر يستلهم التاريخ المشرق لهذه الأمة، يوم أن ((سعدت بنا الأيام)). ويشير إلى الزمن الظافر الذي تحققت فيه للمسلمين أمجاد وانتصارات عظيمة ويصرّ على زرع الأمل في النفوس؛ فلعل سفر المجد يسجل صفحة جديدة مشرقة. يقول(١):

شقيتْ بنا الأيامُ إن لم نُحيها ... ولطالما سعدت بنا الأيامُ
نحن الأُلى خبروا المعاركَ قادةً ... أيرادُ منا الذلُّ والإرغامُ
قم يا صلاح وشاهد القدس التي ... حررتَها يزهو بها الحاخامُ
فلعل سِفرَ المجدِ يفتح صفحةً ... فيُطِلُّ يومٌ مشرقٌ بسّامُ

وفي قصيدة ((شهيد)) للشاعر نفسه يبرز حادث الحريق في ثنايا تمجيده للشهيد فيقول(٢):

ثائرٌ من ذرا اليمنْ ... جاءنا يحملُ الكفنْ
راعه أن يرى العدا ... تغصِب القدسَ والوطنْ
تحرق المسجدَ الذي ... عزّ من سالفِ الزمنْ
هالَه حالُ أمةٍ ... تعشقُ النومَ والوسنْ
وعدو يريدها ... يزرع الحقدَ والفتنْ

(١) شدو الغرباء: ٣٤.

(٢) القصيدة في رثاء الشهيد المجاهد محمد سعيد باعباد من اليمن، وقد استشهد على أرض فلسطين؛ شدو الغرباء: ٦٩.

لستُ أبكيك يا أخي رغم دمعي الذي هتنْ
إنما العمرُ ساعة تتلاشى مع الزمنْ
بعدها جنةُ العلا بعدها الخلدُ والسكنْ
إنها غايةُ الذي حمل السيفَ والكفنْ

يقدم لنا الشاعر صورة لنفس هذا الشهيد الثائر الذي لم يتخاذل أمام العدو الباغي، و لم يؤثر السلامة ويستمرئ المهانة؛ وإنما هبّ ثائراً مجاهداً حين رأى العدو يحرق المقدسات، ويهين الأمجاد حقداً وظلماً. ولا يذرف الشاعر الدموع على الشهيد، لأنه إنما أراد الجنة فنالها بإذن الله، فهي الغاية التي من أجلها جاهد وقاتل واستشهد.

وللشاعر المصري صابر عبد الدايم[1] قصيدة في هذا المجال بعنوان: ((نقوش على جدران المسجد الأقصى)) يفتتحها بمطلع ينقل إحساس الشاعر الصادق بالحزن العميق. إذ يقول[2]:

يا قدسُ طيرُ الحقّ فيك يحلّقُ والمسجدُ الأقصى يُدَكّ ويحرقُ

ثم شرع في تفصيل الحادث المفجع:

الغاصبون زمان أمنِك ما دروا أن الحجارةَ في اشتعالِك فيلقُ

---

(١) صابر عبد الدايم يونس: ولد في مدينة الزقازيق في مصر عام ١٩٤٨م ودرس في معهد الزقازيق الديني ثم التحق بجامعة الأزهر وحصل على الشهادات الجامعية الثلاث العليا، له ثلاثة دواوين مطبوعة وبحوث أدبية عديدة. انظر: مختارات من الشعر الإسلامي الحديث: ٣١٩.

(٢) مدائن الفجر: ٥٧-٦٢.

قد أضرموا النيرانَ فيك وفي قلـو بِهمُ الفسادُ مع الجحـودِ معلـقُ
والمسجد الأقصى يقاوم كيـدَهم وبه إلى فجـرِ الأمـانِ تشـوقُ
والسلمُ مبتورُ اليـدين بسـاحةٍ فيها الأمانُ مع السـلامِ مـورّقُ
قد أشعلوا الـنيرانَ في أضـلاعه وضلوعه هديٌ، وذكرٌ مغـدقُ
قد أحرقوه فزاد عطـرُ جلالـهِ كالعودِ يكثر عطـرُه إذ يحـرقُ
وأتَوا بحقـدهمُ ليطفـئ نـورَه لكنه كالشـمسِ فينـا يـبرقُ

يلتقي الشاعر مع سابقه في فكرة الكشف عن طباع اليهود التي كانت وراء حريق المسجد الأقصى. فقد أشربت قلوبهم الفساد والجحود والكيد. ويرسم لوحة مؤثّرةً للمسجد الأقصى الصامد، رغم ما يعانيه، ورغم تشوقه إلى فجر الأمن والسلام. بعد أن سيطر عليه البغي وأثقله قيد الأسر، إلا أنهم لن يستطيعوا المساس بطهره وقدسيته. وإنما زاده الإحراق جلالاً وعظمة في النفوس ((كالعود يكثر عطره إذ يحرق)) فلن يطفئ حقدهم نوره؛ لأنه كنور الشمس لا يُحجب أبداً.

ثم انبرى الشاعر يكشف نوايا العدو الخبيثة في هدم الأقصى وإقامة الهيكل المزعوم. فيقول:

مسرى رسولِ اللهِ تلك صحائفٌ خُطّت بسفرِ المجدِ فيـك تنَسَّـقُ
إن أشعلوا النيرانَ فيـك فإنمـا هي جذوةٌ وبغيرِها لـن يحرقـوا
ظلموا سليمانَ الحكـيمَ بهيكـلٍ وبغَوا وقالوا: نحن شعبٌ أعـرقُ

إن مسرى النبي الكريم يمثل أمجاد الإسلام التي خُطّت في الصفحات المشرقة من التاريخ، وإن هذه النار التي ألهبت جدرانه هي ذاتها النار التي ستحرق اليهود

الآثمين. ويشير الشاعر إلى هيكل سليمان، وأن في زعمهم هذا ظلماً وبهتاناً على نبي الله عليه السلام، كما زعموا -زوراً وبهتاناً- أنهم شعب عريق مختار.

وينتقل الشاعر -في نهاية المطاف- للتوعد بالثأر للمقدسات ومقاومة العدوان الباغي بعزيمة وثورة، فيقول:

إن أحرقوهُ وهدّموا محرابَه فبكى، وهم سمعوا الأنين فصفّقوا
فالثأرُ يزحفُ في انتفاضةِ أمتي وبعزمةِ الأحرارِ قلبي يشهقُ
((اللهُ أكبرُ)) في الشدائدِ مدفعي بالنصر برقُ ضيائِها يتدفقُ
المسلمون على الأكفّ الروحَ قد وضعوا، وكلّ للفِدا متشوّقُ
سيهبُّ كالإعصارِ كلُّ موحّدٍ يُفني الطغاةَ وللجُناة يمزّقُ
وشهادةُ التوحيدِ مدفعهُم وديـ ـنُ اللهِ رايتُه عليهم تخفقُ
وتسير جندُ اللهِ بين صفوفِهم فاللهُ ينصر جندَه ويوفّقُ

إن كان الحريق يمثل فرحة للأعداء بتحقيق أهدافهم والتنفيس عن حقدهم الأسود، فلا بد أن نثأر له، في انتفاضة ثائرة وبعزيمة صادقة، شعارها ((الله أكبر)) وسلاحها الإيمان بالله. فالمسلم الحرّ تاقت نفسه إلى الفداء واضعاً روحه على كفه، والشهادة غاية أمله. فيهبّ إعصاراً يمزق الطغاة ويقضي على الباغين. لتعود راية الإسلام عزيزة خفّاقة، ويبارك الله هذا الزحف المبارك بإرسال جنده تقاتل بين الصفوف نصراً مؤزّراً لمن نصر الله.

وفي العيد تعاود هذه الذكرى الأليمة الشاعر أحمد الصديق فيبثّ شكواه في لوعة وأسى، قائلاً[1]:

---

(١) نداء الحق: ٢٣٦.

يا عيدُ والمسجدُ الأقصى محرّقــةٌ أحشاؤه وهو في الأغلالِ مصفودُ
كأنّه ضيغمٌ في الأســرِ مــرتهنٌ وبابه خشيةَ الإفــلاتِ موصــودُ
يا عيدُ أين صلاحُ الدين يُعتقُــه حرّاً ففيه لواءُ النصــرِ معقــودُ؟

يرسم لنا الشاعر صورة الأقصى مغللاً بالأصفاد كالأسد الأسير في سجنه. ويستنجد الشاعر بصلاح الدين الأيوبي، ذلك القائد المظفّر الذي أنقذ القدس من براثن الصليبيين.

وفي غمرة الأسى والحزن يتطلع الشاعر إلى القائد المسلم الحرّ، الذي ينــتقم للمقدسات، ويعمرّ بنيان العقيدة، ويتخلق بخلق العظماء الفاتحين، بعزيمة لا تفــل وثقة بالله لا تهتزّ، وعندها يُكتب النصر على يديه وتعود للأمة عزّتها وأمجادهــا. فيقول[1]:

وإنما يقهــرُ الطغيــانَ معتصــمٌ بـــالله منــــتقمٌ لله صـــنديدُ
وليس يعمرُ بنيـــانٌ لنـــا أبـــداً ما لم يكن فيه للأخلاقِ تشــييدُ
نستقبلُ الأمرَ في عزمٍ وفي ثقــةٍ والجندُ في ساحةِ الرحمنِ محشــودُ
هناك تعلـــو بـــدين الله رايتُنـــا حقاً ويصـــحبُنا عـــزٌ وتمجيـــدُ

ويوجه الشاعر صالح الجيتاوي حديثه إلى صلاح الدين. فيقول[2]:

إيـــه صـــلاحَ الـــدينِ هـــل مــــن منـــبرٍ للعـــزِّ ثـــانِ؟
القـــومُ صـــاروا مثـــل أهْـــــــلِ الكهـــفِ في تيـــه الزمـــانِ
تتقلـــــبُ الأجســـــادُ لـــــــكنْ أيـــن يقظـــانُ الجنـــانِ؟!

---

(١) نداء الحق: ٢٣٧.

(٢) صدى الصحراء: ٢٦.

يـــا ويحهـــم أيظـــلُّ مســـــ ـــجـــدُهم بمحنتـــه يعـــاني؟!
يـــا ليتـــهم كـــانوا ((تميـــ ـــماً))[1] في الطِّرادِ وفي الحِـــرانِ
يا ليتـــهم ((مضـــر))[2] بغضـــ ـــبتهم تـــرددتِ الأغـــاني

بعد أن أحرق العدو الغاشم منبر صلاح الدين داخل الأقصى يستنجد في تنقلاته حتى دخل القدس فاتحاً، وركّبه في المسجد الأقصى إيفـــاءً بنـــذره. ويصور الشاعر الأمة وهي تغطّ في نوم عميق؛ ولا تشعر بما يحـــاك حولهـــا. ويعلي النكير على المتقاعسين والمتخاذلين مع ما يرونه من محنٍ تترى، ويتمنّى لو كان لديهم غيرة تميم ((في الطراد وفي الحران)) أو غضبة مضر وغيرهم على حماهم.

ويستبين القارئ لقصيدة الشاعر الحبيب المستاوي[3] مشاعر الألم والأســـى وهو يرى مشهد الحريق فيهتف هذا الهتاف الشجي[4]:

---

(١) إشارة لقول جرير:

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلهم غِضابا.

(٢) إشارة لقول بشار بن برد:

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً هتكنا حجابَ الشمسِ أو تمطر الدما.

(٣) الحبيب المستاوي (١٩٢٣م-١٩٧٥م) ولد بقرية الرقبة ولاية مدنين في تونس. نشأ في بيت علم وأدب، والتحق بجامع الزيتونة فحصل على الشهادة العليا، وباشر التدريس في مدنين ثم قفصة ثم انتقل إلى ليبيا ثم عاد إلى تونس ليعمل أستاذاً للشريعة وأصول الدين بالكلية الزيتونية ثم تولى التدريس في الأكاديمية العسكرية عدة سنوات إلى أن توفي. انظر: شـــعراء الـــدعوة الإسلامية في العصر الحديث: ١٢١-١٢٢.

(٤) شعراء الدعوة الإسلامية: ٩/١٤٨.

أمـــةُ الإســـلامِ هـــل يوقظُهـــا مشهدُ الأقصى ونـــار تلتـــهبْ؟
أمـــةُ الإســـلامِ هـــل يؤلمُهـــا مسجدُ الصخرةِ وهو المكتئـــبْ؟
أمـــةُ القـــرآنِ هـــل يجمعُهـــا مجدُها المَوْعُودُ مذ أقصى الحقبْ؟

وبعد هذا التساؤل المتحسّر الحائر، طفق الشاعر يقدم نصحه للأمة. علّهـــا تتوحد أمام العدو، وتربأ الصدع، ويتمنّى أن يخرج من هذه الأمة قائدٌ بطل كابن تاشفين وقطز وصلاح الدين، الذين حققوا الانتصارات العظيمة. يقول موجهـــاً حديثه لأمة الإسلام[1]:

ليتـــها تســـمعُ مـــن ينصـــحُها ترأبُ الصدعَ وتـــأتي بالعجـــبْ
ليتـــها يخـــرجُ منـــها قائـــدٌ يبعثُ الدينَ فـــتزاحُ الحُجُـــبْ
(كابن تشفين) و(قطْـــز) بعـــده و(صلاح الدين) لمـــا أن وثـــبْ

وعلى هذا الدرب سار الشعراء الإسلاميون في إبراز حريق المسجد الأقصى مستغلّين هذا الحادث المؤلم للإنذار بخطر محدق بالبلاد وبمقدساها. فكان هـــذا الحدث مجالاً ثرّاً لتعبئة المشاعر الإسلامية الغيورة، وموحياً بعظم التبعات الملقـــاة على عاتق رجال الإسلام. فكان معيناً ثرّاً اغترف منه الشعراء لـــدفع الشـــعوب الإسلامية للجهاد والتضامن والوحدة صفاً مرصوصاً في وجه الأخطـــار الـــتي تهددهم.

ومما يدلّ على عمق تأثير هذا الحدث في النفوس الشاعرة أن بعض الشعراء حرصوا على نظم القصائد في ذكرى هذا الخطب العظيم؛ للإبقاء علـــى هـــذه

(١) شعراء الدعوة الإسلامية: ١٤٩/٩.

الذكرى حيّة في النفوس تنذر المسلمين بالشرور التي ستطبق عليهم إذا ظلّوا متقاعسين عن الجهاد.

كما رأينا الشعراء استلهموا روائع تاريخنا الإسلامي، فرسموا صوراً لأعلامنا الأبطال نماذج خالدة للأجيال؛ ليكون جهادهم امتداداً لما قامت به أصولهم من نصرة الإسلام أول مرة.

المبحث الخامس

اجتياج اليهود لبنان ومذبحة صبرا وشاتيلا

((احتلت منطقة جنوب لبنان أهمية خاصة في نظر الصهيونية العالمية، التي سعت بعد حصولها على وعد بلفور إلى ضم جنوب لبنان إلى القسم الخاضع للانتداب البريطاني من فلسطين. وذلك يعود لعوامل دينية تدّعي أن جنوب لبنان جزء من أرض الميعاد. ولعوامل اقتصادية للسيطرة على مصادر المياه في لبنان، وخاصةً نهر الليطاني))[1].

ولقد نشطت الغارات الإسرائيلية على الجنوب اللبناني مع تزايد الوجود الفلسطيني متذرّعة بالتفتيش عن رجال المقاومة، وتدمير قواعدهم، ولكن قوات الفدائيين تصدت لمحاولات الدخول إلى الجنوب عام ١٩٧٢م وأجبرت العدو على الانسحاب.

واستطاع الطرفان (المقاومة الفلسطينية والشعب اللبناني) تفويت الفرصة على العدو الصهيوني الذي كان يستهدف زرع بذور الخلاف والعداوة، وخلق شق بين الطرفين؛ تمهيداً لضرب الثورة الفلسطينية واستنزاف الطاقات الفلسطينية وتحويلها عن عدوها الأساسي الكيان الصهيوني.

---

(١) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ١٣٤.

وقد قامت إسرائيل عام ١٩٧٣م بعدوان غادر لاغتيال عدد من قادة المقاومة، بالإضافة إلى الاعتداء على مراكز المقاومة داخل مدينة بيروت وضواحيها[١].

وبعد معارك ضارية تمكن العدو من احتلال جنوب لبنان بأكمله. وتقدم فيما بعد نحو مدينة بيروت لاحتلالها وفرض الحصار عليها ثمانين يوماً عانى فيها سكانها من الإجراءات التعسفية. حيث قُطع الماء والكهرباء عن المدينة المحاصرة، ومُنع دخول التموين والأدوية إليها.

ورغم كثافة أسلحة العدو لم يتمكن من القضاء على قوات المقاومة الفلسطينية؛ وخرجت بكامل أسلحتها بعد تعهدات دولية بعدم المساس بحقوق الفلسطينيين في المخيمات[٢].

((ولكن هذه التعهدات ذهبت أدراج الرياح عندما قام الجيش الإسرائيلي في مخيّمي ((صبرا وشاتيلا)) بمجزرة وحشية رهيبة، ذهب ضحيتها حوالي سبعة آلاف شهيد. وكان ذلك في أيلول ١٩٨٢م وتسببت هذه المجازر في سقوط الآلاف من القتلى بعد اجتياح الجيش الإسرائيلي هذين المخيّمين، ومعه مليشيات الكتائب التي توفرت لها الحماية والتغطية الكافية لهذه العملية الرهيبة.

وقد أثارت هذه الأنباء المروّعة موجات عارمة من السخط والتنديد العالميين، بما فيها الكيان الإسرائيلي نفسه. وتدل هذه المجزرة على حقد الصهاينة ضد الفلسطينيين))[٣].

---

(١) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ١٣٥.
(٢) انظر تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٨٩.
(٣) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر: ٨٩.

وقد صور الشعراء الأحداث التي شكلت المحنة بكل صدق ومرارة. ومن الشعراء الذين وصفوا الحصار والمذبحة أحمد محمد الصديق في قصيدته ((الليل والحصار)) يقول[(١)]:

ليلٌ وذئابٌ وحصارُ ... وقلوبٌ تأكلها النارُ
وعيونٌ زائغةُ الأحدا ... قِ وملءُ الساحةِ أخطارُ
أشباحُ الرهبةِ في الطرقا ... تِ يعربدُ فيها الإعصارُ
أشلاءٌ في كلِّ مكانٍ ... والحقدُ جنونٌ وسُعارُ
الوالدُ عانق طفليْهِ ... فطواه السقفُ المنهارُ
ورضيعٌ يُذبَحُ في أحضا ... نِ الأمِّ وتهوي الأسوارُ
وفتاةٌ يسحبها علجٌ ... فتصيح: الموتُ ولا العارُ
وعجوزٌ هائمةٌ حيرى ... لا دارٌ ثَمَّ ولا جارُ
تتعثر خلف مدامعِها ... بحثاً فتضيعُ الآثارُ
وتعود تعود ووجه الأر ... ض دمٌ وعذابٌ ودمارُ
رحلوا عن دنياهم رحلوا ... غابت في الليلِ الأقمارُ
وتذوب حشاشةُ هذا الكو ... ن أسىً وتضجّ الأقدارُ
تحت الأنقاضِ ضحايانا ... والقبرُ هنا والحفارُ

ويكشف الشاعر الستار عن صورة دامية للمأساة، فالليل الحالك يخيم على الأرجاء، والذئاب تستعدّ للفتك، والحصار مضروب على الناس، والخطر يحدق

(١) نداء الحق: ١١٤-١١٦.

بالجميع، كما أن الموت يرصد كل من يمشي في الطرقات. وأشلاء القتلى تتناثر في كل مكان.

ويتابع الشاعر قصيدته ضارباً أمثلة جزئية للمعاناة التي عاشها سكان المخيّمات الفلسطينية، فيرسم لنا لوحات حزينة تمثل الوالد الذي انهار عليه بيته -نتيجة القصف المتواصل- فمات هو وطفلاه. والأم التي ذبح رضيعها في حضنها، والفتيات اللاتي هتكت أعراضهن، والعجائز اللاتي شردن من بيوتهن، والدمار والدم والموت ينتشر في نواحي البلاد.

وعاد الشاعر إلى عرض الصور الدامية للمأساة فقال[1]:

صبرا وشتيلا يا عطشاً ... للثأر تُراه متى يُسقى؟

شهداء المذبحةِ الكبرى ... والخطبُ يزيد بهم عمقا

بيروت بهم صارت معنى ... تتلظى أحرفُه برقا

يركّز الشاعر حديثه على مأساة صبرا وشاتيلا ويعرب عن ظمئه للثأر لشهداء هذه المذبحة الكبرى التي جعلت اسم بيروت أحرفاً تتلظّى بالنار.

ويختم الشاعر قصيدته بنبرة عالية تحكي الثورة التي تغلي في أعماقه، غضباً وحنقاً على السكوت عن هذه المآسي الدامية. فالغاصب لم يكن ليفعل ما فعله لولا استمراؤنا المهانة والذلة. فكان حالنا كالشاء التي تستسلم للذبح. فإسرائيل

ترتب بقاءها على فناء أهل الأرض الحقيقيين. وهل هناك محنة أخزى من هذه؟ ثم يدعو الشاعر إلى العمل للتحرير واستعادة أمجاد الماضي. إذ يقول[2]:

---

(١) نداء الحق: ١١٦.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

يـــا لحـــنَ المأســـاةِ الـــدامي والصـــدع تجاوزنـــا فَتقـــا
النقمـــةُ تغلـــي في الأعمـــا ق وتشحن بالغضـــب الأفْقـــا
ما كـــان الغاصـــبُ لـــو كنّـــا وأردنـــا العـــزّةَ والســـبْقا
أنســـاق جميعـــاً مثـــل الشـــا ءِ لنُســـلم للـــذبح العُنْقـــا؟
أيـــراد لشـــعبي أن يَفـــنى ولإســـرائيل بـــأن تبقـــى؟
هـــل تشـــهد دنيانـــا أخـــزى مـــن تلـــك المحنـــةِ أو أشـــقى؟
عَـــرَبٌ وعروبتـــهم دعـــوى لا تحمـــل مثقـــالاً صـــدقا
هـــل حقّـــاً نعمـــل لتحريـــ ـــر ونبني مجـــداً هـــل حقّـــا؟

وهناك قصيدة أخرى للشاعر تدور حـــول الموضـــوع نفســـه. يقـــول في مطلعها(١):

أيـــن المواثـــقُ والـــذمام؟ لا عهـــدَ يرعـــاه اللئـــام
هـــذي حصـــائدُ أمـــتي بعـــد التفـــرقِ والخصـــام
بعـــد التخـــاذلِ والســـكو تِ وبعـــد مأســـاةِ الختـــام
هـــو ذا القعـــود عـــن الـــوغى هـــي ذي مراتعُـــه الوخـــام
هو ما تـــرى الـــدنيا وتشْـــ ـــهدهُ مـــن المـــوتِ الـــزؤام

الشاعر في المقطع السابق يعلن النكير على العملاء الذين لم يراعـــوا إلاّ ولا ذمّة؛ فذبحوا أهلهم وأعانوا أعداءهم. ويرجع الشاعر سبب ما حدث إلى الفرقـــة والخلافات بين الأشقّاء الذين شغلتهم خلافاهم عن نصرة إخوانهم المنكـــوبين. ويعلن أن ما حدث كان نتيجة القعود عن الجهاد.

(١) نداء الحق: ١٢٤-١٢٥.

ثم يمضي الشاعر في قصيدته مبيّناً صور المذبحة. فيقول[1]:

يـــا أمـــتي كـــم هـــان قـــد ... رك ذلـــــةً بـــين الأنـــام
أَو يـــــدفن الآلافُ مـــــن ... أبنـــاءِ شـــعبي في الرّكـــام؟
يستصـــــرخون ولا مغيــــــ ... ــــث ويُـــذبحون ولا انتقـــام
أوَيبلـــــغ الإذلالُ هـــــ ... ـــــذا المنتـــهى؟ يـــاللملام!
بـــيروتُ تشـــهد كيـــف لا؟! ... ويضـــيقُ بالجثـــثِ الرّغـــام
ويُبـــاد شـــعبٌ كامـــلٌ ... بالغـــدرِ في جـــنحِ الظـــلام
حـــتى الرضـــيعُ وأمُّـــه ... والشـــيخُ يُـــذبَح والغـــلام
وتســـيل أنهـــارُ الـــدمِ الـــ ... ـــموّارِ تُلـــهب كالضّـــرام

يبرز الشاعر تفاصيل المأساة التي حدثت في لبنان بعد أن يبكّت المتخـاذلين ويدعوهم إلى الثورة. ثم يصف المذابح، حيث دُفن الآلاف، ولم يهبَّ أحد للثأر من القتلة، وأبيد شعب كامل غدراً وحقداً في ظلام الليل، ولم يتورع المعتدي عن قتل الأطفال والأمهات والشيوخ.

وفي نهاية المطاف يوجّه الشاعر دعوة لإيقاظ النيام ثـأراً للأبريـاء الـذين استشهدوا في تلك المجازر الرهيبة. ويستبعد الشاعر الاستجابة فلا حيـاة لمـن تنادي، ثم يتساءل في ثورة: متى تنهض الأمة بالمهام الجسام المنوطة بها؟؛ لتشـفي القلوب الحزينة، وتقضي على البغاة، وترفع راية الإسلام عزيزة خفاقة ((في أعلى مقام)).

---

(١) نداء الحق: ١٢٦.

وهذا الشاعر عبد الرحمن العشماوي[١] يعبر عن صورة الحـــدث الألـــيم. فيقول[٢]:

لبنان جرحكِ في الأحشاءِ يلتهب   و لم يزل يتساقى دمعكِ العـــربُ
جاؤوا إليكِ قـــرارات مزمجـــرةً   أوراقُها في مهبّ الريح تضطربُ
جاؤوا إليك نداءاتٍ سيسمعها الـــ   أعداء، ينضح منها المجدُ والحسبُ
جاؤوا إليك وما للموت أغنيـــةٌ   إلا وكان لهم من لحنِها طـــربُ
أتنكرين؟ ومـــا زَفَّ العـــدوُ إلى   عينيكِ من أرقٍ إلا لــــه شـــجبوا
أتنكرين؟ ومـــا نالتـــك قنبلـــةٌ   إلا، وثارَتْ لها الأشعارُ والخطبُ
الســـامعون، وفي آذانهـــم ثقـــلٌ   والصامتون وفي أفواههم شـــغبُ

يرفع الشاعر صوته عالياً مبكّتاً المتخاذلين عن عون إخوانهم المنكوبين. فلبنان الجريح يئن من وطأة الألم. والأمة تغطّ في سباتها العميق، ولا يكاد يُســـمع لهـــا سوى نداءات وشعارات ترفع، ولا رصيد لها في الواقع. فاستهانوا بجراح إخوانهم واكتفوا بالشجب والاستنكار لممارسات العدو الوحشية.

ثم يعرض لمحات من الماضي الزاهر بالعزة والرفعة، يوم أن كان المسلمون معتصمين بحبل الله، فكان لهم وساماً للمجد، ويتساءل الشاعر في حيرة وألم وتحسّر: ((ماذا قدم العرب؟)) لم يقدموا سوى الشعارات والهتافات التي لا نفع لها.

---

(١) عبد الرحمن بن صالح العشماوي: ولد في قرية عراء بمنطقة الباحة جنوب المملكـــة العربيـــة السعودية، نال الشهادات الجامعية الثلاث العليا. له مجموعة كبيرة من الإصدارات الشـــعرية والنثرية، وله برامج ثقافية في الإذاعة والتلفاز، انظر: مدرسة بدر وشعراؤها: ١٥٠-١٥٤.

(٢) قصائدي إلى لبنان: ١٤.

ويؤكد الشاعر في ختام قصيدته أن لا عزّة إلا بالإسلام، مضمّناً حديثه ما ورد عن عمر -رضي الله عنه- حين قال: ((نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزّة بغيره أذلّنا الله)) وهذا هو واقع الأمة اليوم، فللـه دركّ يا عمر! يقول(١):

لبنان هذا زمانُ الدمعِ فانتحبي ... فأرضُنا منذ طاش السهمُ تنتحبُ
لا تعجبي من ضياعِ المجدِ واحتسبي ... بعضُ الموازين -لو تدرين- تنقلبُ
بالأمسِ كنا نوازي الشهبَ منزلةً ... واليومَ تسخر من إغضائنا الشّهبُ
بالأمسِ كنا بدين الله أوسمةً ... للمجد، واليومَ، ماذا قدّم العربُ؟
غنّوا بألحانِ قوميّاتِهم زمناً ... وجهّزوا ألفَ مركوبٍ، وما ركبوا
تالله ما نزلت بالعُربِ نازلةٌ ... إلا وتفريطُهم في دينِهم سببُ
أعزّهم ربُّهم بالدين لو طلبوا ... في غيره العزَّ ما فازوا وما غلبوا

وليس موقف الشاعر نفسه في قصيدته ((يا خجلة التاريخ)) بأبعد من موقفه في القصيدة السابقة، حيث يفتتح القصيدة بقوله(٢):

((صبرا وشاتيلا)) تصيحانِ ... أواه من جرحي وأحزاني!
ما هذه الأشلاء تملؤني ... رعباً وما هذا الدمُ القاني!

ويمضي الشاعر ليغمس ريشته في نزف روحه وفؤاده قائلاً على لسان ((صبرا وشاتيلا))(٣).

---

(١) قصائدي إلى لبنان: ١٧.

(٢) المرجع نفسه: ٢٤.

(٣) قصائدي إلى لبنان: ٢٤-٢٥.

من دنّس الأعــراضَ في كَنَفــي   ومن بهــذا الخطــب أعمــاني؟
من أنبــت المأســاةَ في طــرفي   من يا تــرى بالرعــبِ واراني؟
مــن بــاعني للمــوتِ ممتشــقاً   سيف الهوى في شــرِّ ميــدانِ؟

وبعد هذه التساؤلات المرّة يأتي الجواب:

لــن يجهــلَ التــاريخُ صــورتَه   (وحشٌ) بدا في ثوب (إنســانِ)

إنها الوحوش الآدمية فتكت بالناس في صبرا وشاتيلا بلا رحمة.

ثم ينتقل الشاعر إلى مقارنة مترعة بالأسى بين ماضي لبنان وحاضره. ففي الماضي كان الفجر مشرقاً فيها على الدوام، واليوم صار فجرها يحمل الموت والقتلى، وكذلك الليل صار وقت الذبح وهو الوقت الذي حدثت فيه المجزرة الرهيبة. يقول[1]:

بالأمسِ كان الفجــرُ يعشــقني   واليومَ يخشى الفجــرُ جثمــاني
بالأمسِ كــان الليــلُ متّكئــي   واليومَ صــار الليــلُ أكفــاني
بــالأمسِ أصــواتٌ تؤانســني   واليومَ هذا الصــمتُ يغشــاني

ثم يتوجه الشاعر باللوم إلى المتقاعسين، إذ يقول[2]:

يا أمــة مــا كنــت أحسـبُها   إلا ســتحميني وترعــاني
كم غادةٍ صاحت وما وجــدت   من يحتويها عــن يــدِ الجــاني
يا ويلنــا مــن ذلــةٍ ســكنتْ   فينــا فصــرنا قــومَ خــذلانِ

---

(١) قصائدي إلى لبنان: ٢٥.

(٢) قصائدي إلى لبنان: ٢٦.

آمالنـــا جفّـــت منابعُهـــا وارتـــدّ عنـــها كـــلُّ ظمـــآنِ
والخطبُ يزحفُ صـــوبَ أمتِنـــا -يدنو إليهـــا- زحـــفَ ثعبـــانِ

يطلق الشاعر صيحته المدويّة من أعماق قلبه المكتوي بنار الحزن والأســى. فيستثير المشاعر الإسلامية ويشحذ العزائم للثأر، مبصّراً الأمــة بــالخطر الــذي يتهددها إن هي استكانت إلى الدعة والراحة.

ولا يقف الشاعر عند حد تقريع الأمة المتقاعسة، وإنما يتعدى ذلك معلــلاً سبب البلاء والهوان بأنه الإعراض عن دين الله، وفقدان الإيمان الصادق، والفرقة والخلافات التي ابتُليت بها الأمة. يقول[١]:

يا ربِّ مـــا حـــلّ الـــبلاءُ بنـــا إلا بـــــإعراضٍ وعصـــــيانِ
نرنـــو إليـــك وفي ضـــمائرِنا آثـــارُ أحقـــادٍ وأضـــغانِ
إنـــا لـــنعلم أن عزتَنـــا وقـــفٌ علـــى صـــدقٍ وإيمـــانِ
لكنّ صـــفَّ القـــومِ منصـــدعٌ كـــلٌّ يســـفّه حكمـــةَ الثـــاني

وفي نهاية القصيدة يدعو الشاعر إلى تدارك الحال التي وصلت إليها الأمـــة؛ بالالتفاف حول كتاب الله حكماً وعملاً، لتقال عثرة الأمة. يقول[٢]:

لن يترعَ المأســـاةَ مـــن وطـــني إلا اجتمـــاعٌ حـــول قـــرآنِ

ويلتقي الشاعر العشماوي مع شاعر آخر هو كمال الوحيدي في الأفكـــار نفسها، فيقدم الأخير لقصيدته ((المجازر)) بقوله[٣]:

(١) قصائدي إلى لبنان: ٢٧.
(٢) المرجع السابق: ٢٩.
(٣) المرجع السابق: ١٧٨.

((تعرض الشعب الفلسطيني منذ الانتداب البريطاني إلى أبشع أنواع القمع والتعذيب والطرد والتشريد من وطنه، والمجازر الوحشية في قبية، دير ياسين، سلمة، أسدود، وأخيراً صبرا وشاتيلا في لبنان)).

ويعزف الشاعر في مطلع قصيدته لحناً حزيناً ضمنه معاناته النفسية جراء ما يرى ويسمع من مجازر وحشية. فيقول(١):

جراحاتٌ بأعماقي ... ونارٌ كيف أطفيها!؟
وآلامٌ وويلاتٌ ... بقلبي لستُ أخفيها
وأناتٌ وأوجاعٌ ... تعالت من مخابيها
وأبياتٌ حزيناتٌ ... تناجيني قوافيها
وأطيار كئيبات ... نضوا عنها خوافيها
إلى أعشاشها حنّت ... إلى الأفراح تبكيها

ويبدأ الشاعر -بعد هذا المطلع الحافل بالوجدان الشعري الذي ينبئ عن الحسرة والألم الممض- في تصوير المذابح والحرب حيث جرت فيها دماء الأهل أمواجاً، والمدافع دكّت الموانئ، والغابات الكثيفة صارت رماداً، والمزارع تجنيها يد العدوان الآثمة، والبيوت غدت ركاماً، وأشلاء القتلى مبعثرة هنا وهناك. فيقول(٢):

(١) طريد الدار: ١٧٨-١٧٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٧٩.

وأمـــواج قـــد احمـــرّت دمـــاءُ الأهـــل ترويهـــا
وشـــطآنٌ غضـــوباتٌ وقـــد دُكـــت موانيهـــا
وصـــحراء مزمجـــرةٌ عبوســـاتٌ ســـوافيها
وغابـــاتٌ محرّقـــةٌ رمـــاداً قـــد أحالوهـــا
وبيّـــاراتُ خـــيرات يـــدُ الإجـــرامِ تجنيهـــا
وأبيـــاتٌ مـــدمّرةٌ ركامـــاً بـــات عاليهـــا
وأشـــلاءٌ مبعثـــرةٌ هنـــا وهنـــاك تشـــويها
وأجســـادٌ مقطعـــةٌ ونـــار الحقـــد تشـــويها

ثم يوجه خطاباً لائماً الأمة الصامتة. فيقول(١):

وأرواحٌ إلى البـــاري شـــكت صـــمتاً وتمويهـــا
شـــكت أغمـــادَ أســـياف نبـــت ذلاً مواضـــيها
شكت مـن ضـيعوا الأقصـى ومـا لبّـوا مناديهـا
وفي لبنـــان أحقـــادٌ تجرعنـــا مآســـيها
((فصـــبرا)) نكبـــة كـــبرى وحـــوش الغـــاب تنفيهـــا
((شـــتيلا)) مثلـــها بيـــدت مجـــازر بـــات مـــن فيهـــا

إن الأرواح التي أزهقت على ثرى لبنان وفلسطين تشكو إلى الباري -جل شأنه- سكوت الأهل والإخوان وعجزهم عن نصرة إخوانهم ومد يد العون لهم. كما تشكو تقاعسهم عن القتال وإغماد السيوف ذلاً ومهانة. كما تشكو هـذه الأرواح من ضيعوا مسجدهم المبارك و لم يلبّوا نداءه المستغيث. وفي لبنان تفـرق

(١) طريد الدار: ١٧٩.

الإخوة جراء الأحقاد والخلافات، مما جرّ عليهم المآسي ومنها نكبة ((صبرا وشاتيلا)) التي أُبيد أهلوهما بأيدي اليهود وعملائهم الخونة.

ويستنهض الشاعر الأمة لتهبّ لنجدة المسلمين في لبنان وفلسطين مستلهماً معطيات معركة حطين المجيدة، ومستنجداً بصلاح الدين القائد البطل. فيقول[١]:

ومن حطين صيحاتٌ	عسى ((الكردي)) يأتيها
فصبراً يا بني أرضي	وكونوا اللحنَ من فيها
وصونوا القبلةَ الأولى	وسودوا في مرافيها
فأنتم أهلُ غاراتٍ	بها دوّت فيافيها

أما الشاعر داود معلا[٢] فقد صور المأساة من خلال قصيدة بعنوان ((صبرا وشاتيلا وبيروت)) يرثي في مطلعها مدينة بيروت، كيف كانت وكيف أصبحت؟. فيقول[٣]:

بالأمسِ كانت ترينا ثوبَها القصَبا[٤]	تختال فيه على أقرانِها عجبا
بالأمسِ أي عروسٍ أنت لاهيةً	تمارس الحبَّ كأساً مدهقاً وصَبا؟

(١) طريد الدار: ١٨٠.

(٢) داود موسى داود معلا: من مواليد قرية المالحة التابعة لمدينة القدس في فلسطين عام ١٩٣٣م. خرج من بلده بعد حرب ١٩٤٨م، عمل مع والده في الأعمال الحرة، و لم يمنعه السن أو العمل من إكمال دراسته الجامعية، له ديوان مطبوع، انظر مختارات من الشعر الحديث: ١٠٠.

(٣) الطريق إلى القدس: ١٣.

(٤) قصّب الثوب: حلاّه بالقصب، وهي شرائط مذهبة أو مفضضة تحلى بها الثياب.

واليوم أي حريق بـــات يأكلـــها يحرّق اللحمَ والأعراقَ والعصَبا؟
كلُّ الخواتمِ ذابـــت في أصـــابعِها وذوّبت بعدها الأقراطَ والـــذهبا

يتحدث الشاعر عن بيروت حديثاً يبين عن مشاعر الألم والحسرة على المدينة التي صورها عروساً جميلة تختال على أقرانها عجباً وتيهاً بحسنها. وهي اليوم رهينة الدمار والحريق.

ثم يذكر الشاعر بأهداف الغرب الحاقد على الإسلام وأهله وتــآمره مـــع إسرائيل؛ لزرعها خنجراً مسموماً في أحشاء الأمة.

كما يندد الشاعر في المقطع التالي بالعملاء والأحزاب الغادرين بإخوانهم مع أواصر القربى بينهم. ويذكّر بصورة المذابح وما حوت من قتل وأشلاء مبعثرة، ثم يقرر بأن لا عزة ولا قيمة للعرب بلا إسلام. فقال[1]:

أهكذا أنـــتِ إســـرائيل ثانيـــةً يريدك الغربُ فينا مرتعاً خصـــبا
وكران للكفر مقرون سلاحُهما وخنجران على أحشائنا ضُـــربا
باسم العروبة أم باسم اليهود أتى حزب الكتائب هذا العار وارتكبا
حقدٌ وقتـــلٌ وأشـــلاءٌ مبعثـــرةٌ ألا يبـــيّن هـــذا أنهـــم غربـــا
ليست عروبتنـــا شـــيئاً نقدســـه إلا إذا كان للإســـلام منتســـبا

أما الشاعر يوسف العظم فله مشاركة متميزة في هذا المجال حيـــث جـــاء عرضه للمأساة على لسان فلسطينية في بيروت تروي قصتها[2]:

---

(١) الطريق إلى القدس: ١٤.

(٢) عرائس الضياء: ٢٧.

ذبحوني من وريدٍ لوريدِ وسقوني المرّ في كل صعيدِ
مزّقوا زوجي فلم أعبأُ بهم ومضَوا نحو صغيري ووحيدي
غرسوا الحربةَ في أحشائهِ فغدا ((التكبيرُ)) أصداءَ نشيدي
دمروا بيتي وهل بيتي هنا؟ إن بيتي خلف هاتيك الحدودِ
وتلفّتُّ فلم أعثرْ على غيرِ أبناء الأفاعي والقرودِ
ذبحوني من وريدٍ لوريدِ غيرَ أني لم أطأطئْ ليهودي

يمثل المقطع الأول من القصيدة مشهداً مؤثراً من معاناة أم فلسطينية يهاجم العدو بيتها فيقتل زوجها وابنها الوحيد بوحشية وشراسة، وما يكون من هذه الأم الأبيّة سوى التكبير والاصطبار. و لم يكتف العدو بذلك، بل دمّر بيتها فصاحت:

((إن بيتي خلف هاتيك الحدود!)) وتتلفت حولها علّها تجد من ينجدها، فلا تجد سوى الأعداء حفدة القردة. وتعلن عن صمودها وعزّها وإبائها مع كل ما يجري لها.

وتتابع الأم قصتها[1]:

ودمي سال على تلك الربا ينثر العطرَ على حمرِ الورود
ولوائي فوق هاماتِ الورى يتحدى في العلا كلَّ البنودِ
قل لمن يلهث في غفلتِهِ ينشدُ السلمَ تمتعْ بالصّديدِ
إن في يافا مواعيدَ لنا وربا القدس لنا بيتُ القصيدِ

(١) عرائس الضياء: ٢٨.

وعلـــى شـــطآنِ حيفـــا موعـــدٌ كيف ننسى في الحمى خضرَ الوعودِ؟
ذبحـــوني مـــن وريـــدٍ لوريـــدِ ودمـــي يجتـــاحُ أحقـــادَ اليهـــودِ

فقطرات الدم من جرح هذه الأم تنبه الأمة إلى تبعاهّا التي ينبغي لها النهوض بها. لتحمل راية الجهاد ((فوق هامات الورى)) متحدية كـل قـوى الكفـر والضلال. وتؤكد في ثورة ضارية أن من يؤثر السلم مع العدو الغادر، فلا جدوى لدعواه الدنيئة. فليس سوى الجهاد يعيد إلينا يافا والقدس وحيفا والأرض المباركة كلّها.

ثم تنظر بتفاؤل إلى الأمجاد الإسلامية مستمدة منها العزيمة والتوثب لإحيـاء هذه الأمجاد في المستقبل الزاهر. تقول[١]:

قـــل لمـــن يحســـبُ أنّـــا أمـــةٌ أنكرت أمجـــادَ ســـعدٍ والوليـــدِ
نحن شعبٌ لم يعدْ يخشى الـــردى أو يبـــالي برصـــاصٍ وحديـــدِ
قطـــع العهـــدَ وفي أعماقِـــه دعوةُ التوحيدِ والـــدينِ الرشـــيدِ
كلمـــا أُطفِـــئَ منـــا قـــبسٌ أشرقَ القرآنُ بـــالفجرِ الجديـــدِ
قـــد رجعنـــا رايـــةً زاحفـــةً بعـــد أيـــامِ ضَـــياعٍ وشُـــرودِ
ومضـــينا نحـــو آفـــاقِ العـــلا يُســـلمُ الرايـــةَ جَـــدٌّ لحفيـــدِ
إنهـــا الجنـــةُ تبغـــي ثمنـــاً عزّ إلا مـــن شـــرايين الشـــهيدِ

تعلن الأم الفلسطينية صمود الشعب وعزمه على الثأر، ماضياً على طريق الجهاد، والقرآن دستوره الخالد. فقد عرف طريقه بعد ((ضياع وشـرود))

(١) عرائس الضياء: ٢٠.

مستشرفاً آفاق العلا والسؤدد، طالباً الشهادة في سبيل الله ثمناً لجنة الله ورضوانه.

وهكذا كانت هذه الهجمة على الفلسطينيين في لبنان مأساة استلهم الشعراء منها قصائدهم، التي أودعوها آهاتهم وحسراتهم من جهة، ونقمتهم وغضبهم من جهة أخرى.

فأكّد الشعراء فظاعة تلك الأحداث والمجازر في حديث تضمّن الألم الذي عصر قلوبهم، والتبكيت الذي يهزّ أحاسيس المتخاذلين. فنرى الشعراء ما أبرزوا الحدث ونددوا به إلا شحذوا العزائم واستنهضوا الهمم، مطالبين بالجهاد والثورة، تعاضدهم العزيمة والثبات، ويساندهم الإيمان بالحق المغتصب، وتؤازرهم الكرامة والعزّة؛ للنهوض من جديد وبناء مستقبل مشرق، يستند إلى الحضارة الإسلامية العريقة التي كنّا بفضلها ربان الكون الذي يقوده إلى شاطئ السعادة والسلام..

وعلى هذا النحو رصد الشعر الإسلامي في هذه المرحلة جميع أحداثها. فسجل سلسلة النكبات والمآسي تسجيلاً كان يتابع من خلاله جزئيات الواقع الحي للمأساة، كما يتابع أثر هذا الواقع في نفوس المسلمين، كما يمكن أن تقفنا على ذلك جملة النصوص المختارة.

الفصل الثالث

الشعر الإسلامي ومحاور الإبداع الشعري

- المبحث الأول: مكانة فلسطين وقداسة المسجد الأقصى.
- المبحث الثاني: كشف طباع اليهود وعدائهم للإسلام.
- المبحث الثالث: استنهاض همم أبناء الإسلام للجهاد لتحرير الأرض المقدسة.

المبحث الأول

مكانة فلسطين وقداسة المسجد الأقصى

لقد سبق تفصيل الحديث في مكانة فلسطين وقداسة أرضها، والأحداث الجسام التي مرتّ بها هذه البقعة المقدسة[1].

وأجمل هذه المترلة فيما يأتي:

- بعث الله -جلّ وعلا- في هذه الأرض كثيراً من الأنبياء عليهم السلام.

- تضم هذه الأرض مدينة القدس ذات المكانة المتميزة في عقيدة المسلم. وأول قبلة توجه إليها المسلمون.

- فيها المسجد الأقصى منتهى الإسراء ومبتدأ المعراج، وثاني مساجد الدنيا وجوداً بعد المسجد الحرام، وهو ثالث المسجدين الشريفين التي لا تشد الرحال إلا إليها.

- وصف الله هذه الأرض بصفات الطهر والقداسة والبركة في مواضع عديدة من القرآن الكريم.

وقد أطلقت أهمية هذه البقعة المقدسة مواجد الشعراء الإسلاميين، مغترفين من هذا المعين الثرّ. فتحدثوا في ثنايا قصائدهم عما تكنّه نفوسهم من إجلال لهذه الديار المقدسة.

---

(١) انظر المبحث الأول من الفصل الأول.

فهذا الشاعر خالد البيطار[١] يجليّ حادثة الإسراء والمعراج فيقول[٢]:

فهل النجومُ الزهرُ تـذكرُ ليلـةً ... فيها تجلّـى موكـبُ المختـارِ؟
لما سرى مـن بيتِـه في مكـةٍ ... للقدسِ أرضِ النخبـةِ الأطهـارِ
ورأى هنـاك الأنبيـاءَ وأمَّهـم ... وتلاقـتِ الأنـوارُ بـالأنوارِ
سبحان من أسرى بـه في ليلـة ... غراءَ رمـزِ النـورِ والإسـفارِ
هي للذين نسوا وتـاهوا عـبرةٌ ... وللجاهلين الـدربَ خـيرُ منـارِ
فيها عروجُ المصطفى عبرَ السّـما ... ولقـاؤه بالنخبـةِ الأبـرارِ
أنعِم بها من ليلةٍ كانـت علـى ... مـرِّ الزمـانِ منـارةَ التـذكارِ

تبين في الأبيات الصورة الجليلة لهذه الليلة المباركة التي تمّ فيهـا الإسـراء والمعراج. حين أمّ المصطفى ﷺ أنبياء الله، ثم عُرج به إلى السماء. فكانت هـذه المعجزة الغيبية منارة على مرّ الزمان.

أما الشاعر عمر الأميري فيبرز مكانة فلسطين في قوله[٣]:

((فلسطينُ)) يا آيةَ الله في الـ ... ـوجودِ ويا روضةً مـن سـناءْ
مقامُ ((الخليـلِ)) وعـزَّ المقـامُ ... وجلّ ((الخليلُ)) أبـو الأنبيـاءْ

---

(١) خالد البيطار: ولد في حمص عام ١٩٤٢م، نشأ ودرس في موطن ولادته ثم انتقل إلى دمشـق وحصل على شهادة أهلية التعليم الابتدائي ثم عمل في حقل التعليم في حمص، وحصل علـى الشهادة الجامعية من دمشق وعمل في التدريس في حلب وحمص، ثم انتقل للعمل في الأردن، وله ديوانان مطبوعان، انظر مختارات من الشعر الإسلامي الحديث: ٢١٦.

(٢) أشواق وأحلام: ٣٨-٣٩.

(٣) من وحي فلسطين: ١٤.

وحضنُ ((البتــولِ)) ومحرابُهـــا ... ومهدُ ((المسيحِ)) صفيّ السـماءْ
ومسرى رسولٍ هدى العــالمين ... ومعراجُه الفــذّ يعلــو العــلاءْ
ليحظـــى بـــأسمى وأغلـــى ذرا ... وأســـنى وأدنى وأرقـــى لقـــاءْ
فلسطينُ يا عروةً بين ((مكـــ ... ـــة)) و((القدس)) خالدةً من مضاءْ
وعهداً مـــن الله في عنـــقِ كـــل ... أبيّ، وأعظِـــم بعهـــدِ الإبـــاءْ
ودَينـــاً علـــى كـــل حـــرّ وفيّ ... يـــروّي ثـــراكِ بحـــرِّ الـــدِماءْ

إنها فلسطين مهد الخليل أبي الأنبياء، ومهد مريم البتول وابنها المسيح عليهما السلام، وأرض الإسراء والمعراج. ويبرز الشاعر رباط القدسية الذي ربط بين مكة والقدس فكلاهما مهد المقدسات وسفر التاريخ الإسلامي، كما يعلن الشاعر عن مسؤولية كل مسلم أبيّ في الحفاظ على هذه المقدسات والذب عن حياضها.

وفي قصيدة ثانية يبرز الشاعر نفسه منزلة فلسطين في إطار من الحسرة والألم مما تعانيه تلك الديار بعد وقوع النكبة. فيقول(١):

أرنو إلى الله والضـــراءُ تُحـــدِق بي ... ونكبةُ المسجدِ الأقصى على حَـــدَقي
على ((الخليل)) وكم ضاعت منائرُها ... في المسجدِ الحرمِ الأسنى من اليقَقِ(٢)
على مرافعِ ((عيسى)) جلّ رافعُـــه ... على المراتعِ أضحت غصةَ الحَلـــقِ
على مرابعِ قدسِ المجـــدِ باركهـــا ... وحولَها اللهُ، وهي اليومَ في الرَّبَـــقِ
مسرى الرسولِ وأولى القبلتين بهـــا ... واحرّ قلباه ماذا للفخـــارِ بَقِـــي؟
مالي أرى الصخرةَ الشماءَ في كمد ... تذوي، وعهدي بها مرفوعةُ العُنُقِ؟
ومنبرُ المسجدِ الأقصى يئِن أســـىً ... قد كان يحبو الدُنى من طُهرِهِ الغَدَقِ

(١) من وحي فلسطين: ٦٥-٦٦.
(٢) اليقق: البياض الناصع.

ويركز الشاعر في قصيدة ثالثة على حادثة الإسراء والمعراج مستوحياً من هذه المعجزة الغيبية الجليلة في ذكراها الأولى بعد حريق الأقصى، ومبرزاً حادث الحريق المؤلم. فيقول(١):

مِـــلْءُ الملائـــك لهفـــة وهيـــام ترنو القلوبُ هوى، وتُحنى الهامُ
أسرى وسبحان الذي أسرى بـــه فذرا الســـماءِ ينيرهـــا الإلهـــامُ
حدث تفرد في الوجودِ جلالُـــه وجمالُـــه وجَـــداه والإنعـــامُ
يا يوم ((معراجِ الرسولِ)) وأنت في كرِّ الـــدهور هدايـــةٌ وســـلامُ
عذراً إذا خنـــق البكـــاءُ تحـــيتي لك، والأبيّ على البكـــاءِ يـــلامُ
لكنه ((الأقصـــى)) وفي نكباتِـــه وحريقه، حبسُ الدموعِ حـــرامُ

كما كان حادث الحريق إطاراً لإبراز قدسية فلسطين ومكانتها لدى الشاعر كمال رشيد، إذ يجلو الشاعر مترلة فلسطين ثالث الحرمين الشريفين، وموطن الإسراء والمعراج. يقول(٢):

يا ثالثَ الحرمينِ حرقُـــك نكبـــةٌ فيها يزيـــدُ الجـــرحُ والإيـــلامُ
يا موطنَ الإسراءِ خصمُك غادرٌ وســـبيلُه التقتيـــلُ والإجـــرامُ
أسفي على الأقصى وقد عبثتْ به نارُ العـــدوّ وقـــد عـــلاه قتـــامُ

وممّن تناول هذا الموضوع في الإطار نفسه، الشاعر كمـــال الوحيـــدي في قوله(٣):

---

(١) من وحي فلسطين: ١٣٢.

(٢) شدو الغرباء: ٣٢.

(٣) هذا الطريق: ٨٠-٨١.

والله لو نطـــق الأقصـــى لأنّبنـــا حيث التخاذلُ بين الشعبِ والدولِ
إن اليهودَ عليه اليومَ قد جثمـــوا حتى يكاد يـــبين الآن كالطلـــلِ
قد دنسوه وعـــاثوا في قداســـتهِ والمنبرُ الفذُّ قد ألقوه في الشُّـــعَلِ
سبحان من بعظيمِ الآيِ باركـــه في سورةٍ بصريحِ القولِ لم تـــزلِ
الحقُّ أبلجُ لكن أيـــن عصـــبتُه؟ أين النفيرُ إلى الأقصى إلى النفلِ؟

ونرى الشاعر نفسه في قصيدته ((مولد الهادي)) يبث مشاعر الحب الممتزجة بالأسى من أرض المسرى، من الأقصى الأسير. فيقول موجهاً حديثه إلى الـــنبي الهادي[1]:

إليـــك الحـــبُّ مـــن قلـــبٍ ولـــوعٍ هـــائمٍ صـــادي
ومـــن مســـراكَ أشـــواقٌ وقـــد أمســـى بأصـــفادِ
مـــن الأقصـــى تحيـــاتي وتَحنـــاني وإنشـــادي

ويرى الشاعر عدنان النحوي فلسطين وقد غلف الأسى والحزن أجواءها وهي التي كانت لؤلؤة الإيمان ودار الجهاد بأروع أمثلتـــه، وأرض الأنبيـــاء. فيقول:

يا فلسطينُ يا ربا المسجدِ الأقْـــ ـــصى حنانيكِ من أسى قتـــالِ
أنتِ حقُّ الإسلامِ لؤلؤةُ الإيـــ ـــمانِ دارُ الجهـــادِ والأمثـــالِ
أنت عهدٌ مضى لأحمد بالأقـــ ـــصى ندياً على جديد الليـــالي
والنبواتُ ومضة مـــن غيـــوبٍ شهدتْه، ووثقـــتْ مـــن حبـــالِ

---

(١) هذا الطريق: ١٩٥.

وها هو ذا الشاعر عصام الغزالي[(١)] ينظم قصيدة في أول يوم من العام الميلادي. فيقول موجهاً حديثه إلى نبي الله عيسى[(٢)]:

نبي الله يا عيسى ... وكان المهد في وطني
وكانت حوله داري ... وداري لم تعد سكني
وعاد الليلُ يا عيسى ... ظلاماً غيرَ مؤتمنِ
وأسرابُ الطيورِ البيـ ... ـضِ قد تاهت لتؤلمني
ورأسُ العام يا عيسى ... سرى في راكدِ الشجنِ

يبث الشاعر شكواه الملتاعة بعد أن غادر موطنه، حيث مهد المسيح -عليه السلام- يخيم عليه ظلام الخوف ورهبة الموت. والطيور البيض رمز السلام لم يعد لها وجود، فرأس العام يأتي والأشجان ما تزال جاثمة على الأرض المباركة.

أما الشاعر محمد التهامي[(٣)] فيناجي القدس مؤكداً مزاياها ومكانتها بين بقاع الأرض فيقول[(٤)]:

---

(١) عصام الدين الغزالي: ولد في المنصورة عام ١٩٤٥م، ودرس في مدارسها ثم التحق بجامعة القاهرة ودرس الهندسة الميكانيكية، ودرس في السعودية أصول الدين. أصدر ديوانين شعريين، انظر مختارات من الشعر الإسلامي: ٢٩٧.

(٢) من أوراق مخطوطة من الشاعر نفسه.

(٣) محمد التهامي سيد أحمد: ولد في المنوفية في مصر عام ١٩٢٠م، حصل على الشهادة العالية في الحقوق، يرأس تحرير مجلة رسالة الإسلام، عمل في المحاماة والصحافة، ومديراً للإعلام بجامعة الدول العربية له عدة بحوث ودواوين منشورة.

(٤) أنا مسلم: ٤٥.

وذكركِ أعيا لسانَ الزمان لعمق الحكايا وطولِ السِيَرْ
أيا قدسُ يا ملتقى الأنبياء ومن ذاق أمرَ السماء فائتمرْ
ويا واحةً منذ فجرِ الوجود تجمّع فيها الهدى وانتشرْ
تربى النبيّون في حجرِها وأرضعت الحقَّ حتى كَبُرْ
ولّما بمكة هلّ الضياء فأعشى قريشاً وزاغ البصرْ
تدلى على القدسِ خيطُ الرجاء وكان الهدى والمنى المنتظرْ
وفُتّح في القدس بابُ السماء وجاء لنا المصطفى بالخبرْ
فيا قدس يا راحةً للقلوب ويا سورةً من طوال السُّوَر
بها خفقة من جناح البراق تَبقّى توهجُها واستمرْ
وأول داعٍ أقامَ الصلاةَ أدار إليها التفاتَ النظَرْ
أيا قدسُ ديس المكانُ الجليل وغطّى على الطهر رجسٌ أَشِرْ

إن لمدينة القدس سيرة عاطرة عبر التاريخ، ومكانة سامية في قلوب المسلمين. إنها ملتقى الأنبياء الذين بلّغوا رسالات ربهم، وحملوا دعوة التوحيد. ومنها انتشرت هذه الدعوة في نواحي الأرض. وحين كُذّب رسول الله من قبل قومه قريش، شرّفه الله برحلة الإسراء والمعراج لتمسح عن نفسه الحزن والعناء. وحملت لنا هذه المنحة الإلهية كثيراً من الأخبار والتشريعات. فكانت هذه الأرض المباركة موطن خفقة جناح البراق، وأول قبلة توجه إليها المسلمون.

ويذكر الشاعر نبيل محمد الأصباشي[1] حادثة الإسراء والمعراج في قصيدته التي أشار فيها إلى تكذيب المشركين لهذه الحادثة رغم كونها دليل صدق رسالة الرسول الكريم. ولكنه الضلال الذي أعمى بصيرتهم. يقول[2]:

وسريتَ نحو القدسِ تلتهمُ الخطا   وعرجتَ نحو ((المنتهى)) عداءَ
فتعجب الجهلاءُ من هذا الذي   أسميتَه المعراجَ والإسراءَ
هل يرعوي قومُ الجهالة بعدما   أنطقتَ فيهم حجةً بكماءَ؟
ها قد سريتَ وقد عرجتَ وإن في   هذا دليلَ محجةٍ بيضاءَ

هذا، وقد أفرد شعراء آخرون قصائدهم للحديث عن مترلة فلسطين وحادثة الإسراء والمعراج. ومن أولئك الشعراء: يوسف العظم، محمد المنتصر الريسوني، أحمد محمد الصديق، عبد الرحمن العبادي.

فالشاعر يوسف العظم يقول في قصيدته ((يا قدس))[3]:

يا قدسُ يا محرابُ يا منبرُ   يا نورُ يا إيمانُ يا عنبرُ
أقدامُ من داست رحابَ الهدى   ووجهُ من في ساحها أغبرُ؟
من لوّث ((الصخرةَ)) تلك التي   كانت بمسرى أحمد تفخرُ؟
ودنس ((المهدَ)) على طُهرهِ   إلا عدوٌّ جاحدٌ أكفرُ
والبغيُ مهما طال عدوانُه   فالله من عدوانِه أكبرُ

---

(١) نبيل محمد الأصباشي: من مواليد حماة ١٩٥٣م. تخرج من جامعة دمشق، وحصل على دبلوم الدراسات العليا، ويعمل حالياً مدرساً في الإمارات، له ديوان مطبوع. انظر ديوانه لحن الجراح: ١٢١.

(٢) لحن الجراح: ١١١.

(٣) في رحاب الأقصى: ١١.

ويواصل الشاعر -بعد أن وصف القدس بهذه الصفات المتعددة- حديثه عنها في معرض دعوته المحرضة على الثورة والصمود في وجه الباغي الأثيم. فيقول[(١)]:

يا قدسُ يا محرابُ يـــا مســـجدُ   يــــا درةَ الأكـــوانِ يـــا فرقـــدُ
سفوحكِ الخضرُ ربـــوعُ المـــنى   وكم دعانـــا للهـــدى مرشـــدُ
أقدامُ عيسى باركـــتْ أرضَـــها   وفي سماها قـــد ســـرى أحمـــدُ
أبعـــد وجـــهٍ مشـــرقٍ بـــالتُّقى   يطـــلُّ وجـــهٌ كـــالحٌ أربـــدُ

ويمضي الشاعر مستعرضاً بعض صفحات التاريخ المشرق في رحاب القدس، فهي موطن البطولات والانتصارات الإسلامية، كما أنها موطن الـــوحي ومهـــد الأنبياء، وهي الأرض المباركة بنص القرآن. يقول[(٢)]:

القدسُ في أفقِ العـــلا كوكـــبُ   تشـــعُّ بـــالنورِ فـــلا تعجبـــوا
أيامُهـــــا بـــــالحقِّ وضـــــاءةٌ   كانت بأطرافِ القَنـــا تُكتَـــبُ
يا روضةً كانـــت لنـــا مرتعـــا   وكوثراً مـــن فيضـــه نشـــربُ
وجنـــةً فيهـــا ربيـــع المـــنى   في ظلـــها أكبادُنـــا تلعـــبُ

* * *

الـــوحيُ والتريـــلُ والأحـــرفُ   والآيُ والإنجيـــلُ والمصـــحفُ
وسورةُ الإســـراءِ مـــا رُتِّلـــتْ   إلا وأسمـــاعُ الـــدّنا تُرهَـــفُ
تبـــاركُ القـــدسَ ومـــا حولهـــا   وصخرةُ القـــدسِ بنـــا تهتـــفُ

---

(١) في رحاب الأقصى: ١٣. والقصيدة متعددة القوافي.

(٢) في رحاب الأقصى: ١٤.

وفي قصيدة ((هوية الأقصى)) يقصر الشاعر حديثه على منزلة الأقصى ومكانته في عقيدة المسلم. فيقول(١):

إنما الأقصى عقيدة ... وسِـامٌ وقصيده
وهو صرحٌ أبتِ العلـ ... ـياءُ إلا أن تُشيده
بارك الله حواليْـ ... ـهِ بآياتٍ مجيده
وهو أرضُ النورِ فيه الـ ... ـمصطفى أرسى سجوده
وهو رمز للمعالي ... زيّن التاريخُ جيده

وبعد هذه اللوحات المشرقة التي عرضها الشاعر يتابع قصيدته مستعرضاً لوحات أخرى من تاريخ الأقصى المبارك. يقول(٢):

عمرٌ يطرق أبوا ... ب العلا يرعى جنوده
وحسامٌ من صلاح الدّ ... ين يجتاح قيوده
فارس الحلبةِ يعلي ... في حمى الله بنوده
إنما الأقصى عقيدة ... في ذرا العزِّ وطيده

وفي قصيدة ((الإسراء والمعراج والفجر الوليد)) للشاعر محمد الريسوني، وصف الشاعر رحلة الإسراء بأنها آية الله. وذكر إمامة الرسول الكريم للأنبياء فقال(٣):

---

(١) قناديل في عتمة الضحى: ١٣.

(٢) المرجع السابق: ١٤.

(٣) صحيفة النور- صحيفة مغربية يرأسها الشاعر نفسه: ١٥- رجب ١٤٠٩هـ، ص٦. والقصيدة متعددة القوافي.

آيـــة الله علـــى الخلـــق زهـــت تسكب الشوقَ بشريان الوجـــودْ
راحت الـــدنيا تغـــني حلمَهـــا ويناغي شـــوقُها فجـــرَ الخلـــودْ
أحمدٌ أســـرى بـــه ربُّ الســـما فاجتباه للهدى يحـــدو العهـــودْ
وطيءَ الأقصـــى يـــؤم الأنبيـــا ءَ يضوي قلبَـــه نـــورُ الســـجودْ

ثم وصف رحلة المعراج إلى السماء آية أخرى من آيات صدق نبوته عليـــه الصلاة والسلام. إذ يقول(١):

يومَ معراجِ الرســـولِ المصـــطفى ألقٌ ينـــداحُ في ليـــلِ الشـــرورْ
شهد الآيـــاتِ تتـــرى فانجلـــت حجبُ الدنيا وأســـتارُ الـــدهورْ
فمضى في مهرجان مـــن ســـنا يعبر الآلاءَ صـــبحاً مـــن عـــبيرْ
غشـــي الأنـــوارَ تزهـــو فـــدنا فتـــدلى، إنـــه عـــرسُ بشـــيرْ
ثبت القلبُ علـــى الحـــق فمـــا زاغت العينُ، وفي النفس عطـــورْ
نعمت روحه بالرضوان وانــــ ـــداح في جسمه فيضٌ من حبورْ

وأخيراً يذكر الشاعر حدثاً مهماً حصل أثناء هذه الرحلـــة، وهـــو فـــرض الصلاة، ويصفها بأنها الضياء والصلة الوثقى بين العبد وربه، والروض الذي ينعش القلب السقيم. يقول(٢):

فرض الله على الخلـــقِ الصـــلا ةَ ضياءً يـــزرع الخـــيرَ العمـــيمْ
صـــلةً وثقـــى ســـناءً مـــن ودا دٍ وروض ينعش القلبَ الســـقيمْ
ربوةٌ رقّـــت كأنفـــاسِ الصـــبا زانها صـــبحٌ كرفّـــات النســـيمْ

(١) صحيفة النور: ٦.
(٢) صحيفة النور: ١٠- رجب ١٤٠٩هـــ، ص٦.

عالمٌ يزهـــو بأضـــواء الهـــدى يصـــل العبـــدَ بإنعـــام نضـــيرْ

ويصور أحمد محمد الصديق هذا الحدث الغيبي في قصيدته: ((الإسراء والمعارج)) ممهداً بالحديث عن حال الرسول الكريم بعد رجوعه من الطائف حزيناً مهموماً. فيأتي الإسراء والمعراج منحة من الله لنبيه؛ لتمسح عن نفسه ما آب به من كرب وعناء في رحلته إلى ثقيف. يقول[1]:

لحظةٌ والـــبراقُ يهـــبط في البـــا ب وجبريـــلُ ممســـكٌ بعنانِـــهْ
قم حبيبَ الرحمَنِ حييت لا تيـــ ـــأسْ وهبّ النبيُّ مـــن أحزانِـــهْ
واعتلى صهوةَ الـــبراقِ وقـــد أو دعَ ســـرّاً في قلبِـــه وكيانِـــهْ
ورنـــا فـــالوجود لوحـــةُ إبـــدا عٍ عظـــيمٍ في عينِـــه وجنانِـــهْ
يلحظ الكونَ لمحةً تتبع الأخـــ ـــرى وذكرُ الرحمنِ فوق لسانِهْ

ثم يمضي الشاعر في استلهام هذه المعجزة الغيبية مبرزاً صفات القدسية والبركة التي أسبغتها هذه الرحلة على القدس والمسجد الأقصى فيقول[2]:

وتجلـــت في ناظريـــه روابي الـــ ـــقدسِ عقداً يزهو بريـــقُ جمانِـــهْ
حيث حطّ الرحالَ في المسجدِ الأقـــ ـــصى فيزداد فيه طهـــرُ مكانِـــهْ

ويتابع الشاعر جزئيات هذه الرحلة من إمامة الرسول للأنبياء واطلاعه على الغيبيات، وما فيها من دروس ومواعظ ووعيد وتشريع. ويختم القصيدة بعرض

(١) نداء الحق: ١٧١.
(٢) المرجع والصفحة نفسها.

صورة الواقع الأليم لأرض المسرى، وما آل إليه حال الأمة من نكوص عن الهدى وفرقة وخلاف.

والقصيدة الأخيرة في هذا المجال للشاعر عبد الرحمن العبادي(١)، ويسير فيها على نسق قصائد الشعراء السابقين الذين استلهموا حادثة الإسـراء والمعـراج. يقول(٢):

شقَّ الفضـاءَ لـه نـورٌ ولألاءُ وفي السماءِ لـه ذكـرٌ وإنبـاءُ
قد أزهرَ الكونُ مزهواً بأحمـدِه وفيه للمرسَل المبعـوثِ إطـراءُ
وكيف لا تحتفي الأكوان قاطبـة بالمرسل الفذّ وهو الغيث معطاءُ؟

ثم يوجه حديثه للرسول الكريم مبرزاً جلال الحدث(٣):

يا سيدي ورحابُ الكون كان لها من نورِكَ الفذِّ أضواءٌ وأضـواءُ
لما سريتَ بليل في الدجى سطعتْ من شمسِ طلعتِك الغـراءِ أنحـاءُ
لقد سريتَ إلى الأقصى فكان له مـن دارةِ العـزّ آيـات وآلاءُ
ومنه جزتَ إلى السبع الطباقِ فما ونى البراقُ وما في الأمرِ إبطـاءُ
بلغتَ في العز شـأناً لا يطاولـه حتى ملائكةُ الرحمنِ لو شـاؤوا

(١) عبد الرحمن علي العبادي: ولد في إمارة دبي عام ١٩٥٢م. درس في المعهد الديني بقطـر، ثم حصل على الشهادة الجامعية في التربية، وعمل مدرساً في مدارس دبي، ثم مديراً لمنطقـة دبي التعليمية، ثم حصل على الدكتوراة. وله ديوانان شعريان، انظر مختارات من الشعر الإسلامي الحديث: ٣٧٥.

(٢) بشائر الفجر: ١٥.

(٣) المرجع نفسه: ١٦.

ويتابع الشاعر قصيدته مستوحياً هذه الحادثة، ومثنياً على الرسول الكريم. ثم يستعرض صورة الماضي المجيد؛ ليبرز بعدها صورة الحاضر المرير، ويستنهض في الختام عزائم رجال الأمة لاسترجاع الأمجاد والمقدسات.

وبهذا نلمح من خلال هذه النظرة لبعض النماذج التي عالجت موضوع مكانة فلسطين وقداسة المسجد الأقصى أن معظم الشعراء الذين تحدثوا في هذا المجال قد اجتمعوا على عدة معان، تكررت في قصائدهم، ذلك أن الموضوع يمثل باعثاً قوياً لدفع الشعوب الإسلامية للجهاد والتضامن لإنقاذ الأرض المباركة من براثن العدو الغاشم.

المبحث الثاني

كشف طباع اليهود وعدائهم للإسلام

منذ اللحظة الأولى التي أشرق فيها نور الإسلام في الجزيرة العربية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومنذ أن وصل الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ليقيم فيها نواة دولة الإسلام، واليهود يكيدون للإسلام وللرسول، ويتربصون بهما الدوائر بغياً وحسداً. مع ما يجدونه في التوراة عن صدق نبوته عليه الصلاة والسلام. ومع اللين والتسامح الذي عامل به النبي الكريم اليهود عندما هاجر إلى يثرب، والمعاهدات التي عقدها بين المسلمين واليهود، فقد ظل اليهود يقاومون دعوة الإسلام، وينشرون الأكاذيب والتشكيك حولها، ويتآمرون ضدها بغية الإطاحة بها والقضاء على قائدها. غير مكترثين بالمواثيق والعهود التي عقدوها مع المسلمين. إلى أن أمر الله رسوله بإجلائهم بالقوة من المدينة المنورة. ومنذ ذلك التاريخ البعيد وحتى اليوم عُرف اليهود بكل لؤم وخسة في الأخلاق وبارتكاب الجرائم الوحشية والهمجية[1].

وقد استغرق الحديث عن بني إسرائيل في كتاب الله السور الطوال في مختلف مراحل النزول؛ يتحدث عن صفاتهم وطباعهم وأخلاقهم وبعدهم عن الحق

---

(١) انظر ملف الانتفاضة: ٤٢-٤٣.

وتحريفهم له، وشدة عداوتهم للمؤمنين[١]. قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٥/٨٢].

وهذه السيرة الوضيعة لليهود مع الإسلام إبان ظهوره وحتى انتشاره وانتصاره ما هي إلا امتداد للسيرة الشنيعة لهم مع الأنبياء والمرسلين قبل الإسلام. والمتأمل في التاريخ لا بد أن يتكشف له بوضوح أن أمة اليهود هي بحق أمة المكر والإثم والشر والعداء. وأن أمة من الأمم لم تشهد ما شهده تاريخ بني إسرائيل من قسوة وعناد وكنود وتنكر للهداية ومقت للمهتدين؛ مما جعلها محطاً لغضب الله وسخطه[٢].

((وفي هذا العصر صادفت أطماع اليهود وآمالهم مواقع مملوكة للمسلمين، وأماكن مأهولة بالمسلمين. ففي بيت المقدس قبلتهم وهيكلهم، وفي فلسطين اختاروا دولتهم، وفي أراضي النيل والفرات محط أطماعهم. فتطلب ذلك منهم -قبل تنفيذ أغراضهم- أن يشحنوا قلوبهم ببغضنا، ويشحذوا سلاحهم لقتلنا، ويعدوا العدة للقضاء علينا، وإلاّ فلا دولة ولا حدود ولا هيكل ولا تلمود))[٣].

وقد تناول الشعراء هذا الموضوع في لمحات يسيرة جاءت في طيات قصائدهم ومن ذلك ما جاء في قصيدة ((شكوى)) للشاعر محمود مفلح، حين يبثّ شكواه المريرة. فيقول[٤]:

(١) انظر على طريق الانتفاضة المباركة: ١٤.

(٢) انظر: قبل أن يهدم الأقصى: ١٥.

(٣) قبل أن يهدم الأقصى: ٢٠.

(٤) الراية: ٣٨.

يا سيدي وأنا المقتولُ من ظمـــإ		والماء يجري كما الياقوت قرب يدي
يا سيدي أمةُ الإســـلامِ مثخنـــةٌ		تعاورهَا سهامُ الغـــدرِ والنكـــدِ
أنّى تلفّتَّ لا تلقى ســـوى بلـــد		يشكو مـــرارةَ أيـــامٍ إلى بلـــدِ
خناجرٌ طعنتْهـــا وهـــي مـــدبرةٌ		ومثلُها طعنتْ في الصدرِ لم تَحِدِ
وإن لي مسجداً عاث اللئامُ بـــه		ومنبراً لم يزل يهتـــزُّ في خَلَـــدي

يصف الشاعر العدو بالغدر ويشكو كثرة الجراح التي تعانيها أمة الإسلام. ثم يصفهم باللؤم والإفساد، فلم تسلم من شرهم المساجد ولا المنابر.

ويبرز الشاعر عمر الأميري ضلال اليهود وما تنطوي عليه نفوسهم من مكر وبغي وضلال وخداع. فيقول(١):

مكرُ اليهود وبغيُهم وضـــلالُهم		بُعثَتْ بـــه الأنصـــابُ والأزلامُ
السمُّ في الدسمِ الشهيّ، وعـــالَمٌ		في الجاهليـــةِ كالســـوامِ يســـامُ

ومن قصيدة ((وجه تقلب في السماء)) ذكر الشـــاعر صـــفات العـــدو في قوله(٢):

نبكي على ((الأقصى)) الأسيـــ		ـــرِ وفي ((الخليلِ)) لنا منـــادِبْ
في ((القدسِ)) في ((الجولان)) في		((ســـينا)) تمزّعنـــا مخالـــبْ
أعـــداؤنا لـــدٌّ وقـــا		حُ البغـــي في ختـــلِ الثعالـــبْ
يســـتقطبون لحربِنـــا الـــ		أشـــتاتَ في كيـــدٍ مواظِـــبْ

---

(١) من وحي فلسطين: ١٣٨.

(٢) من وحي فلسطين: ١٦١.

يصف الشاعر الأعداء بصفات الوحشية والبغي والمكر والخديعة. ويـــذكّر بتجمّعهم لحرب المسلمين وهم شراذم الآفاق. وفي ذلك تعريض بواقـــع الفرقـــة والخصومة الذي تعيشه بلاد المسلمين.

أما الشاعر كمال الوحيدي فيدعو إلى الثورة والخروج من الصمت الرهيب الذي يخيّم على الأمة أمام بغي يهود الغدر والإحن. فقد حان الوقـــت لـــتطهير المقدسات من دنسهم. يقول(١):

يا أمة العُرب(٢) إن اليوم موعدُنا   مع اليهودِ صحابِ الغدرِ والإحنِ
إن لم نطهر أراضـــينا ومقدسَـــنا   من رجسِهم ليتنا في الكون لم نكنِ
أبناؤُنا في غد لن يغفـــروا أبـــداً   هذا التخاذلَ أو يرضَوا بذا الوسنِ

ووقف الشاعر أحمد فرح عقيلان على أساس البلاء الذي حل بالمســـلمين، وجعل العدو يجوس في أقداسهم متبجّحاً متمرداً وهو الذي ضربت عليه الذلـــة والمسكنة، إن أساس البلاء هو استبدالهم بشريعة الإسلام شرائع الضـــلال الـــتي مزقتهم شرّ ممزّق. فقال(٣):

لمـــا تبـــدّلنا شـــرائعَ غيرِنـــا   بشريعة الإسلامِ أصبحنا سُـــدى
تلك المبادئ مزقـــت أعلامنـــا   وغدا بها الشمل الجميع مبـــدّدا
وإذا اليهودي الذليلُ يجـــوس في   أقداسِـــنا متبجّحـــاً متمـــرّدا

---

(١) حنين وأنين عبر السنين: ٢٣٦.

(٢) يخص الشاعر العرب بهذه الدعوة، وإن كان المسلمون كافةً مطالبين بالدفاع عن مقدساتهم، ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر فضل العرب الأوائل في حمل رسالة الإسلام إلى الآفاق.

(٣) رسالة إلى ليلى: ٧٩.

إن الذي كتب اليهودَ أذلّةً   كتب العلاءَ لحزبِه والسؤددا
جيشُ العروبةِ حين أعلن أنها   دينٌ أقام العالمين وأقعدا
واليوم أعلن أنها دنيا فما   صمدت لفئرانِ البريّة شُرّدا

وفي قصيدة ((عيد اللاجئ)) يصف الشاعر نفسه اليهود بالذلة والبغي والطغيان وحب الفساد، معلناً أطماعهم الدنيئة. فيقول(١):

أيُّ عيدٍ وطغمةُ الذلّ تاهوا   واستباحوا جماجمَ الأجدادِ؟
والربوعُ المقدساتُ الغوالي   دنّستها شراذمُ الأوغادِ
والعدوُّ الوضيعُ يسخر مني   ويدوس الرفيعَ من أمجادي
وعريني تختال فيه كلابٌ   تتحدى مخالبَ الآسادِ
معلناتٍ بأن ملك يهوذا   من حمى يثرب إلى بغدادِ

أما الشاعر كمال رشيد فيجيب شاعراً آخر يحنّ إلى اللقاء على أرض القدس ليجتمع شمل الأحبة، فيبادره الشاعر بقوله(٢):

بُدّل الحال واعترتنا سنون   وطُردنا من أرضِنا والمربعْ
أيها الشاعر الكبيرُ اعتذارٌ   فالأفاعي في أرضِنا تتبرقعْ
والأعادي تعدّ كيداً وحقداً   أي حقدٍ من حقدِ صهيون أجشعْ
إن هُزمنا فللزمانِ اختلافٌ   وفِعالُ الرجالِ تبني وترفعْ

إنه يصف المحنة التي يعانيها أبناء الأرض المقدسة؛ فقد أجبروا على الرحيل

(١) جرح الإباء: ٥٥-٥٦.

(٢) شدو الغرباء: ٤٦.

ظلماً وعدواناً وحقداً من العدو الغادر الدخيل، وليس أبشع من حقد بني صهيون. ولكن الأيام دول وما زال الأمل معقوداً على رجال الأمة الأحرار.

ويعلن الشاعر نفسه في قصيدة ((نداء إلى الأحياء)) أن سياسة الغدر والإجرام هي من طبائع اليهود وصفاتهم. فليس من المستغرب أن يتجرؤوا على حرق الأقصى؛ فتلك أمانيهم وأحلامهم في تدميره وبناء هيكل سليمان المزعوم على أنقاضه. كما يعلن أن حربهم مع الإسلام قائمة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ٢/١٢٠]. يقول(١):

يا موطنَ الإسراءِ خصمُك غادرٌ وسبيلُه التقتيلُ والإجرامُ
إن يحرقوك فليس ذلك بدعةً في دينِهم بل إنها الأحلامُ
حربٌ على الدينِ الحنيفِ وإنها لطويلةٌ ما طالتِ الأيامُ
أسفي على الأقصى وقد عبثت به نارُ العدوِّ وقد علاه قتامُ

ويطوف الشاعر الحبيب المستاوي بآفاق العالم ليرى اليهود وقد تحكموا بثروات كثير من البلاد. ويجليّ أطماعهم وما تنطوي عليه جوانحهم من مكر وخديعة. وهم مع تفرقهم في البلاد إلا أن وحدة الهدف قد جمعتهم في فلسطين المسلمة. فكان لهم النصر والسيادة في العالم، وليت المسلمين يتعلمون من ذلك درساً في ثمار التضامن والوحدة. قال(٢):

سادةُ الدنيا يهودٌ مَن ترى يملكُ الماسَ ويُغري بالذهبْ؟
قد بلوناهم فما كانوا سوى أهلَ مكرٍ ومراءٍ وكَذِبْ

(١) شدو الغرباء: ٣٢-٣٣.

(٢) شعراء الدعوة الإسلامية: ٩/١٤٧.

قُطِّعـــوا في كـــل أرضٍ أُممـــا لم يُصِب أوصـــالَهم أيٌّ عَطَـــبْ
وحدةُ الأهدافِ والدينِ اقتضتْ منهمُ التوحيدَ إن خطبٌ حـــزَبْ
سبقوا في العلـــمِ والمـــالِ فمـــا أُهمل الشرطُ ولا ضاع الســـببْ

وفي ضوء ما تقدم من نماذج رأينا أن الشعراء قد أبرزوا فهمهم الإســـلامي لأبعاد المعركة العقدية بينا وبين اليهود، كما فهمها الرسول الكريم وأتباعه والقادة المسلمون الظافرون الذين حرروا المقدسات من نير الكفر والطغيان عبر التاريخ، فلا بد لهذا الفهم أن يأخذ طريقه إلى عقل الأمة المسلمة -بعد طول غياب- وإلى عقول الأجيال لتحرير الأرض المباركة وإعادتها إلى المسلمين طاهرة عزيزة، بعـــد معركة فاصلة، دينية الصميم عَقَدية الأساس.

المبحث الثالث

استنهاض همم أبناء الإسلام للجهاد لتحرير الأرض المقدسة

لما كان الشعر تعبيراً عن وجدان الأمة ومواجدها لذا صار هذا الموضوع باباً واسعاً لإبداع الشعراء. فعبر عن ميل النفوس إلى الأنفة والكرامة والسعي نحو الآمال الكبيرة والذرا الشامخة والدفاع عن الحرمات. فلم يقتصر الشعر في هذه الفترة على التفاعل مع الأحداث ووصف الدوافع والأبعاد وإنما صور حلم الثورة وأمنيات التحرير أملاً في تحول الحلم إلى حقيقة والأمنية إلى واقع معيش.

ومع أغلال الإحباط التي صنعتها نكبة (١٩٦٧م) والتي مثّلت عاملاً مثبطاً إلا أن خيال الشعراء استطاع أن يتجاوز هذه العثرة ناظراً إلى الآفاق المستقبلية نظرة أمل وتفاؤل وترقب، ففاض الشعر هدّاراً في هذا المجال مستنهضاً ومحرضاً. ومن ذلك قول الشاعر أحمد محمد الصديق في قصيدة ((الفجر الآتي))[1].

قادمٌ فجري وإن طال الظلام ليس يثنيه ضبابٌ أو قتامُ
قادمٌ فجري ومن أشواقنا يتلظى في حواشيه الضرامُ
آن يومُ البعثِ وانشق الدجى عن جبين الحق هبوا لا تناموا

---

(١) قادمون مع الفجر: ٢٨.

وبعد هذا المطلع المتفائل بمقدم فجر التحرير، يدعو الشاعر أبناء الأمـــة إلى الوحدة والعمل الإيجابي والوقوف في وجه العدوان فيقول(١):

وانهضوا في الله صـــفاً واحـــداً تنطق الأفعالُ منكم لا الكـــلامُ
كشّـــر الباطـــلُ عـــن أنيابـــه وحمى الإسلامِ في البلوى يضـــامُ
فادفعوا عنكم أعاصـــيرَ العـــدا واتركوا أوكارهم وهي حطـــامُ

ويرى الشاعر فيما يأتي من أبيات أن تاريخ الإسلام عبر العصور تاريخ مجيد زاخر بالانتصارات والعزة والفخار؛ فيـــدعونا إلى اســـترجاع تلـــك الأمجـــاد. فيقول(٢):

رايةُ اليرموكِ فينا مـــا انطـــوت فارفعوها ترتفع للمجـــدِ هـــامُ
وصـــدى التكـــبيرِ في أرجائِهـــا أين من لبّى إذا حان الصـــدامُ؟
في ســـبيلِ الله لا نصـــرَ ســـوى نصرِه، والحربُ بـــذلٌ واقتحـــامُ
هكـــذا ترقـــى ذراهـــا أمـــةٌ هكـــذا يرســـخُ للحـــقِّ دعـــامُ
هكـــذا يـــبرز فينـــا خالـــدٌ وصلاحُ الدين والجـــيشُ اللـــهامُ
هكـــذا تفـــتح آفـــاقُ الـــدنى هكذا والحـــق يحميـــه الحســـامُ
عـــزةٌ تجتـــاح في الله المـــدى وحدةٌ ما عابهـــا قـــطّ انـــثلامُ

ثم يختم الشاعر قصيدته الطويلة بابتهال ضارع إلى الله أن يكون عوناً لجنـــد الحق. ويقرر بأن النصر هو النتيجة البدهية لبذل أسباب النصر. يقول(٣):

---

(١) قادمون مع الفجر: ٢٨.

(٢) قادمون مع الفجر: ٢٨-٢٩.

(٣) المرجع نفسه: ٥٣.

تاقــت الــروحُ إلى أمجادِهـــا   شبّ فيها الوعيُ وانزاح اللثـامُ
ونــداءُ الحــقِّ يــدعو جنــدَه   ويقودُ الصحوةَ الجيــلُ الهمــامُ
يا إلهي كن لهــم عونــاً فمــن   طاب مبداه فما خــاب الختــامُ

وقد وقف الشاعر نفسه طويلاً عند هذا الموضوع فنراه في قصيدته ((رسالة من الأعماق)) يبعث بهذه الرسالة ((إلى المسلمين في العالم بشرى التخلص من نير الطغيان)). فيقول[1]:

بدمي أخطّ رســالتي وأســطّر   وأزفّ مبعــثَ أمــتي وأبشّــرُ
إني أرى عجباً وملءُ مســامعي   كالرعدِ صيحاتُ الرجالِ تكــبرُ
وكأن بركانــاً تفجــر صــاخباً   في كل ناحيــةٍ يصــولُ ويــزأرُ
الشعبُ بالإسلامِ يزحف نافضــاً   عنه الركامَ وبالمطــامحِ يظفــرُ

يرسم الشاعر صورة مستقبلية مشرقة ليوم الثورة والتمرّد على واقع الهزيمة. يوم أن ينطلق الزحف المبارك بركاناً صاخباً يسحق الطغيان ويظفر بالنصر.وبعد أن بثّ الشاعر روح الأمل والتفاؤل في النفوس، التفــت إلى جيــل الصــحوة مستنهضاً. فقال[2]:

الصحوةُ الكبرى ومنشأُ نورِهــا   في القلبِ تغذوها الدماءُ فتكــبرُ
هيا انهضوا ولتنقشع مــن بينِنــا   حُجُب تفــرّقُ شملَنــا وتنفّــرُ
تهفــو إلى رايــاتِكم راياتُنــا   وغداً أزاهرُنــا النضــيرةُ تثمــرُ
ومعاً نسيرُ على الطريقِ تحوطُنــا   عــينُ الإلــهِ بهديــه نستبصــرُ

---

(١) قادمون مع الفجر: ٥١.

(٢) قادمون مع الفجر: ٥٢-٥٤.

ونعود للقـــدسِ الحبيبـــةِ دربُنـــا   بـــدمائنا عـــبرَ الجهـــاد يقـــررُ
هذا منـــارُ الســـالكين شـــعاعُه   يهدي وآيتُـــه العظيمـــةُ تُبـــهرُ
هيا انهجوا نحو الأمـــاني نَهجَـــه   إن الصباحَ على يـــديكم يســـفرُ

وفي ديوانه ((جراح وكلمات)) يستثير العـــزائم في ثـــورة وتصـــميم. إذ يقول[1]:

حطّموا أسطورةَ البغيِ الأثيمـــة   وامحقوا عن أرضِنا تلك الجريمـــةْ
لـــيس للغاصِـــبِ في أوطاننـــا   موطئٌ إن نحـــن وطنّـــا العزيمـــةْ
اصعقوا الدنيا بزحـــفٍ كاســـحٍ   واجعلوا من جنةِ العادي جحيمةْ
واشهدي يا قدس في يوم اللقـــا   جولـــةً للحـــق غـــرّاء كريمـــةْ

يستصرخ الشاعر الأحرار لتحطيم أسطورة العدو الذي لا يقهر، ولا يكون ذلك إلا بالزحف الإيماني في تضامن واتحاد وعزيمة لا تُفلّ. وحينها تكون للحـــق جولة ((غراء كريمة)).

ثم يلتفت الشاعر مناجياً بلاده المحتلة بأنها حمى النور والحرمات، ومنها يستضيء الجندي المجاهد. فهي التي توري في نفسه زند الثورة والعزم الصادق. يقول[2]:

يا بلادي يا حِمى النورِ الـــذي   لو مشى في ميِّت أحيـــا رميمَـــةْ
شعلةُ الإســـلامِ لـــن تطفئَهـــا   نفخةُ العدوانِ أو عصفُ السخيمَةْ
نبِّئـــوا ((خيـــبر)) أنّـــا أمـــة   لم تزل فيها على الظلمِ شـــكيمَةْ
قمـــةٌ رغـــم الأعاصـــير الـــتي   زعزعتْها والسياســـاتِ العقيمَـــةْ

(١) جراح وكلمات: ٢٨.

(٢) جراح وكلمات: ٢٩.

وفي قصيدة ((الفجر المؤمن)) ينظر الشاعر النظرة التفاؤلية ذاتها، فيترقب -في أمل- الفجر المؤمن ويرى فيه إشعاع الأماني والآمال وقد ملأ نورها الآفاق. ويرى خيول الجهاد وقد تاقت إلى الذرا الشامخة. يقول(١):

ماذا تعدّ لنا الغيوبُ؟ كأنني ... أرنو فأبصر ثَمّ فجراً مؤمنا
وتشع ملءَ عيونِه آمالُنا ... مجداً تسطّرُهُ السماء ممكّنا
وإليك يا قمم الرجاء على المدى ... تبقى الصوارمُ مشرعاتٍ والقنا
وخيولُنا أبداً تتوق إلى الذرا ... وكتابنا شمسٌ تضيءُ على الدنى

ومن ديوان ((نداء الحق)) ينشد الشاعر نشيد ((يا أمتي)) مستثيراً العزائم إلى النهوض والأخذ بأسباب النصر. حيث يقول(٢):

النصرُ من عند الإلـ ... ـه فأين إخلاصُ السجودِ؟
بيديه أسبابُ الحيا ... ة وكلُ أسرارِ الخلودِ
عودي إليه وأحسني الر ... جعى وأوفي بالعهودِ
وحذارِ أن تتنكبي ... نهجَ الغطارفةِ الجدودِ
وترسّمي درب المنى ... بالصدق والعزم الأكيدِ
بالعلم والإيمان بالـ ... إقدامِ بالوعي الرشيدِ

يرسم الشاعر في الأبيات طريق الخلاص، فلا عز إلا بالإسلام. الإسلام الصحيح إيماناً وعملاً، والسير على نهج الأسلاف في عصور الإسلام الظافرة، حين نصر المسلمون الله فنصرهم. ثم يتابع الشاعر شحذه للهمم فيقرر أن هذا

(١) جراح وكلمات: ٤٨.

(٢) نداء الحق: ١٢٤.

الطريق وحده السبيل إلى استعادة مكانة الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/١١٠] وهو السبيل إلى الحياة الحقيقية التي تأبى الذل وتؤمن بالحرية. إذ يقول[١]:

هـــذا ســـبيلُكِ فاسلكيـــــــــ ـــهِ وذا مكانـــكِ فاســتعيدي
يـــا أمـــتي أنـــت العريـــــــ ـــقةُ حطمـــي ذلَّ القيـــودِ
ودعـــي المـــآثمَ والمضـــي قـــد آن بعثُـــكِ مـــن جديـــدِ
تتوثـــبُ الآمـــالُ والـــــــ أحـــلامُ في صـــدرِ الشـــهيدِ
بـــين الحـــنينِ ودفئِـــه وتطلّـــعِ الفجـــرِ الوليـــدِ
ويظل بعـــثُ الـــروحِ جســـــ ـــراً خالـــداً عـــبرَ الســدودِ
مـــن قمـــة التـــاريخ مـــن نفحـــات ماضـــيك المجيـــدِ

وفي ديوان الشاعر ((الإيمان والتحدي)) دعوات قوية إلى الجهاد والثورة في وجه العدوان، كما ينبيء بذلك عنوان الديوان. ومنه قوله[٢]:

فتمرّد يا شعب إن كنـــت حيـــا وأبيّـــاً ولتســـقط الأصـــنامُ
الضحايا من القبـــور اشـــرأبّت في ذهول ينشقّ عنـــها الرغـــامُ
وعيونُ السماءِ تشـــفق في حـــد بِ علينـــا وتأسَـــفُ الأيـــامُ
بيعت الأرضُ والكرامةُ ديســـت وإلى الله يشـــتكي الإســـلامُ
وهتافُ الشهيد: لا تنكثوا العهــ ـــد ورائـــي ولتثبـــت الأقـــدامُ
تلك أرضُ الأجدادِ لا تســـلموها لهفَ نفسي أين الأباةُ الكـــرامُ؟

---

(١) نداء الحق: ١٢٥.

(٢) الإيمان والتحدي: ٨٨.

يوجه الشاعر دعوة قوية إلى التمرد على الذل والمهانة والنهوض في عزة وإباء لتسقط أصنام الباطل. ويستدعي صوراً من المعاناة التي يحياها الشعب تحت نير الظلم والطغيان. ويقوّي استثارته للعزائم بإجراء الحديث على لسان الشهيد؛ الذي يهتف بأمته موصياً بالحفاظ على العهد والصمود في وجه البغي.

ولا شك أن هذه الوصية حافلة بالوجدان وحافز إلى الثورة في قوة وتصميم.

ويشفع الشاعر هذه الوصية بنظرة متفائلة إلى المستقبل قائلاً[1]:

يا قيودَ الإرهابِ والعسفِ زولي	وانقشِعْ عن سمائِنا يا ظلامُ
إن فجرَ الإسلامِ لابد آتٍ	ليس فيه إلا الكميّ الهمامُ
ذاك وعدُ السماءِ سجله القر	آنُ وحياً تشدو به الأعوامُ
وغداً تشرق الحياةُ بفتحٍ	عبقريٌّ وتخفقُ الأعلامُ
وتخرّ الجباهُ في ساحة الأقْـ	ـصى ويعلو بعد العبوسِ ابتسامُ

فالفجر آتٍ بإذن الله تحقيقاً لوعد الله بالتمكين لهذا الدين، فيكون الفتح العظيم وتعلو رايات النصر عزيزة خفاقة، وتقام صلاة آمنة مطمئنة في رحاب الأقصى الشريف.

أما الشاعر كمال الوحيدي فيطالب رجال الأمة الأحرار بالثأر؛ ويصور العدو الطاغي وقد دنس الحرمات واستباح المقدسات. وفي ذلك دافع قوي للثورة والرغبة في الثأر، ولكن ويا للأسف من الأمة من يتودد للعدو ويخضع!! ثم يجري

(١) الإيمان والتحدي: ٩٣.

الشاعر حواراً على لسان طفل يستنهض النخوة والإحساس بالكرامة داعياً للثأر ممّن قتل والده، ومعلناً استعداده لخوض المعركة إذا أحجم الكبار. فيقول(١):

أليس المسجد الأقصى إلينا   وحيفا والخليل وأرض سينا؟!
أما للثأرِ في دمكم بقايا   فيدفعكم لدحرِ المجرمينا؟!
أيرضى مؤمنٌ تقديم وردٍ   لأعداءِ الإلهِ الخادعينا؟!
أخي طفلي يقول إليك هيا   إلى صهيونَ لا تترك كمينا
فهذا والدي عنّا تولى   فخذ بالثأرِ واحذر أن تلينا
وإلا فاعطني الرشّاشَ إني   أَبَيْتُ بأن يقيمَ الذلُّ فينا

وتابع الشاعر نداءه المستصرخ للأمة مذكّراً بالأمجاد الماضية، وما كان للمسلمين فيها من قوة وعزة. جاهدوا في سبيل الله فأيّدهم الله بجنود من عنده، فقال(٢):

ألسنا أمةَ الأمجادِ قِدماً   وأهلَ الساحِ دوماً ما حَيينا
فإن وطِئَ العدوُ لنا ثغوراً   حَرصنا أن يظلَّ بها دفينا
ولا تهِنوا إذا ما الخصمُ لاقى   فجندُ الله تحمي المتقينا
وإن غدت المعاركُ عابساتٍ   فشمّر ساعديك وكن أمينا
لتمضي الطائراتُ مطوّفاتٍ   يساقطن القذائفَ والمنونا
وأصواتُ الأراملِ والثكالى   ستحرقُ كلَّ من يَحني الجبينا
تمرد أيها العملاقُ حتى   تكونَ لشعبك الدرعَ الحصينا
وما ترمي فإن الله رامٍ   وعند البأسِ يمنحُك اليقينا

---

(١) أنين وحنين عبر السنين: ٢٢٢.

(٢) أنين وحنين عبر السنين: ٢٢٢-٢٢٣.

ويوجه الشاعر أحمد فرح عقيلان نداءه إلى فتية الفتح عشاق الحرية لبذل أرواحهم في إخلاص ويقين؛ ليلقنوا المعتدي درساً أخيراً. وقدم الشاعر صورة بديعة لمن قدم روحه في سبيل الله، وجعل همه العلياء في حين شُغل غيره بمفاتن الحياة ومباهجها. فقال(١):

يا فتيةَ الفتحِ يا أنوارَ موكِبنا ... يا من بطولاتُهُم فعلٌ بلا خُطبِ
حيِّ الفدائيَ يعطي من قنابلِه ... درساً يطيحُ بهم رأساً على عَقبِ
شتانَ من همُّه كأسٌ وزانيةٌ ... ومن على الذروةِ الشماء في اللهبِ
ليس الذي يُمهرُ العلياءَ من دمِه ... مثل الذي يمهرُ الصهباءَ بالذهبِ

وفي قصيدة ((صرخة من الأقصى)) يرفع الشاعر نداء مستغيثاً مستثيراً للعواطف على لسان المسجد الأقصى. فيقول(٢):

صوتٌ من المسجدِ الأقصى يناديني ... إلى فدائيةِ الإيمانِ يدعوني
يصيحُ والصخرةُ الغراءُ باكيةٌ ... أين البطولاتُ في الغرِّ الميامينِ؟
أبعد أن زفَّني عمرٌو إلى عُمَرٍ ... في هالةِ المجدِ والقرآنِ والدينِ
يعربدُ الكفرُ مخموراً بمئذنتي ... ويستهينُ بقدسي كلُّ ملعونِ

وبعد هذا النداء الصارخ من الأقصى، التفت الشاعر إلى صفحات التاريخ الإسلامي المشرق، في تعبير قوي لاستثارة العواطف وحفز المشاعر، ليترسم الجيل المسلم خطا الأجداد. فيقول(٣):

---

(١) رسالة إلى ليلى: ٨٦- ٨٧.
(٢) المرجع نفسه: ٨٩.
(٣) المرجع نفسه: ٩١.

في القادسيةِ واليرموكِ خالدُنا ... وسعدُنا أعلنوها في الميادينِ
(اللهُ أكبرُ) كم عزّتْ وكم شهدتْ ... في ساحة المجدِ من نصرٍ وتمكينِ
كم جلجلت حول حصنٍ شامخ أشبٍ ... كم رفرفتْ فوق أوربا إلى الصينِ(١)
ودولةُ الظلمِ مهما تبنِ زائلةٌ ... وإن بدت في انتصاراتٍ إلى حينِ

والشاعر كمال رشيد يبعث برسالة يبصّر فيها الجيل الإيماني بسبب الذلة والخضوع الذي تعيشه الأمة، إنه الركون إلى الدنيا والتقاعس عن الجهاد، فيقول(٢):

يا من ركنتَ إلى الحياةِ وطيبِها ... الذلُّ في الدينِ الحنيفِ حرامُ
والحقُّ أبلجُ والحياةُ قصيرةٌ ... فعلامَ خوفٌ إن أتاك حِمامُ؟
((من لم يمت بالسيفِ مات بغيرِه)) ... ولكلِّ نفسٍ في الحياةِ مرامُ
أين الملايينُ الذين نعدّهم ... أوَ ليس فيهم فارسٌ مقدامُ؟
بخلتْ علينا الوالداتُ بمثلِهم ... وأتى على آثارِهم أقزامُ
شقيتْ بنا الأيامُ إذ لم نحيِها ... ولطالما سعدتْ بنا الأيامُ

وبعد هذا اللوم الموجه إلى المتقاعسين يؤكد الشاعر كمال رشيد ما ذهب إليه الشاعر عقيلان من أن في التاريخ الإسلامي خير نموذج يحتذى. فالحقوق التي

---

(١) أشب: التف حوله الشجر بكثرة.

(٢) شدو الغرباء: ٣٣.

سلبت بالقوة لا ترد إلا بالقوة. ثم يستدعي شخصية البطل صلاح الدين علّه يعود ليرى ما حلّ بالبلاد التي فتحها. يقول(١):

نحن الألى خبروا المعــاركَ قــادةً   أيرادُ منَّــا الــذلُّ والإرغــامُ؟
كيف الحقوقُ تضيعُ من أصحابها   إن كان فيهم مبــدأٌ وحســامُ؟
قم يا صلاح وشاهدِ القدسَ التي   حررتَها يزهــو بهــا الحاخــامُ
فلعل سفرَ المجدِ يفــتحُ صــفحةً   فيطــلُ يــومٌ مشــرقٌ بســامُ

وبعد أن أسهب الشاعر عمر بهاء الدين الأميري في الحديث عن نكبــة حزيران وآثارها الوخيمة، عاد ليوقد شمعة أمل تضــيء آفــاق المســتقبل. فقال(٢):

لا يأسَ فالحربُ أقــدارٌ ودائــرةٌ   وإنه طبــقٌ يــأتي علــى طبــقِ
مكبلون، ولكــن في غــدٍ نبــأ   يا نجمُ مَزِّقْ ظلامَ الليلِ وائتلــقِ
غداً سيشرقُ بالإســلامِ طالعُنــا   بدراً وشمساً وتجلو غــرةُ الفلــقِ
والنصرُ بالصبرِ والإيمانِ معقــدُه   والمجدُ بالعزمِ والإعدادِ والســبقِ

إن المسلم لا يعرف اليــأس: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوســف: ٨٧/١٢] فآفاق الغد ستنشق عن نجم أمل متألق يمــزق ظــلام الهزيمة. وبإشراقة القرآن يجتاز الجيل المسلم المحنة إلى شاطئ الأمل المشرق بعــزة النصر.

---

(١) شدو الغرباء: ٣٤.

(٢) من وحي فلسطين: ٧٣.

والنظرة التفاؤلية ذاتها نجدها لدى الشاعر في قصيدته ((سيطول الطريق والنصر آتٍ)) إذ وجه الشاعر دعوة قوية إلى المسلمين للتمرد على واقع الهزيمة لتحقيق النصر، بعد جهاد إسلامي يبدأ من القدس وينتهي بإحدى الحسنيين النصر أو الجنة. فقال[1]:

سيرى الكونُ من تمردنا الجبـــــ ـــار ما يسحقُ الطواغيتَ سحقا
إن للفتحِ موعداً راسخَ العزْ م وسعياً إلى الفداء وسبقا
بيعةٌ في الجهادِ شقت من القد س إلى الخلدِ دربَها الوعرَ شقا
سيطولُ الطريقُ لكن نصرَ اللـــــ ـــه آتٍ وعروةُ الله وثقى

والشاعر شريف قاسم يبث الحمية في نفوس المؤمنين بقوله[2]:

أوّاه ما مات الرجاءُ وفي الربا من بايعوا -دون الهدى- القهارا
العنفوانُ وعزةُ الإيمانِ في أعماقِهم بالنورِ تُضرِم نارا
سيقاتلون الشركَ كيف تبدَّلَت أثوابُه ويمزقون العارا
أوّاه ما متنا فيا راياتِنا رِفّي ويا هذا الفدا كن جارا
سنبيعُ غاليةَ الحياةِ بجنةٍ ويعودُ جحفلُنا بنا كرّارا

إن الأمل في الغد لن يموت في قلوب المؤمنين الأحرار ذوي العزة والإباء. فهم الأمل وهم الثائرون لقتال الشرك بشتى صوره وأثوابه، وهم الذين باعوا الحياة الدنيا واشتروا جنة الخلد.

(١) من وحي فلسطين: ١٦٧.

(٢) متى تعودون؟: ٦٧.

ثم يتابع الشاعر استنهاضه للحمية وإذكاءه للغيرة. فيقول(١):

اللهُ أكــبرُ لــن نعــيش أذلــةً ... جئنــا لكــل فضــيلة نتبــارى
بالدينِ تأتشبُ القلــوبُ أخــوةً ... وبغــيرهِ ذقنــا الحيــاةَ مَــرارا
بالدين تهتــزُّ النفــوسُ أصــالةً ... ويعودُ ودقُ ســحابِها مــدرارا
بــالله بــالقرآنِ كنّــا أمــةً ... وهدى الرسول يقودنــا أحبــارا
أبــداً ولــن تحيــا بعــزٍّ أمــتي ... إن لم تحكّــم بينــها الأنــوارا

يقرر الشاعر في الأبيات أن النصر لا يتحقق إلا بعودة صحيحة إلى الــدين القويم وإلى الكتاب الكريم والثقة بالله جل شأنه، وحينها تهتز النفوس لتنفض عنها غبار الذلة والخنوع، لتعود أصيلة عزيزة ترفض الهوان وتتطلع إلى العزة والنصر.

وفي قصيدة ثانية يؤكد الشاعر ما جاء في أبياته السابقة من رســم لطريــق النصر والعزة. إذ يقول(٢):

ما حرّر الأقصى السجينَ مهــرّجٌ ... أو عاش للجُلّى أخــو خســرانِ
والقدسُ غافيةٌ علــى أحزانِهــا ... تشكو المصابَ المــرَّ للركبــانِ
للمــؤمنين بــربهم وبــدينِهم ... وجهاد هذا الجيــلِ كالفرســانِ
فإذا بها اختضبَ الترابُ بــدافقٍ ... من كل قلــبٍ طــاهرٍ حَــرانِ
وتجاوبت أصــداءُ كــلِّ كتيبــةٍ ... تأبى القعودَ على الهــوان الجــاني
وتدافعتْ للموت عــبرَ ملاحــمٍ ... وعلا مع التكــبير كــلُّ لســانِ
إذ ذاك تنهدّ القــلاعُ وينجلــي ... صبحُ الخلاص بأوجهِ الشــجعانِ

(١) متى تعودون؟: ٦٨.

(٢) المرجع السابق: ٨٨-٨٩.

وتعود للأقصى على وهْجِ القنــا رايأتُنــا ميّاســةَ الخفقــانِ
فلتنطلــقْ أفواجُنــا وســلاحُها ســيفٌ يوشّــيهِ ســنا القــرآنِ

يرسم الشاعر لوحة مشرقة للمستقبل، فيصور القدس وقد شكت ما بها إلى المؤمنين الأحرار المتعطشين إلى يوم الثأر، فإذا هم يهبّون إلى نجدتها مخضبين الثرى بدمائهم الزكية، وتتدفق الكتائب من كل حدب وصوب يحدو ركبها صوت التكبير فتنهدّ قلاع الطغيان ويتجلى صبح الخلاص، وتعود راية الإسلام عالية خفاقة في سماء الأقصى، فليس سوى الجهاد يعيد القدس عزيزة أبيّة.

وفي قصيدة ((على طريق الفداء)) يعلن الشاعر محمد المنتصر الريسوني ثورته على البغي وانطلاقه نحو الثأر. فيقول[1]:

بمضــائي أســحقُ البغـــ ـــيَ وأوغــادَ العنــادِ
مــن جراحــي أزرع المــو تَ بأنفــاقِ الفســادِ
مــن معانــاةِ الثكــالى في خيــامٍ وبــوادِ
أصــنع العــزَّ طيوبــاً تتفيّاهــا بــلادي
مــن دمــي أنســج نصــراً تلــو نصــرٍ في امتــدادِ
وإلهــي وكتــابي في الرزايــا هــو زادي
وعلــى دربِ النبــوّا ت ألاقــي كــلَّ عــادِ
لا أخــاف الهــولَ والقــر آنُ يحــدو للجــلادِ
هــو في الأعمــاق عــزمٌ وعلــى الأدهــارِ هــادِ

(١) على درب الله: ٤٥-٤٦.

ثم يسجل الشاعر عزمه على الجهاد، ورفضه حياة الذل. قائلاً[١]:

إنـــي صـــانعُ مجـــدٍ في ســـــهولٍ ووهـــــادِ
ففلســــــطينُ تسابيـــــــ ــــــح الأمـــاني في فـــؤادي
ســوف لا أطــوي جنــاحيّ علـــــى ذل الكيـــــادِ
كبريـــاءُ الجـــرحِ أملـــتْ عهـــدَها في كـــلِّ نـــادِ
يـــورق الصـــبحُ بـــ (يافـــا) مـــن بطـــولاتِ جهـــادي

ومن قصيدة أخرى للشاعر نفسه نراه وقد وجّه نداءه إلى أمته محرضاً إياها على الصمود، والتمسك بالقرآن الكريم فهو الصباح المرتجى والهادي إلى المعـــالي يقول[٢]:

يا أمتي قرآنـــكِ الهـــادي تشـــدّ كِ للمعالي الخالـــداتِ ذخـــائرُهْ
تتطلعين إلى الصـــباحِ المرتجـــى وصباحُك الورديُّ غرَّد طـــائرُهْ
ثوري فأولى القبلتين ومربعُ الـــ ـــعزِّ الأثيلِ غدا الشُّرودُ يساورُهْ
مسرى النبي محمدٍ سبحان مـــن أسرى به ليلاً تفـــاوحَ عـــاطرُهْ
ثأر الجراحِ يصيحُ يصرخُ غاضـــباً أين المكارمُ والإبـــا ومفـــاخرُهْ
إن الجهادَ طريقُنـــا نحـــو الســـنا حيث العلا الأبديّ يورقُ ناضرُهْ
نُرسي به فوق البسيطةِ منهجَ الـــ إسلامِ نُعتقُ مـــن تَقـــتَّمَ نـــاظرُهْ
فإذا الحياةُ مواكبُ الأعراسِ تنـــ ـــشر ظلَّها أمناً تجود مـــواطرُهْ

---

(١) على درب الله: ٤٦.

(٢) مختارات من الشعر الإسلامي الحديث: ١٩٢.

ويهيب الشاعر محمد التهامي بأبناء الإسلام أن يمضوا إلى الجهاد، وينفضوا عنهم غبار الدعة والاستخذاء، فالمكارم لا يطلبها النائمون. يقول[١]:

داعي الجهادِ دعا الغداةَ جموعَكُم ... فتهيؤوا واستنفِروا النوّاما
وتخيروا للموتِ كلَّ وسيلة ... ضلّ الذي حسب الجهادَ كلاما
يا غارس الأوهامِ حسبُك جانياً ... أن تحصدَ الأضغاثَ والأوهاما
إن الذي طلب المكارمَ نائماً ... وجد المكارمَ كلَّها أحلاما

ويندد الشاعر بالمتقاعسين عن الجهاد خوراً وانهزاماً. فيقول[٢]:

يا نائماً إن الجهادَ فريضةٌ ... فوق الفرائضِ كلِّها تتسامى
إن صمتَ أو صليتَ غيرَ مجاهدٍ ... فتَّ الصلاةَ وما كسبتَ صياما
إن لم يقمْ للحق شعبٌ مؤمنٌ ... جعل الشهادةَ في الجهادِ مراما
أكلوه وهو على المذلةِ نائمٌ ... ورموه في عرضِ الطريقِ حُطاما

ويدعو الشاعر محمد نبيل الأصباشي إلى نبذ حياة الدعة والراحة وسلوك طريق الجنان، طريق الجهاد في سبيل الله. وذلك في قوله[٣]:

خلِّ عنك الهوى وغنجَ الحرائرْ ... والتمس للوغى سبيلَ المخاطرْ
والتمسْ للجنانِ رفرفَ عدنٍ ... سندسي الرياضِ زاهي الأزاهرْ
واهجر العازفات لحنَ التصابي ... إن لحنَ الأحرارِ عزفُ البواترْ
وصليلُ السيوفِ أعذبُ وقعاً ... من غناءِ المخدَّرات الحرائرْ
يالَثُكل الأقصى ينادي وحيداً ... مستغيثاً ولاتَ حين مُناصرْ

---

(١) أنا مسلم: ٤١-٤٢.
(٢) أنا مسلم: ٤٢.
(٣) لحن الجراح: ٨٨-٨٩.

ويعقد الشاعر مقارنة بين ماضي الأمة الزاخر بالأمجاد وبين حاضرها المترع بالنكبات، علّ هذا يوقظ الحمية والغيرة ويحفز الأحفاد على المضي على إثر الأجداد. يقول[١]:

أين ذاك الفتى سليل بني أيّـ ـوب يزهو بزاحفات العساكرْ؟
أين بيبرسُ والفوارسُ تندا حُ سراعاً وعاصفُ الموتِ هادرْ؟
ما لتلك الأمجادِ غاضت فأضحتْ يوم بادت كأنها طيفُ خاطرْ؟
إيه يا ((قدسُ)) لم يعد سيفُنا اليو م فريّاً وكان بالأمسِ باترْ
لم يعد سيفُنا يصدّ الأعادي بالمنايا وكان للموتِ قاهرْ
لم يعد ينشد العلا وقديماً كان يهوى العلا ويشدو المآثرْ
إيه يا قدسُ شيِّعي حتفَ قومي واعزفي يا جراحُ نزفَ الضمائرْ

تلك هي أبرز النماذج التي تقفنا على معاني العزة والإباء لدى الجندي المسلم الثائر على الظلم، الحريص على الشرف والكرامة، والذي يعد الثأر غايته وواجبه. فيتحدى كل مشقة، ويأنف المذلة والاستسلام ليحيا الحياة الحقيقية ويتخلص من براثن الطغيان وما فيه من إهدار لآدمية الإنسان. فكانت هذه المعاني التي تكررت على ألسنة الشعراء مستوحاة من القيم والمثل الإسلامية.

ومن اللافت للنظر حرص الشعراء على التغنّي بالأمجاد الماضية وإحيائها لبلورة الشخصية وحفز أبناء الأمة على إرجاع العزّ السالف والسير من جديد في ركب الحضارة الإنسانية الراقية، واستلهام الانتصارات خطةً للعمل المقبل[٢].

---

(١) المرجع نفسه: ٨٩-٩٠.

(٢) انظر الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية: ٧٩-١٧٦.

كانت هذه المحاور الثلاثة هي أهم ما دار حوله إبداع الشعراء في هذه المدة (١٩٦٧م-١٩٨٧م). فقد اضطلعوا بدورهم في تعبئة الأمة للوقوف في وجه العدوان ومقاومة المحتل الغاصب بكل وسيلة. فألقوا الضوء على مكانة هذه البقعة من الأرض، وكشفوا خطر اليهود وتاريخهم الأسود، ثم رفعوا صوتهم محرضين على الثورة والصمود في كلمات تنضح بالمشاعر الحماسية الحارة. فكانت الانتفاضة (١٩٨٧م) باكورة ثمار هذه الدعوة الوجدانية الحماسية، وكانت إشراقة شعر الانتفاضة بسماته المتميزة، مما سنبينه -إن شاء الله- فيما يأتي من صفحات.

الفصل الرابع

الشعر الإسلامي
واستلهام قيم الانتفاضة

- المبحث الأول: الابتهاج بالانتفاضة والأمل بالنصر والعودة.
- المبحث الثاني: رثاء الشهداء وتهوين الموت في سبيل العقيدة.
- المبحث الثالث: الحل الإسلامي هو الطريق لإنقاذ فلسطين.

مقدمة

في ((٨ كانون الأول ١٩٨٧م، وأثناء عودة عمال قطاع غـزة خرجت مقطورة من مستوطنة ((إيريز)) وانحرفت إلى الشارع الموازي لتحطم سيارتين مما أدى إلى مقتل عدد من الفلسطينيين من مخيم جباليا، وجرح آخرين))[١].

وبعد هذا الحادث دعا الشباب المسلم كافة سكان المخـيم للمشـاركة في جنازة الشهداء. وتحولت إلى مظاهرة قادها شباب حركة المقاومة الإسلامية[٢].

فكانت هذه الحادثة ((الشرارة التي أشعلت الفتيل، بقرار حركـة المقاومـة الإسلامية، بتصعيد الانتفاضة المباركة))[٣].

واستمرت التظاهرات قوية صامدة بالرغم من الممارسات القمعية من قبـل الجيش الإسرائيلي[٤].

---

(١) القضية الفلسطينية من منظور إسلامي: ١٧٣.

(٢) انظر الانتفاضة المباركة ومستقبلها: ٥٢.

(٣) المرجع السابق: ٥٣.

(٤) انظر القضية الفلسطينية من منظور إسلامي: ١٨٤- وانظر: تفصيل ذلك في المبحث الثاني من الفصل الأول.

المبحث الأول

الابتهاج بالانتفاضة والأمل بالنصر والعودة

تُعَدُّ الانتفاضة في الأرض التي باركَ الله فيها للعالمين نقطة تحول مهمة وبارزة في التاريخ الفلسطيني. فقد أحيت الأمل في وجود أمة ظن كثير من النـاس أنـه أهيل عليها التراب منذ زمن طويل، إلا أنها باقية وستظل كذلك إذا رجعـت إلى شريعتها وأشعلت جذوتها في قلوب المسلمين كافة؛ ليصبحوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

فجاءت الانتفاضة مفاجئة القاصي والداني، بعظمة أولئك الأبطال الـذين أنطقوا الحجر ليعلن نقمته على الصهاينة، ويذيقهم المـوت في حـين عجـزت الدبابات والطائرات العربية عن إطلاق قذائفها للذود عن حياض المقدسات. فما أروع شجاعتهم واحتسابهم لأرواحهم عند الله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/٤٠].

وقد كان العدو يعتقد أن هذه الثورة الجهادية ما هي إلا سـحابة صـيف سرعان ما تنقشع، إلا أن أبطال الانتفاضة أثبتوا للعالم كله أن هذه الأمة لن تموت مهما كانت الظروف قاسية. فاستمرت الانتفاضة قوية شاملة متصـاعدة ذات روح جهادية لا تعرف الخوف ولا اليأس ولا الأهداف الآنية المحـدودة. وقـد

تطورت أسلحة الأبطال من حجارة إلى مقاليع إلى قنابل غاز وزجاجات حارقة وسكاكين[١].

وقد حفل الشعر الإسلامي بعديد من القصائد حول هذا الموضوع، فكانت هناك مؤلفات بأكملها تتحدث عن الانتفاضة وعن أبطال الحجارة، ومنها:

ديوان الانتفاضة للشاعر الناقد أحمد عبد الرزاق الخاني[٢]، وقد ضم هذا الكتاب بين دفتيه عديداً من القصائد التي قيلت في الانتفاضة المباركة، ومنها قصيدة المؤلف نفسه، بعنوان: لغة الحجارة[٣]:

ذكرى حرابِ الغادرينْ ... هتفت على الوترِ الحزينْ
فتمرَّد الإعصارُ يزأر بالعرينِ المستكينْ
من نفحةِ الخدِّ النديّ ... سرى عبيرُ الظافرينْ
تعطي دماؤهمُ أكاليلَ الكرامةِ كلَّ حينْ
فإذا الجهادُ يشب من ... شفقِ الهداةِ الباسلينْ
وإذا بأحفادِ الملاحمِ في الوغى مستبسلينْ

يصور الشاعر اشتعال جذوة الانتفاضة والدوافع التي أضرمتها. فحراب الغادرين التي ما فتئت تغرز في أجساد أبناء فلسطين هي التي فجرت الثورة.

---

(١) انظر: ملف الانتفاضة: ٧٠-١٢٥.

(٢) أحمد عبد الرزاق الخاني: ولد في حماة وبدأ دراسته فيها، ثم حصل على الشهادة الجامعية في اللغة العربية وعلوم التربية في جامعة دمشق، عمل في التدريس في سورية والسعودية وما يزال حتى الآن. له مؤلفات عديدة في الشعر والنقد وأدب الأطفال، انظر ديوان الشاعر: لحن الجراح.

(٣) ديوان الانتفاضة، دراسة أحمد الخاني: ١٠.

فسالت الدماء الزكية فداءً للمقدسات ولكرامة المسلمين، وانطلق أحفاد الملاحم إلى المعارك حاملين أرواحهم على أكفّهم.

ثم يعبر الشاعر عن إسلامية المعركة لأن الطريق إلى النصر إنما يمر عبر القوة ومن خلال الالتزام بكتاب الله، فيجعل الشاعر سورة الأنفال وما فيها من أمور الجهاد رمزاً للالتزام بالمنهج القويم[1]:

وتفجـــر البركـــانُ يثـــــ ـــأرُ مـــن جنـــونِ الغاصـــبينْ
فـــإذا بأبطـــالِ الحجـــا رةِ للمنيّـــــةِ بـــــاسمينْ
الرعـــبُ؟ مـــات الرعـــبُ في دربِ الأبـــاةِ الثـــائرينْ
رضـــعوا الشـــهامةَ بالإبـــا ءِ زكـــا بـــذلِ الناهضـــينْ
وهوى الفـــؤادُ علـــى جســـو رِ المـــوتِ هـــزّ الراقـــدينْ
فأعـــادهم أُسْـــداً تزمـــــ ـــجرُ في وجـــوهِ الحاقـــدينْ

ويختم الشاعر القصيدة بإسباغ الحياة على الأقصى وقبة الصـــخرة فيراهمـــا مستبشرين بهذه الوثبة الجهادية. يقول[2]:

فالمســـجدُ الأقصـــى بـــدا بالبـــذلِ وضّـــاءَ الجـــبينْ
والقبـــةُ الشـــمّاءُ تبـــــ ـــسم عبر مـــوجٍ مـــن أنـــينْ
لغـــةُ الحجـــارةِ ترجمـــتْ إحســـاسَ شـــعبٍ لا يلـــينْ
صـــرختْ تقـــول لأمـــتي: هـــذا طريـــقُ الخالـــدينْ

(١) ديوان الانتفاضة: ١٣.

(٢) ديوان الانتفاضة: ١٤.

ويضم هذا الديوان قصيدة للشاعر عبد الرحمن العشماوي يستهلها بقوله[١]:

أبتاه ما زالت جراحي تنزفُ والليلُ أعمى والمدافعُ تقصفُ

وبعد هذا المطلع الباكي يبرز الشاعر صوراً من المعاناة المريرة على لسان الطفل الفلسطيني، ثم يبدأ في تصوير الانتفاضة بعد أن مهد لها بذكر الدوافع[٢]:

ها نحن يا أبتي نعيدُ لقومِنا شرفَ الدفاعِ عن الحِمى ونشرّفُ
طال انتظارُ صغارِكُم فتحركوا لما رأوا أن الكبارَ توقفوا
وتلفتوا نحو السلاحِ فما رأَوا إلا الحصى من حولِهم تتلهفُ
عزفوا بها لحنَ البطولةِ والحصى في كفٍّ من يأبى المذلةَ تعزِفُ

يعبر الشاعر على لسان الطفل الفلسطيني عن ابتهاجه بالانتفاضة لكونها رمزاً للإباء والعزة. فالصغار تحركوا حين توقف الكبار، والحجارة تتلهف إلى الأيدي المجاهدة لتعزف بها لحن البطولة.

ويتابع الشاعر قصيدته معبراً عن عدالة قضية أولئك الأبطال الذي غدت الحجارة لغتهم، بعد أن أسكت الخنوع أصوات المتخاذلين، الذين شُغلوا بخلافاتهم عن حماية مقدساتهم، فيقول[٣]:

هذي الحجارةُ يا أبي لغةٌ لنا لما رأينا أننا لا ننصَفُ
لما رأينا أن أمتَنا على أرضِ الخلافِ قطارُها متوقفُ

(١) ديوان الانتفاضة: ١٥.

(٢) المرجع والصفحة نفسها.

(٣) ديوان الانتفاضة: ١٦-١٧.

بيني وبين حصى بلادي موعــدٌ ما كان يعرفُه العــدوُّ المرجــفُ
يتعوذُ الرشّــاشُ مــن طلقاتهــا ويفرّ منها المســتبدُّ الأجــوفُ
واجهتُ يا أبتِ الخطوب وعُدّتي قلبٌ عصاميٌّ وحــسٌّ مرهــفُ
وتوجــهٌ لله يجعــل هــامتي أعلى وإن جار الطغاةُ وأســرفوا

أما الشاعر أحمد سالم باعطب[1] فقد هزته الانتفاضة وحاول أن ينفذ إلى ما وراء الوقائع ويستشرف آفاقها فهو يقول[2]:

ورأيــتُ أطفــالي وفي أيمــانهم شهبٌ تخطّ شــهامتي ومضــائي
أسَرَ الزمانَ جهادُهم فــإذا بــه راوٍ ورســام لهــم وروائــي
لما خوت مهجُ الرجالِ من الهدى وتمرَّغــت في الزيــغِ والأهــواءِ
وعدتْ على كَرمي الثعالبُ جهرةً وتسلّل الــذؤبانُ بــين الشّــاءِ
واعتل ميدانُ البطولــة واختفــى منه الكمــاةُ وغــصَّ بالجبنــاءِ
شدّت إزارَ الجدِّ كــلُّ خريــدةٍ وشدا الصغارُ ملاحمَ العظمــاءِ
في كل ثانيةٍ يغير علــى العِــدا حجرٌ يجلجــل: إنــني لفــدائي

يرى الشاعر الانتفاضة المباركة دليلاً على الكرامة والشهامة والمضاء. فجهاد أولئك الأبطال أسر الزمان وصار يروي قصص البطولة، ويرسم ألــوان العــزة

---

(١) أحمد سالم باعطب: من مواليد ١٣٥٥هـ في جدة في السعودية، حصل على الشهادة الجامعية في التجارة من جامعة الملك سعود. عمل مدرساً ثم مدققاً في الخطوط السعودية، ثم عمل في مؤسسة النقد العربي السعودي، حتى أحيل على التقاعد، له ثلاثة دواوين مطبوعة. ومجموعات شعرية تحت الإعداد. (من سيرة ذاتية مرسلة من الشاعر نفسه).

(٢) ديوان الانتفاضة: ٣٢.

والشمم. في حين تخاذل الكبار، وجبنوا عن لقاء العدو متشاغلين بأهوائهم وضلالهم مما جرّأ العدو عليهم وعلى حرماتهم. ويشيد الشاعر بجهاد نساء الأرض المباركة ومشاركتهن الفعالة في الانتفاضة. ثم يُجري الحديث على لسان البطل الفلسطيني. فيقول[1]:

هذي الحجارة باليقينِ جلوتُها ... وسقيتُها من شيمتي ووفائي
ليست حصى لكنْ مشاعلُ وثبةٍ ... ونيازكٌ تأسو لواعجَ دائي
شهدتْ معي بيضَ السنينَ وأدركتْ ... غصصَ الكفافِ وندرةَ الخلصاءِ
ثارت غِضاباً حين بات مصيرُها ... ما بين سِمسارٍ وبين مرائي
خلعت جلاليبَ السكونِ وأضرمتْ ... نارَ الفداءِ فأطفأتْ بُرَحائي
ليت الأُلى نكصوا على أعقابِهم ... درسوا سماتِ النبلِ في حَصبائي

إن المجاهد يستمد القوة من يقينه بالنصر والعزة للمؤمنين وإن طال زمن الجهاد. وهذه الحصى تشنّ على العدو ثورة بسقوطها كالنيازك معلنة وفاء البطل لأرضه ومقدساته. فقد شهدت هذه الحصى أيام الرخاء والشدة فثارت غاضبة حين حاول العملاء بيع الأرض إلى العدو الغاصب، فأُضرمت نار الفداء والنبل فكانت مبعثاً للبهجة في النفوس التوّاقة إلى الغد الظافر.

والقصيدة الأخيرة التي أختارها من ذلك الديوان هي للشاعر الأردني يوسف أبو هلالة في قصيدته ((حاذر أن تساوم))، ويستهلها بالحديث الموجه إلى غزة

(١) ديوان الانتفاضة: ٣٤.

قلب الانتفاضة فيرى أن هذه الثورة تضمد جرح الهدى الغائر، وتفضح الصمت الذي يخيّم على الأمة وتعلن الحق الذي يواريه العدو الغاصب. فيقول[(١)]:

ضمِّدي جـــرحَ الهـــدى الغـــا ئـــرَ يـــا غـــزّة هاشـــمْ
وافضحي الصمتَ الـــذي شـــا خ بأوكـــــــارِ الهــــــزائمْ
واعلـــني[(٢)] الحـــق الـــذي كـــا نـــت تواريـــه المحـــاكمْ

ثم يصور انطلاقة الثورة الإسلامية، فيراها بركاناً ناقماً ثائراً وسيفاً صـــارماً ثار على انحباسه في غمده، فتحولت الأنّات الجريحة إلى نغمات باسمة. وقاد أبطال الحجارة هذه الثورة مواجهين أعتى عدو، فتكلم الحجر كاشفاً كل زيف ومعلناً إسلامية الثورة مسكتاً كل الأصوات القومية[(٣)]:

وثـــب البركـــانُ مـــن مضـــــــــجعه وثبـــةَ نـــاقمْ
وعلـــى الأغمـــادِ ثـــارت تلعـــنُ الحـــبسَ الصـــوارمْ
أيُّ ســـرٌ جعـــل الأنّـــــــــات أنغامـــاً بواســـمْ؟
وخُطـــا الأطفـــالِ لا تـــو قفُهـــا أعـــتى الـــرواجمْ
ولســـانُ الحجـــر الصّـــا مـــتِ فكّـــاكُ الطلاســـمْ
إنـــه الإســـلامُ فلتخـــــــــرسْ أفـــانينُ المـــزاعمْ

ثم طفق الشاعر يمجّد الأم الفلسطينية التي تعلقت روحها بفلسطين فوهبت بنيها فداءً لها. كما يمجّد الأبطال الصغار الذين أعطوا وضحّوا في سبيل أرضهم

---

(١) ديوان الانتفاضة: ٣٨.

(٢) هنا ضرورة شعرية حيث جعل همزة القطع همزة وصل.

(٣) ديوان الانتفاضة: ٣٨.

المقدسة، والشعب العظيم الذي يسطر التاريخ موقفه بمداد من نـــور، والـــذي سيحقق النصر بعد جهاده المبارك بإذن الله[١]:

أيُّ أمٍّ روحُهـــــا فيـــــــــ ـــــــــحُ فلســـطين المقــــاومْ
تهـــب الإســــلام أشــــلا ءَ بنيهـــــا والجمـــــاجمْ
أي أطفــــــالٍ جَناهـــــا وافــــرٌ وهـــي الـــبراعمْ
أيهــــا الشــعبُ الــذي بـــا هــت بـــه ســاحُ العظــائمْ
أيهــــا المطلِـــعُ وردَ النّـــــــ ـــــصر مـــن شـــوكِ الهــزائمْ
كـــــن مـــع اللهِ ولا تـــــر جُ العــــلا مـــن ســـعيٍ آثمْ

ومن المؤلفات التي أفردت للحديث عن الانتفاضة ((ديوان الانتفاضة)) جمع وتقديم: أحمد موسى الخطيب. وقد ضم بين دفتيه عديداً من القصائد، اختـــرت منها ما يلي:

القصيدة الأولى للشاعر عبد الرحمن العشماوي يبرز فيها الدوافع التي فجرت الانتفاضة. فالشعب رازح تحت وطأة المحتل يسومه سوء العذاب، مما جعل حياته جحيماً لا يطاق، والأطفال عاشوا رهن الكآبة والحزن وكثير منهم فقد والده أو والديه، والمآسي تترى على هذا الشعب، في حين يصمت العالم أمام هذه المآسي الكبرى[٢]:

ما جئتُ أسأل عنكِ الصمتَ غلفنا فلم نُطقْ بعده أن نبلــغَ الأربـــا
بل جئتُ أسألُ إحساساً يحركُني إليكِ أسألُ جرحاً صار ملتـــهبا

(١) المرجع نفسه: ٣٩.

(٢) ديوان الانتفاضة جمع وتقديم: أحمد موسى الخطيب: ٣٩.

بل جئتُ أسأل طفلاً كان مكتئبا ... بل جئتُ أسأل طفلاً كان مكتئبا
وظل في زحمةِ الأحداث مكتئبا ... وظل في زحمةِ الأحداث مكتئبا
وجئت أسأل أيتاماً حناجرُهم ... وجئت أسأل أيتاماً حناجرُهم
بُحّتْ وما وجدت أُمّاً لهم وأبا ... بُحّتْ وما وجدت أُمّاً لهم وأبا
تلفتوا ورياحُ الظلمِ عاصفةٌ ... تلفتوا ورياحُ الظلمِ عاصفةٌ
والهاربون استلذّوا الخوفَ والهربا ... والهاربون استلذّوا الخوفَ والهربا
وأنصتوا فإذا الغربانُ تنشدُهم ... وأنصتوا فإذا الغربانُ تنشدُهم

ويتابع العشماوي حديثه عن الدوافع، ثم يعلن ابتهاجه بالانتفاضة، ويشيد بالحجارة سلاحاً في هذه المعركة. يقول[1]:

تأملوا في روابيهم فما وجدوا ... إلا الحصى أصبحتْ من حولهم لهبا
وكبّروا فإذا الآفاقُ تمنحهُم ... آذانَها وترى من أمرِهم عجبا
خاضوا معاركَهم والهاربون على ... أرائكِ الصمتِ يستفتون من ذهبا
قد جئتُ أسأل أطفالَ الإباءِ رمَوا ... عدوهم وأحالوا صمته صخبا
هذي انتفاضتهم شبّت مواقدُها ... فكيف نمنع عنها الزيتَ والحَطبا

إنه يشيد بأولئك الأبطال الذين جعلوا الحصى سلاحهم فكانت كاللهب يلقى على العدو الغاصب فحوّلوا أمنه خوفاً وحياته جحيماً. ويدعو الشاعر الأمة إلى مناصرة الشعب الثائر ودعمه ليظل موقد ثورته مشتعلاً، وتستمر انتفاضته حتى تعود الأرض حرة.

---

(١) المرجع نفسه: ٤٠-٤١.

والقصيدة الثانية في هذا الديوان هي للشاعر محمد أمين أبي بكر[١]، وقد أسماها: ((حجارة وجحيم)) والتقى مع الشعراء السابقين في استهلال القصيدة بذكر دوافع الانتفاضة فظلام القهر والعسف الذي يعيش فيه أبناء الأرض المحتلة هو الذي بعث هذه الثورة الجهادية. يقول[٢]:

في ظلامِ القهرِ في عصرِ الجمودِ ... أَنجبَ التاريخُ أعلامَ الأسودِ
في زمانِ العُقم في ليلٍ تمطّى ... فوق صدر اليُتم والشعبِ الشريدِ
أنبتتْ أصقاعُنا زهرَ الأماني ... يوقظ الأجيالَ من ذل الرقودِ

ثم يعلن عن انبثاق الثورة بركان انتقام من الباغين، وصمود شعب يأبى الذل، ويستطيب الجراح في سبيل العزة. ويصف الشاعر أثر الثورة في العدو الجبان وكيف تحولت حياته جحيماً من لظى الأحجار. وأشرقت الانتفاضة في ليل الأسى مجددة الآمال واستحالت الأرض المجدبة القفر إلى روض ورود بديعة، فيقول[٣]:

فجروا الأحجارَ بركانَ انتقامٍ ... روّع الباغين في ساح الصمودِ
واستطابوا الجرحَ في يوم عصيبٍ ... دمعُه نارٌ على كل الخدودِ
في حِمى الأقصى ومسرى مصطفانا ... جندلَ الأشبالُ أعداءَ الوجودِ
أشرقوا شمساً على داجي أسانا ... واستماتوا خلف أسوارِ الحدودِ
في ظلال الرعب ها هم قد أحالوا ... كلَّ قفرٍ مجدبٍ روضَ الورودِ

---

(١) محمد أمين أبو بكر: ولد في دمشق عام ١٩٥٠م، ودرس فيها ثم نال الشهادة الجامعية من بيروت، وعمل مدرساً في سورية ثم في السعودية وما يزال، نشر عدداً من القصائد في المجلات العربية. انظر مختارات من الشعر الإسلامي الحديث: ٣٧١.

(٢) ديوان الانتفاضة: ٥٦.

(٣) المرجع نفسه: ٥٦-٥٧.

ويصور أثر الانتفاضة في مدن فلسطين وبساتينها. فيقول(١):

فانتشت حيفا وصاغت حول يافا برتقالاتِ الهوى عذبَ النشـــيدِ
واستهامت فوق هاتيك الــروابي وشوشاتُ الغصنِ والطلعِ النضيدِ
بالحكايات التي فاضـــت إبـــاءً من شذا الليمونِ أو حبِّ الحصيدِ

إنه يرسم لوحة جميلة متفائلة، تصور حيفا وقد انتشت نواحيها، ويافا وقد صدح برتقالها بالنشيد العذب. وكل ما فيها مغرد جذلان.

ويعلن الشاعر في ختام القصيدة استمرار صمود أبطال الانتفاضة فكل طفل سوف يبقى قلعة تقاوم العدوان، وسيبقى المسلم الحر وفيّاً لربوع الأرض المباركة حتى يحقق الله على يديه النصر الأكيد(٢):

كلُّ طفلٍ سوف يبقى في بلادي قلعةً تحمي بطـــولاتِ الجـــدودِ
أيها الأقصـــى ســـنبقى أوفيـــاءً للروابي الخضرِ والسيفِ النجيـــدِ
سوف نبقى لا نهابُ النارَ في سا ح الوغى مهما أعدّوا من حشودِ
سوف تأتي بعد أيـــامٍ غضـــابٍ من لهيبِ الحرب بالنصرِ الأكيـــدِ

أما ((ملف الانتفاضة)) فهو كتاب ثالث أفرد للحديث عن الانتفاضة. إلا أنه اختلف عن سابقيه بكونه كتاباً تاريخياً في معظمه، وفي نهايتـــه أورد المؤلف: راجي نصر الله، بعض القصائد التي قيلت في الانتفاضة، ومنه أختار قصيدتين:

---

(١) ديوان الانتفاضة: ٥٧.

(٢) المرجع نفسه: ٨٨.

الأولى: للشاعر الفلسطيني محمود مفلح، والتي أسماها: ((طفل العقيدة)) واستهلّها بقوله[١]:

هذا هو الردُّ لا شعرٌ ولا خطبُ وإنما ثورةٌ في الأرضِ تلتهبُ
نمدّ أجسادَنا للشمسِ نزرعُها على الصخورِ فيجري الماءُ والعشبُ
لقد تألق في آفاقِنا حجرٌ حتى رأيتُ إليه الغارَ ينتسبُ
هذا هو الردُّ من بعد الجفافِ ففي تلك الأكفِّ الدوامي ينضجُ العِنَبُ
شعب يرتل في أحجارِه سوراً ورحمةُ اللهِ فوق الجرحِ تنسكبُ

لقد غمرت الفرحة حنايا نفس شاعرنا، فنجده يرى في هذه الثورة المباركة رداً حاسماً على طغيان اليهود، إن أجساد الأبطال لم تعد تهاب شيئاً؛ فهم يواجهون العدو بحجارتهم وصدورهم مفتوحة للرصاص. وهو يرى في تألّق الحجر نماءً وزرعاً يوشك أن يثمر النصر، وآيات النصر ترتل من خلال هذه الحجارة.

وينوه شاعرنا بهذه الانتفاضة الباسلة فيقول[٢]:

شعبٌ يفجرُ تاريخاً وأوسمةً ومن خيامِ المآسي تطلع الشّهُبُ
من المساجدِ صاغ الصِّيد لحنَهمُ ومن منابرِها الشمّاءِ قد وثبوا
طفلُ الحجارةِ بل طفلُ العقيدةِ في مساقط النارِ لا خوفٌ ولا رَهَبُ
مشرّعُ الصدرِ والإجرامُ منطلقٌ رصاصُه ودمُ الإجرامِ منسكبُ
هذا هو الردُّ لا لاءٌ ولا نعمٌ ولا صراخٌ ولا لومٌ ولا عَتَبُ

---

(١) ملف الانتفاضة: ٣٧٥.

(٢) المرجع نفسه: ٣٧٥-٣٧٦.

ويتابع الشاعر حديثه مبتهجاً ممجداً هذا الشعب الذي شرع يسطر تاريخاً مشرقاً كالشهب تنطلق من خيام البؤس والتشريد الذي يعيشه أبناء الشعب الفلسطيني، ولكنهم مع ذلك كله جعلوا المساجد منطلق ثورتهم، وجعلوا المنابر تحرّض على الصمود، بلا خوف ولا رهبة من جند الباطل. ويعرّض الشاعر في ختام حديثه بواقع الأمة المتخاذل الصامت أمام الأهوال التي يعيشها إخوانهم في الأرض المحتلة مكتفين بإطلاق الشعارات شجباً واستنكاراً.

والقصيدة الثانية من هذا الكتاب للشاعر خالد أبي العمرين[١] الذي بدأ قصيدته بتوجيه الحديث إلى مدينة القدس مبرزاً مكانتها وقدسية المسجد الأقصى، ثم تابع حديثه معرباً عن ابتهاجه بالانتفاضة والأطفال الكبار؛ لمحبتهم لأرضهم المقدسة وغيرتهم عليها. ثم عرج يعرّض بتخاذل المسلمين عن مد يد العون لإخوانهم، والذب عن حياض حرماتهم فوصفهم بأنهم أموات لا يرجى منهم غوث. ثم عاد إلى تمجيد الصغار الذين فاقوا الكبار في شجاعتهم وتضحيتهم. إذ قال[٢]:

وأرضي فوقها مليونُ شبلٍ ... وتحت أديمِها الشهداءُ ثاروا
وأطفالُ الحجارةِ في بلادي ... كبارٌ في محبتِهم كبارُ
بلادي تأكل البلوى حشاها ... وينهشُ جيدَها ظلماً إسارُ

(١) خالد أبو العمرين: شاعر فلسطيني من المهاجرين إلى غزة، قضى في سجون اليهود سنتين من ١٩٦٨م إلى ١٩٧٠م، وفي السجن كتب كثيراً من قصائده، ونشرت له قصائد متفرقة في صحف الأرض المحتلة، وعمل مدرساً للّغة الإنجليزية في الكويت. (من أمسية شعرية مسجّلة بصوت الشاعر نفسه).

(٢) ملف الانتفاضة: ٤٠٥-٤٠٨.

فهل يُرجى من الأمواتِ غـوثٌ وهل تـروي برارينـا البحـارُ؟
وحيفـا إذ تنـاديكم هتفـتُم لكِ الأسفُ الشديدُ والاعتـذارُ
أفيكم يا شبابَ الجيـلِ سـعدٌ وعكرمـة يبايعـهُ الكبـارُ؟
على اليرمـوكِ أعـلامٌ تجلـتْ معـامعُ لا يُشـقُّ لهـا غبـارُ
وأسرجْنا النجـومَ لنـا مطايـا إلى العليـاءِ رافقَنـا انتصـارُ
شبابَ الجيـلِ قولوهـا تـدوّي فلن يُجـدي يمـينٌ أو يسـارُ
كفرنـا بالـدعاوى زائفـاتٍ فبالقرآنِ قـد وَضُـح المسـارُ

ومن اللافت للنظر في شعر الانتفاضة أن كثيراً من الدواوين جاءت عناوينها حول الحجر وأبطال الحجارة ومن ذلك ما يلي:

١- ديوان حجارة من سجيل للشاعر عمر بهاء الدين الأميري -رحمه الله- الذي قدم له بمقدمة طويلة عن الانتفاضة وأبطالها. ومن هذا الـديوان قصـيدة: الأطفال الزلزال[1]:

الله أكـبرُ دوّتْ تزلـزلُ الكفـارا
هـي الغيـوبُ تنـادي أن الزمـانَ اسـتدارا
فصـحوةٌ تتنـامى قـد عمّـت الأمصـارا
واللهُ يهـدي ويرعـى رجالَهـا الأبـرارا
وفي فلسـطين زحـفٌ يشـتدُّ ليـلَ نهـارا
تلاحـمٌ وامتـدادٌ فالكـلُّ جَـدّ وثـارا
بـأسٌ عنيـدٌ وطيـدٌ قـد وحّـدَ الأعمـارا

(١) حجارة من سجيل: ٧٢-٧٣.

إن أشبال الانتفاضة ينطلقون مكبرين، فيوقعون الرعب في قلـــوب اليهـــود الذين دار الزمان عليهم بعد ما كان لهم؛ فالصحوة الإسلامية التي تنامى زرعهـــا قد أثمرت هذه الثورة، التي يرعاها الله جلّ شأنه. والمعارك متواصلة عنيفة بين أهل الحق وأدعياء الباطل حتى النصر والظفر بإذن الله.

ويتابع الشاعر وصفه المبتهج بالانتفاضة وأبطالها فيقول(١):

فـــــرب طفـــــلٍ غـــــريضٍ ... للحـــــــق ردّ اعتبـــــــارا
صـــــار النســـــاءُ رجـــــالاً ... قـــــاد الصـــــغارُ الكبـــــارا
مـــــن كـــــل فـــــجّ عميـــــقٍ ... أفـــــــواجُهم تتبـــــــارى
ولـــــيس ذاك ((انتفاضـــــاً)) ... بـــــل الجهـــــاد اســـــتطارا
العـــــزمُ فـــــلّ حديـــــداً ... والكـــــفُّ ترمـــــي حجـــــارا

يمجد الشاعر ذلك الشبل الصغير وبطولته الفريدة، كمـــا يشـــيد شـــاعرنا بالنساء اللواتي استطعن بشجاعتهن المشاركة في هذا الجهاد الذي شارك فيه جميع قطاعات الشعب الصامد.

٢- أما الشاعر خالد أبو العمرين فجعل عنوان ديوانه: ((في القدس قد نطق الحجر)) وفي إحدى قصائده يقول(٢):

والطفلُ صار مجاهداً في قدسِـــه ... تطغى قنابلُه على كلِّ الكَـــذِبْ
لا تغمضـــوا أبصـــارَنا بخطابـــةٍ ... ملّتْ صداها الأذنُ وامتلأت قِرَبْ
ولتعلنوهـــا للجهـــاد مســـيرةً ... ونكون نحن لها وأولُ من وَثَـــبْ

---

(١) حجارة من سجيل: ٧٢-٧٣.

(٢) في القدس قد نطق الحجر: ٥٧.

لن نرتضي غيرَ التوحـــدِ رايـــةً والدينَ والنصرَ العظيمَ المرتقَـــبْ

هكذا انطلقت قوافي الشاعر مستوحية هذه الثورة الإيمانية، وممجدة إباء هذا الشعب المجاهد؛ فحجارته صارت قنابل تبث الرعب في قلب العدو المحتل. كما حفّز شاعرنا إحساس الأمة بالتعريض بالواقع المرير الذي تحياه مقتصرة على الخطب الرنانة في المحافل الدولية؛ فيطلق أحاسيسه ومشاعره المتألمة من هذا الجو القاتم مستنهضاً بني قومه لينفروا -تاركين الهوان والخنوع- إلى وحدة جهادية ترتفع فيها راية ((النصر العظيم المرتقب)).

٣- ونسمع النغمة ذاتها عند الشاعر يوسف العظم في ديوانه ((الفتية الأبابيل)) فيستلهم حادثة أصحاب الفيل كما استلهمها قبله الشاعر عمر الأميري في ديوانه ((حجارة من سجيل)). والشاعر العظم في القصيدة التالية يصف أبطال الحجارة بالفتية الأبابيل ويقدم لقصيدته بإهداء لهم يقول فيه: ((إلى المجاهدين من أبناء القدس وكل فلسطين، والمتوثبين من أبناء العربية والإسلام رمز تحية وتقدير وتباشير عزة وتحرير)) ويستهل القصيدة بقوله(١):

حجارةُ القدسِ نيرانٌ وســـجيلُ وفتيةُ القـــدسِ أطيـــارٌ أبابيـــلُ
وساحةُ المسجدِ الأقصى تموجُ بِهِم ومنطقُ القدسِ آيـــاتٌ وتنزيـــلُ
والشعبُ يزحفُ إيماناً وتضـــحيةً ما عاد يوقفُ زحفَ الشعبِ تنكيلُ
وصيحةُ الشعبِ حراً في تدفقـــهِ -من المساجدِ- تكـــبيرٌ وتهليـــلُ
والقدسُ تزدانُ في ساحاتِها ارتفعتْ بيارقُ الحقِّ تحميهـــا بهاليـــلُ(٢)

---

(١) الفتية الأبابيل: ١٣.

(٢) بهاليل: جمع بهلول وهو السيِّد الجامع لكل خير.

تكلم الحجرُ القدسيُ فانتفضــتْ سواعدُ الصِّيدِ واندكت أباطيــلُ
وجندُ صهيون قد خابت مطامعُهم ما عاد ينفعُهُم سجنٌ وترحيــلُ

نسمع في الأبيات صوت الفرحة التي أثلجت صدر شاعرنا وهو يرى الفتية الأبطال يرجمون بالحجارة عدو الله، ويصور القدس وقد عمتها البهجة فرتلــت الآيات ابتهاجاً بالانتفاضة. وينوه الشاعر بمشاركة الشعب بجميــع قطاعاتــه في الانتفاضة جهاداً وتضحية، لا يثنيه عن ذلك تنكيل العدو ولا إرهابه.

ويؤكد الشاعر هذه المعاني فيما يأتي من أبيات فيقول[(١)]:

الطفلُ والشيخُ والأمُّ التي خرجــت في كفِّها الموتُ للطغيــان محمــولُ
والقدسُ أرضُ العلا والمجد مذ عرفت يبــاركُ القــدسَ قــرآنٌ وإنجيــلُ
راحت تحطِّم قيدَ الــذلِّ شــامخةً لا ترتضي أن يذلَّ القدسَ تــدويلُ
هذي بشائرُ يومِ النصــرِ نعلنُهــا وليس في قولهــا زيــفٌ وتهويــلُ
فالنصرُ يمسي قريباً حين نقصــدُهُ والنصرُ حين يُرادُ النصــرُ مــأمولُ

وهكذا يرى الشاعر في الانتفاضة أملاً بالنصر والعودة إلى رحــاب الأرض المباركة.

٤- وفي ديوان الشاعر محمود مفلح ((نقــوش إســلامية علــى الحجــر الفلسطيني)) نحس روح التفاؤل والأمل التي غمرت الشاعر؛ من خلال إشــادته بفتيان قومه الذين جعلوا الحجر سلاحاً لهم، والتكبير شعارهم[(٢)]:

---

(١) الفتية الأبابيل: ١٤-١٥.

(٢) نقوش إسلامية على الحجر الفلسطيني: ٥٣.

سيروا فإن لكم خـيلاً ومضـمارا   وأمطِروهم مع التكـبيرِ أحجـارا
وقـاتِلوهم فـإن الله قـاتلُهُم   فقد تولّوا علـى الأدبـارِ فُـرارا
سيروا على بركـاتِ اللهِ في زمـنٍ   قد أنبتَ الصخرُ ريحانـاً ونـوارا
سيروا على بركاتِ اللهِ وانطلقـوا   وحطموا الوحشَ أنيابـاً وأظفـارا
مدّوا إلى الشمسِ من أجسادِكم ألَقاً   وسافروا في جفافِ الأرضِ أنهـارا
وذكّرونـا بأيـامٍ لنـا سـلفتْ   فقد نسِينا ((شُرَحْبيلاً وعَمّـارا))

إننا نسمع رنة الفرح عالية في القصيدة، فيبارك الشاعر سير أولئك الأبطال الذين يدافعون عن كرامة الأمة ويقاتلون ألدَّ أعدائها؛ فهم النور الذي يبدّد ظلام الواقع المرير، وهم الأنهار التي تغمر الأرض بعد جفافها، وهم أحفاد الصحابة الأفذاذ من أمثال شرحبيل بن حسنة وعمار بن ياسر.

٥- وآخر ديوان -بين أيدينا- يحمل اسم الحجر شعار الانتفاضة للشاعر أحمد محمد الصديق بعنوان: ((هكذا يقول الحجر)) ومنه قصيدة ((خطاب إلى جندي صهيوني)). يقول[١]:

منك الرصاصُ ومنّي الصدرُ والحجرُ   والجرحُ نهرٌ من الأضـواءِ ينـهمرُ
إن الأعاصـيرَ في جـنبيَّ جامحـةٌ   يكفيك من عصفِها ما تحملُ النذرُ
وكل حبةِ رملٍ في ثـرى وطـني   تكاد من غيظِها المكظومِ تنفجـرُ
علامَ تبعثُك الأحقـادُ في صَـلَفٍ   وفيك يسكنُ داءُ الجبنِ والخـوَرُ؟
((اللهُ أكـبرُ)) إذ دوّتْ مجلجلـةً   فكلُّ شيءٍ مدى الآفـاق منبـهرُ
في كـل مئذنـةٍ جيـلٌ يردده   ورايـةٌ تتحـدى وهـي تنتشـرُ

(١) هكذا يقول الحجر: ٧٨.

يعرب الشاعر في الأبيات عن تحدّيه السافر لصلف الصهاينة فأبطال الحجارة يواجهون رصاص العدو بصدورهم. ويرى الشاعر في هذا الحجر نذيراً بالحرب القادمة ضد الطغاة اليهود فلقد تأججت كل حبة رمل في الأرض المباركة من هول ما يجري فوقها من عسف وظلم من اليهود الجبناء، الذين كُشفت طبائع الخور والخوف فيهم أمام حجارة الأبطال الصغار. ويعلن الشاعر -في عزة وتفاؤل- أن الجيل الذي رفع شعار ((الله أكبر)) وانطلق من المساجد سيكون له الظفر بإذن الله.

ويؤكد الشاعر هذه المعاني مشيداً بالشعار الذي حملته الانتفاضة، وممجداً النساء اللواتي شاركن في الانتفاضة في قوة وشجاعة؛ فيرى كل من شارك شموساً يفوق ضوؤها ضوء الشمس والقمر؛ فلقد جادوا بأرواحهم مجاهدين في سبيل الله[1]:

((اللهُ أكبرُ)) يا دنيا براعمنا ... تفتحتْ فهي في أكمامِها شررُ
والمحصناتُ بما في النارِ من حُممٍ ... خضن الغِمار وهنّ الطهرُ والخفرُ
وكلُّ ليثٍ هصورٍ في سلاسلِه ... إذا تململَ فالأهوالُ تنكسرُ
على مشارفِ هذا العصرِ قد وقفوا ... شمساً بها يستضيءُ الشمسُ والقمرُ
جادوا بما ملكوا حباً وتضحيةً ... فأخصبَ الجنيُ لما أخصبَ المطرُ

وبالإضافة إلى ما سبق فإن هناك دواوين أخرى احتفت بالانتفاضة المباركة وأكتفي بالإشارة إليها:

- ((شموخ في زمن الانكسار)) للشاعر عبد الرحمن العشماوي.

---

(١) هكذا يقول الحجر: ٨٠.

- ((قلبي بين يديك)) للشاعر خالد الحليبي[١].
- ((شموخاً أيتها المآذن)) للشاعر محمود مفلح.
- ((القدس في العيون)) للشاعر كمال رشيد.
- ((غريب الديار)) للشاعر عبد الرحمن بارود[٢].
- ((لواعج)) للشاعر عبد الرحمن زيد السويداء[٣].
- ملحمة الأقصى للشاعر عدنان النحوي.

تلك إلمامة يسيرة عن رد فعل الانتفاضة في الشعر الإسلامي أشرت فيها إلى غيض من فيض مما قيل ابتهاجاً بهذه الثورة الإسلامية، فقد كانت هذه المرحلة أقوى وأثرى في حصادها الشعري من المرحلة السابقة (١٩٦٧م-١٩٨٧م)

---

(١) خالد سعود الحليبي: ولد في الأحساء في السعودية سنة ١٣٨٣هـ، حصل على الشهادة الجامعية في اللغة العربية من جامعة الإمام محمد بن سعود، وحصل على الماجستير في الأدب العربي، له ديوان شعر مطبوع، انظر ديوان الشاعر قلبي بين يديك: ١٨٣.

(٢) عبد الرحمن بارود: ولد في بيت دارس بفلسطين عام ١٩٣٧م، ودرس فيها، ثم هاجر مع أهله عام ١٩٤٨م إلى غزة، وأتمّ دراسته هناك، وبعدها التحق بجامعة القاهرة حتى نال الشهادة الجامعية وتابع دراسته حتى حصل على الدكتوراه، ويعمل الآن أستاذاً بجامعة الملك عبد العزيز في جدة، له دراسات أدبية عديدة، وديوان مطبوع. انظر مختارات من الشعر الإسلامي الحديث: ١٢٢.

(٣) عبد الرحمن بن زيد السويداء: ولد ببلدة المستجدة جنوب حائل في السعودية عام ١٣٥٨هـ، تلقى تعليمه الأول في بلدته ثم حصل على الشهادة الجامعية تخصص تاريخ في جامعة الملك سعود بالرياض، له عدة مؤلفات أدبية وديوان شعري. انظر الاتجاه الإسلامي بالشعر السعودي الحديث: ١٠٦-١٠٧.

وذلك أمر طبعي في ظل النشوة التي هزّت النفوس، وأعادت إليها الثقة وجددت فيها الأمل.

ومن الواضح أن معظم الشعراء الذين تحدثوا في هذه المناسبة قد اجتمعوا على عدة معانٍ من أبرزها: تعبيرهم عن مدى الفرحة التي أثلجت صدورهم، وإبراز الدوافع التي فجرت الانتفاضة، والدعوة إلى مناصرة الشعب المجاهد، والاحتجاج على واقع الأمة، واستنكار الخنوع والتخاذل المقيت الذي أصبحت الأمة لا تنفك عن إلفه، فأطلق الشعراء مشاعرهم مستنهضين بني قومهم إلى وحدة جهادية تُرفع فيها راية النصر بإذن الله.

المبحث الثاني

رثاء الشهداء وتهوين الموت في سبيل العقيدة

((إن الشهادة مرتبة من أعلى المراتب في هذا الدين، ولا يحوزها ويحرزها إلا من كان أهلاً لها، والله -عزّ وجل وحده- الذي يعلم أي الناس أحق بها من غيرهم فيختارهم لذلك))[1].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٩-١٧٠].

تكشف الآيات عن مصير الشهداء، الذين قتلوا في سبيل الله، فهم أحياء عند ربهم؛ لهم خصائص الأحياء؛ فهم ﴿يُرْزَقُونَ﴾، وهم ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بمصائر من وراءهم من المؤمنين، وهم موصولون بالأحداث فوق ما نالهم من فضل الله، وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة[2].

((فما هي رزيّة إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد، إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص))[3].

---

(١) شهداء فلسطين: ١٢.

(٢) انظر في ظلال القرآن: ١/٥١٦.

(٣) المرجع السابق ١/٤٨١.

((ثم هم شهداء يتخذهم الله ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به الناس، يستشهدهم فيؤدون الشهادة، يؤدونها أداءً لا شبهة فيه، ولا مطعن عليه، ولا جدال حوله، يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق وتقريره في دنيا الناس))[1]. فما أسعد الشهيد بهذا الجزاء الأوفى في الآخرة!.

وقد انبرى الشعراء لهذا الموضوع؛ لزرع حب الشهادة في النفوس، والتأكيد على قيمة الشهيد ومنزلته عند الله.

فها هو ذا الشاعر كمال رشيد يرثي الشهداء في قصائد كاملة. ومن ذلك قصيدته ((الشعر للشهيد)) يقول[2]:

كـل القصـائد للشـهيدْ ... للبـأسِ للعـزمِ الشـديدْ
للحـقِّ للإخـلاصِ للـ ... إيمـانِ للنصـرِ الأكيـدْ
هـو هكـذا إن رامَ أمـ ... ـراً لا يلـين ولا يَحيـدْ
يمضـي لـه والنـورُ في ... جنبيـه يقـتحمُ البعيـدْ
هـو لا يبـالي إن يكـنْ ... مـوتٌ ففـي مـوتٍ خلـودْ
متجـرّدٌ مـن كـل أطـ ... ـماعِ الـدُّنَى لا يسـتزيدْ
وهو الـذي يسـعى إلى الـ ... ـجلّى ويمعـن في الصـعودْ
هو يعـرف الأطمـاعَ والـ ... أوجاعَ مـا خصـمي يكيـدْ
رفـضَ القعـودَ علـى الهـوا ... نِ وذمَّ أخـلاقَ العبيـدْ

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٤٨١.

(٢) القدس في العيون: ٥٦.

يشيد الشاعر ببطولة الشهيد وعزمه وإيمانه بالحق الذي من أجله أرخص مهجته، وهو مؤمن بالحياة وبالهدف من وجود الإنسان المسلم؛ فبذل حياته في سبيل الكرامة الإسلامية، فكُتب له الخلود.

ثم يُجري الشاعر الحديث على لسان الشهيد مخاطباً أمه معرباً لها عن تبرمه بحياة الذل والمهانة؛ فلم يعد عيده فرحاً كعيد الناس يلبس فيه الجديد، ولا حبه لأرضه غناءً ونشيداً، وإنما بتخليصها من رجس اليهود. ثم يقرر الشهيد أن الأجيال الجديدة لابد أن تتعلم معنى العزة والصمود، وتضع الحرية نصب أعينها، وتبذل في سبيل ذلك أرواحها لتفوز بإحدى الحسنيين: النصر أو الجنة وهي تشتاق نفسه إليها[1]:

يا أمُّ ما عيدي كعيـ ـدِ النّاسِ بالثوبِ الجديدْ
يا أمُّ ما حبي لأر ضي بالغناءِ وبالنشيدْ
لكن بتحريرِ البلا دِ من الأفاعي من يهودْ
لابد أن يتعلمَ الـ أطفالُ ما معنى الصمودْ
لابد أن نجتثَّ شا راتِ العبور على الحدودْ
إما مغالبةُ العدا والعيشُ في الوطن السعيدْ
أو أن تكونَ لنا الشها دةُ وهي أغلى ما نريدْ

وفي قصيدة ((شهداء عَنَبْتَا)) للشاعر نفسه، يرثي شهداءها بعد أن قدم لقصيدته بقوله: ((عَنَبْتَا: مدينة صغيرة، داهمها المستوطنون اليهود أكثر من مرة، وكان لها بطولات وشهداء)).

---

(١) القدس في العيون: ٥٦.

ثم قال(١):

من ترابِ المجدِ من أرضٍ عَنَبْتَـا يا شهيدَ الحقِّ والصـدقِ طلعتـا
جُدتَ بالروحِ ولم تبخـلْ بها ومع الصفوةِ في البـأسِ وقفتـا
ورميتَ السهمَ في وجـهِ العِـدا مثلما تـرجمُ شـيطاناً رميتـا
مثلما النيـزك في ليـلِ الـدجى يلعن الظلمـةَ والـوهمَ نزلتـا

يعلي الشاعر من شأن الشهيد سليل الماجدين، الذي بذل نفسه رخيصة في سبيل الله، وقاتل الأعداء في جرأة وشجاعة، فكان النيزك الوهّاج في ليل الدجى مبدّداً ظلام الخوف والوهم والخنوع.

ويسترسل الشاعر في تمجيد هذا البطل فيراه رضيع المجد وأكـرم النـاس. ويصف أم الشهيد بأنها كالخنساء التي وهبت بنيها الأربعة شهداء في سـبيل الله، ومن يبلغ هذه المكانة والعزة والمجد غير أم الشهيد؟ فهذه البطولة هي ما تؤمله في ابنها الشجاع الذي رفع رأسها عالياً وأعلى قدرها بين الناس(٢):

يا رضيعَ المجدِ، يا عـينَ الرضـا أكرم الناس لدى الناسِ غـدوتا
أمـكَ الخنسـاءُ مـن يبلُغُهـا عـزةً مجـداً وإيمانـاً وسمتـا
ربما كانـت ترجّـي أن تـرى في بنيها فارسـاً شـهماً فكنتـا
فرفعـتَ الـرأسَ منـها عاليـاً وجعلتَ النجمَ للخنسـاءِ بيتـا

وفي المقطع الأخير من القصيدة، يبين الشاعر تعلق نفس هذا البطل بالشهادة وسعيه إليها؛ لينال جنان الخلد، فسعى إليها في طريق شائك وعر، وسكب دمَه

(١) القدس في العيون: ٥٧.

(٢) القدس في العيون: ٥٧.

الطاهر فكان قبساً من نور يرشد من بعده إلى طريق النصر. وإذا كانت القـــدس هي القنديل، فهو الزيت الطاهر الذي يوقد ذلك القنديل(١):

يا حبيبَ اللهِ قد نلـــتَ الـــذي كنتَ ترجو وجنانَ الخلـــدِ نلتـــا
رُدتَ دربَ النصرِ وعراً شـــائكاً دمُك الطاهرُ في الأرضِ ســـكبتا
أنـــت فينـــا قـــبسٌ يرشـــدُنا وإذا اخترنا مثـــالاً كنـــتَ أنتـــا
وإذا القـــدسُ غـــدَتْ قنـــديلَنا فلقد أصبحتَ للقنـــديلِ زيتـــا

((أم الشهيد)) قصيدة ثالثة للشاعر نفسه، يُطَمْئِن فيها أم الشهيد إلى مثوى ابنها في جنة الخلد. فيقول(٢):

اطمـــئني أمَّ الشـــهيدِ اطمـــئني هو في الخلدِ في جنـــائنِ عـــدنِ
نالهـــا مخلصـــاً بفعـــلٍ عظـــيمٍ لم ينلْهـــا بـــالقولِ أو بـــالتمنّي

وبعد هذا المطلع الحافل بالوجدان الشعري، يقدم الشاعر صـــورة مشـــرقة للشهيد وبطولته الرائعة حين جاد بروحه وهي أنفس ما يملكه الإنسان، وكانت الشهادة أمنيته ورجاءه من ربه جلّ وعلا. ويجري الشاعر على لسان الشهيد حمْدَ الله وشكره على حسن خاتمته في هذه الفانية(٣):

جاد بـــالنفسِ إذ تعـــزُّ نفـــوسٌ وهو أمرٌ وعرٌ على النفسِ مضني
قال ربي علـــى العـــدوّ أَعنِّـــي وإلى مـــدرجِ الشـــهادةِ خـــذني
أنت ربُّ الوجودِ فيـــك مـــآلي أنتَ ربُّ الآجالِ تُحيي وتُفـــني

(١) القدس في العيون: ٥٧.
(٢) المرجع السابق: ٥٨.
(٣) القدس في العيون: ٥٨.

ولك الحمدُ إن أطلـتَ بقـائي ... ولك الحمدُ إن ختمتَ بحسـنِ

ويصور فداء هذا الشهيد وجهاده للعدوِّ، حتى سقط مضرجاً بالدماء الطهور. فيقول[١]:

نال من خصمه وحَقّقَ سُؤْلاً ... ورأى الموتَ مقبِلاً رأيَ عـينِ
مات فوق الثرى الطهورِ شهيداً ... وروى الأرضَ بالنّجيع كمـزنِ

وفي نهاية المطاف ختم الشاعر قصيدته بالحديث الموجه إلى أمّ الشهيد التي حُقَّ لها أن تفخر بابنها البطل، وتحتفل به؛ فلسان السماء والأرض تلهج بالثناء عليها. يقول[٢]:

إيهِ أمَّ الشهيدِ يا خصبَ أرضي ... لا تقولي مضى وودع إبـني[٣]
أنـتِ أمُّ الرجـالِ أم الأمـاني ... وعليك السماءُ والأرضُ تـثني
فاجعلي ليلةَ الشهيدِ احتفـالاً ... مهرجاناً، ولـيس ليلـةَ حـزنِ

ويفرد الشاعر يوسف العظم قصيدة لشهداء ثلاثة، انضموا إلى قافلة شهداء الانتفاضة؛ فأهدى قصيدته لهم قائلاً: ((إلى الذين روّوا بدمائهم الطاهرة أرض مدينة ((ليماسول)) -بجزيرة قبرص- وهم في طريقهم لضرب مواقع العدو الغاصب على أرض فلسطين. إلى الشهداء الأبرار: قاسم محمد ومحمد باسم التميمي ومروان الكيالي))[٤].

---

(١) القدس في العيون: ٥٨.

(٢) المرجع والصفحة نفسها.

(٣) جعل همزة (ابن) همزة قطع لضرورة الوزن.

(٤) الفتية الأبابيل: ٤٣.

وبدأ قصيدته راوياً قصة أولئك الثلاثة الأحرار قائلاً[(١)]:

ثلاثةُ فرسانٍ تباروا إلى العلا ... وكل يغذّ السيرَ نحو مصيرِهِ
مضى (قاسمٌ) في موكب الحق ظافراً ... أميرٌ إذا باهى اللّوا بأميرِهِ
وثانيهمُ يلقى الردى وهو ((باسمٌ)) ... له من جبينِ الفجرِ طلعةُ نورِهِ
وثالثُهُم ((مروان)) لله دَرُّه ... يردد ساحُ المجد رجعَ زئيرِهِ

يسترجع الشاعر صور الشهداء الثلاثة ويصفهم بالفرسان المتسابقين إلى العلا، إلى ساح الجهاد والاستشهاد. ((فقاسم)) أمير موكب الحق الظافر، و((باسم)) يلقى الردى وهو جذلان يعلو محياه نور كنور الفجر، و((مروان)) ينقضّ على الأعداء كالأسد الهصور.

وبعد هذه الصور الثلاث لأولئك الشهداء يقرر الشاعر أن مآلَهم -بإذن الله- إلى جنان الخلد، حيث الحور الحسان تنتظرهم ضيوفاً كراماً في حياة طيبة خالدة[(٢)]:

وكلّ بإذنِ اللهِ مأواه جنةٌ ... شهيدُ العلا قد زُفَّ فوق سريرِهِ
أحاطت به الحورُ الحسانُ كرامةً ... فأقبلَ ضيفُ الخلدِ يزهو بحورِهِ
ففازوا بجنّات وطابت حياتُهم ... كما طابَ في الفردوسِ صفوُ غديرِهِ

ويسترسل الشاعر في حديثه العذب عن أولئك الشهداء موضحاً صفاهم وسيرهم في حياهم[(٣)]:

---

(١) الفتية الأبابيل: ٤٥.
(٢) المرجع والصفحة نفسها.
(٣) المرجع نفسه.

سلاحهمُ الإيمانُ والعلمُ والنُّهى ... إذا تاه أفّاقٌ بزيف قشوره
لكل مقامٍ عندهم خيرُ منطقٍ ... وكلُّ مقالٍ فيه رأي خبيرِه
فللمدفع الرشّاشِ صوتٌ وموقفٌ ... وللقلمِ المعطاءِ عذبُ صريرِه
وصيّتُهم عند الرحيلِ وعيتُها ... وقد ألهبتْ في القلبِ صدقَ شعورِه
إذا الشعبُ لم يجمع على الدينِ رأيَه ... تولى ((غرابُ البين)) كلَّ أمورِه

لقد كان الإيمان والعلم والعقل الراجح سلاحاً في معركتهم الجهادية، كما كان منطقهم فصيحاً بليغاً لأنه مدعّم بالفعل والبذل والفداء وحمل السلاح جنباً إلى جنب مع القلم المحرّض المجاهد. ويجري شاعرنا على لسان الشهداء وصية خالدة إلى الأمة بأن الشؤم والهلاك سيرافقها ما لم تتمسك بعرى الدين القويم وتذد عن حياض مقدساها.

ويختم الشاعر قصيدته بتعريض ساخر بالمتنعمين بطيب العيش والمتمرغين في أوحال الوهم، في حين يروم الفرسان الأحرار الشهادة والعزة بعد مجاهدة الظلم والطغيان في سبيل إعلاء كلمة الله فيقول[1]:

إذا المارقُ المغرورُ عاش منعّماً ... وداعب في الأوهامِ طيشَ غرورِه
فللفارسِ المغوارِ عزٌّ وجنةٌ ... وللظلمِ والطغيانِ لفحُ سعيرِه

أما الشاعر أحمد محمد الصديق في قصيدته: ((أين من يسمع؟)) فقد أشاد بأبطال الحجارة الذي أرخصوا أرواحهم في سبيل حرية أرضهم المقدسة. فقال[1]:

---

(١) الفتية الأبابيل: ٤٧.

أسرابُ طــيرٍ تفتــدي عشَّــها | كالأُسدِ في الغاباتِ بــل أروعُ
أكْرِم بهم أكْرِم بنَبــت الحِمــى | كم أذهلوا الدنيا وكم أبــدعوا
باعوا لربِّ العــرشِ أرواحَهــم | وهم بغــير الحــقِّ لم يصْــدَعوا
من مسجدٍ هبّــوا إلى مســجدٍ | نعمَ الرجــالُ السُــجَّدُ الرّكّــعُ
صــــدورُهم درعٌ لأوطــــانهم | كم من شــهيدٍ طــاهرٍ شــيعوا
جراحُــــه تفــوح مســكاً وفي | جبينــــه نضــــارةٌ تلمــــعُ

يعبّر الشاعر عن شجاعة أبطال الحجارة تعبيراً يوحي بالشعور العميق بالحب والإعجاب والتقدير فتنثال المعاني من قريحته تصف الأبطال بأنهم سـرب مـن الطيور الجارحة تفتدي عشَّها بكل قواها، كما يشبههم بالأُسد في الغابات تحمي عرينها.

فلقد أذهلوا الدنيا بجرأتهم وشجاعتهم حين باعوا أرواحهم لله، منطلقين مـن المساجد التي ألِفتهم سُجَّداً ركّعاً، وإن صدورهم لهي الدرع الذي يحمي وطنـهم، ودماء شهدائهم تفوح مسكاً مصداقاً لقول رسول الله ﷺ[٢]: فيما رواه عنـه أبـو هريرة رضي الله عنه قال: ((والذي نفسي بيده لا يُكلَم أحـد في سـبيل الله -والله أعلم بمن يكلم في سبيله- إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك)).

والشاعر نفسه في قصيدة أخرى يؤكد هذه المعاني على لسان شهيد يوجـه حديثه إلى جندي صهيوني إذ يقول[٣]:

(١) هكذا يقول الحجر: ٤٨.
(٢) صحيح البخاري: ٤/٤١٢ (٢٨٠٣).
(٣) هكذا يقول الحجر: ٧٨.

منكَ الرصاصُ ومني الصدرُ والحجرُ والجرحُ نهرٌ من الأضواءِ ينــهمرُ
إن الأعاصيرَ في جــنبيَّ جامحــةٌ يكفيك من عصفها ما تحملُ النّذرُ
علامَ تبعثُك الأحقادُ في صــلفٍ وفيك يسكنُ داءُ الجبن والخَــوَرُ
منك الرصاصُ ومني الوجهُ مختضبٌ كالأفقِ بالشفقِ الورديّ يــأتزرُ
دمُ الشهيدِ صداقُ الحورِ يدفعــه لله وهو إلى الفــردوسِ يبتــدرُ

إن هذا البطل يتحدى العدو في جرأة وشجاعة غــير مكتــرث برصاصــه وأسلحته، لأن هذا البطل إنما يضع روحه على كفه في جهاده لأعداء الدين، فدم الشهيد هو مهر الحور العين في جنات الفردوس.

ويمجد الشاعر عدنان النحوي شهيد الانتفاضة بعد أن أعرب -في بدايــة قصيدته- عن ابتهاجه بالطفل الثائر، ثم يقول[1]:

والـــروابي تلفتـــتْ لتـــراه شعلةً في الــدجى وقلبــاً يجــودُ
نفحتْه كـــلُّ الزهـــورِ شـــذاها وحبتْه أزكى العطــورِ الــورودُ
فـــإذا بالــدماءِ نفحــةُ مســكٍ فوّحتْ عنــدها رُبــاً ونجــودُ
فتمنّت كـــلُّ الزهـــورِ شـــذاها وتمنّتــــه كاعــــبٌ وخــــرودُ
أروعُ العطرِ ما تجودُ بــه الــرو ح وتعطيــه مهجـــةٌ ووريـــدُ
وإذا بالربــــا دويٌّ ينــــادي والليالي صــدى هنــاك بعيــدُ
أنا عطري من الــدماءِ الغــوالي كلُّ شبرٍ ثــوى عليــه شــهيدُ

إن شاعرنا يعلي من شأن هذا الشهيد الذي جاد بنفسه فكان شعلة وضاءة

(١) ملحمة الأقصى: ١٤٤-١٤٥.

في ظلمة العسف والجور، فجرى دمه الطهور على ثرى أرضه مسكاً يعطر الربا، فأروع عطر هو دم الشهيد الذي بذل مهجته في سبيل كرامة أرضه.

ثم يتابع الشاعر حديثه عن الشهيد الذي رمز به لكل فدائي غدت بسالته جزءاً من بسالة شعبه؛ فيصوّر قطرة دمه الزكي وهي تروي ملاحم التاريخ المجيد على هذه الأرض الطاهرة. ثم يعلن الشهيد أنه من أمة ماجدة بناها الرسول -عليه الصلاة والسلام- وما أوحى إليه ربه جلّ وعلا، كما أعلن عن مراميه وأهدافه، إنه أرخص دمه في سبيل إعلاء كلمة الله وتضحيةً في سبيل كرامة الإسلام وعزته فكان مآله إلى الجنان. وهو رمز لكرامة الإنسان المسلم الحرّ الوفيّ لدينه وأمته. إذ يقول[1]:

وسرت قطرةٌ من الدم تروي ... حيثُ تسري ملاحماً وتعيدُ
كلُّ ما في الربا أصاخ وأصغى ... عجباً والورى أصمٌّ عنيدُ
أنا من أمةٍ بناها رسولُ اللـ ... ـه والوحيُ والكتابُ المجيدُ
أنا لله قد سكبتُ دمائي ... ولربّي تضرّعي وسجودي
عبق الطهرِ في دمي وحياتي ... نفحةُ الخيرِ والعطاءُ الفريدُ
أنا عطري من الجنانِ ونفحي ... صبّه الشوقُ منه والتوحيدُ
أنا معنى الإنسانِ جوهرُه الحرّ ... وعزمٌ على الوفاءِ أكيدُ

وفي قصيدة ((قيود)) للشاعر عبد الرحمن بارود، نجد الشهيد ((رمزاً للبطولة الحقة والتفاني المطلق في سبيل الوصول إلى إرضاء الله وإلى إعادة الحياة الإسلامية))[2]. إذ يقول[3]:

(١) ملحمة الأقصى: ١٤٥.

(٢) مجلة المشكاة: عدد ١٠- السنة الثالثة- ١٤٠٩هـ- ص٥.

(٣) غريب الديار: ٩٨-٩٩.

وفرســـانُنا كنجــــومِ الســـماءِ وأكفانُنا البــيضُ فـــوق البنـــودْ
رِدِ الموتَ تملكْ عنـــانَ الحيـــاة شهيداً وتعتـــقْ رقـــابَ العبيـــدْ
أَأَعــــداء (اللهُ أكــــبرُ) موتـــوا فـــ (اللهُ أكـــبرُ) لحـــنُ الخلـــودْ
وما الأرضُ؟ إني أرى الأرضَ أصْـــ ـــغر من قطرةٍ من دماءِ الشهيدْ

يعلي الشاعر في الأبيات من شأن المجاهدين المتعطشين إلى ذرى الشـــهادة. فالشهيد يتحدى أعداءه بصيحة ((الله أكبر)) التي تنطلق مع كل حجر، وتســـدّد رمي كل قذيفة بإذن الله. ثم يقرر الشاعر أن قطرة الدم هي التي تُراق في ميـــدان الجهاد لهي أكبر من آفاق الأرض الممتدة.

وها هو ذا الشاعر محمود مفلح في ديوانه ((نقوش إسلامية علـــى الحجـــر الفلسطيني)) ينظم قصيدته بمناسبة مرور عامين على الانتفاضة الباســـلة، ونجـــده يحيّي الشهيد ويمجّد الشهادة في قوله(١):

عاد الزمـــانُ الفـــذُّ يـــا وطـــني وعلا صهيلُ المجـــدِ يـــا عمـــرُ
أرضُ الشهادةِ كيـــف تنكرهـــا والمســـكُ في أرجائِهـــا مطـــرُ
أرضُ القناديـــلِ الـــتي ســـطعتْ في ليلِنـــا والليـــلُ معتَكِـــرُ
أرضَ الحجـــارةِ غـــرّدي فأنـــا في مســـمعي التغريـــدُ ينـــهمرُ

يستلهم الشاعر صفحات التاريخ الذهبية التي ضمت أخبار الفتوح الإسلامية لأرض الشهداء، فها قد أورت الانتفاضة زناد الثورة والغيرة من جديد، فانتشـــر عبير المسك في أرجاء الأرض المباركة، أرض القناديل التي بددت ظلام الاستسلام وأرض الحجارة التي باتت تنشد لحون الأمل المرتقب.

---

(١) نقوش إسلامية على الحجر الفلسطيني: ١٧.

ثم يوجه الشاعر حديثه إلى الشهيد ((الماضي إلى دمه)) البطل الذي يسقي الأرض بدمه الطهور فيورق شجر العزيمة في نفوس الثائرين. إن أسطورة ((العدو الذي لا يقهر)) تبددت أمام انتفاضة الشعب المجاهد. فقد علّم هذا الشهيدُ الأمةَ لغة النصر والظفر، وطريق الخلاص. وخَطّ بدمائه فصول الملاحم، في حين تخاذلت الأمة عن نصرته، فيا له من قمر ساطع في ليل الهزيمة والتخاذل![1]:

يا أيها الماضي إلى دمِه   يسقى العطاشَ فيورقُ الشجرُ
أسقطتَ ألفَ خرافةٍ لهمُ   وأتتْ على أمجادِهم سقرُ
علمتَنا لغةً تهزّ بنا   كلَّ الغصونِ فيسقط الثمرُ
وأريتَنا كيف الظلامُ هوى   والجاهليةُ كيف تنتحرُ
وكتبتَ فصلاً في ملاحِمنا   وسواك ما قالوا ولا سطروا
لولاك لم يحفل بنا قمرٌ   يا أنت ما أحلاك يا قمرُ!

وللشاعر محمد منير الجنباز[2] مساهمة في هذا المجال في قصيدته ((شبل الحجارة)). إذ يقول[3]:

في كل يومٍ مرّ الشهور نرى   عرساً لطفلٍ شهيدٍ وجهه القمرُ
يمضي فيأتي على إثرٍ صحابتُه   يتابعون مسيراً خطّه القدرُ

(١) نقوش إسلامية على الحجر الفلسطيني: ١٧-١٨.

(٢) محمد منير الجنباز: ولد في حماة في سورية عام ١٩٤٣م حصل على الشهادة الجامعية في الجغرافيا ودبلوم التأهيل التربوي والماجستير في الإعلام. له ديوان شعري مطبوع: انظر مدرسة بدر وشعراؤها: ٩٠.

(٣) مجلة التوباد- السنة الرابعة، عدد ١٣، ص٦٠.

وأرضُنا قد بدت عطشى تريد دماً … هذا الفداء وهذا الجرح ينفجرُ
توثّب الطفلُ كالبركانِ مندفعاً … يقدمُ الروحَ لاوانٍ ولا حذرُ
يرمي الحجارةَ لا يخشى حديدَ لظىً … وقد بدا رجلاً ما عاد يحتقَرُ
سعى إلى الموت ليس اليأسُ يدفعُه … بل للفداءِ بقلبٍ ما به خورُ
أرى الخيوطَ لفجرٍ قام يصنعُه … جيلُ الحجارةِ صبّارون ما ضجروا
رَتلُ الشهادةِ يمضي في مواكبِهِ … رغم الجراحِ بنورِ الحق ينتصرُ
ومن أرادَ حياةَ العزِّ جاد لها … بالروحِ والمالِ بالإقدامِ يأتزرُ

يشيد الشاعر باستمرار الانتفاضة وتصاعدها، ففي كل يوم ينضم شهيد بطل إلى قافلة الشهداء. فأرض الجهاد متعطشة إلى الدماء الزكيّة لترويها من أجل صيانة شرف الأمة الذي هو أغلى من كل نفيس. ويحيّي الشاعر شجاعة ذلك الطفل الجسور الذي يُقْدِم على الموت بلا أدنى خوف. فصارت هذه الثورة أملاً مرتقباً وخيوط فجر قادم. ويؤكد الشاعر أن قافلة الشهادة مستمرة ومتزايدة رغم الممارسات التعسّفية من العدو. ثم يورد الشاعر حكمة بليغة مؤداها أن حياة العزّ لا تتحقّق إلا بإرخاص الروح والمال ذوداً عن حياض الحرمات.

وخلاصة القول: إن الشعراء مجّدوا الشهيد في سبيل العقيدة، ورأوا فيه الباحث الصادق عن الخلاص من ظلمات العسف والخنوع والاستسلام، إما بالنصر في الدنيا ورفع كلمة الله في الأرض، وإما بنيل الشهادة والفوز بالجنة في الآخرة وهما الحسنيان، وهذه هي البطولة الحقّة.

هذا، وقد ساير الشعراء خطا ذلك الشهيد مجاهداً ومغالباً العدو ثم قتيلاً يعطّر المسك جراحه، ثم خالداً منعماً في جنان الخلد. ولا مراء أن في ذلك زرعاً

لحب الشهادة في قلوب المسلمين، وتأكيداً على قيمة الشهيد ومترلته عنـــد الله؛ لأنه إنما يجود بأنفس ما عنده، كما قال الشاعر:

يجود بالنفسِ إذ ضنّ البخيلُ بهـــا　　　والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجودِ

المبحث الثالث

الحل الإسلامي هو الطريق لإنقاذ فلسطين

إذا كانت مرحلة نكبة حزيران ١٩٦٧م قد دفعت الشعراء إلى النظر إلى الآفاق المستقبلية نظرة أمل وتفاؤل -مع أغلال الهزيمة- فإن مرحلة الانتفاضة المباركة ١٩٨٧م كان شعرها أقوى في طرح الحل الإسلامي، متمثلاً في الوحدة الإسلامية والجهاد لإنقاذ فلسطين. فالانتفاضة أحيت الأمل في النفوس وأعادت الثقة والتفاؤل بالغد الظافر. فراح الشعراء يبثّون في الأمة روح النقاء والعزيمة والعزة الإسلامية الشماء؛ وقد انعكس ذلك جلياً في شعر الانتفاضة. فإيجابية المؤمن تتمثل في سعيه الدؤوب إلى العمل؛ فالعمل هو الترجمة الواقعية للإيمان. فليس الأمر مجرد مشاعر إنما هو مشاعر تفرغ في حركة لإنشاء واقع وفق التصور الإسلامي للحياة. ومن هنا جاءت أهمية الدعوة إلى الأدب الفيّاض بالتصور الإسلامي والبعد بآفاق الأدب عن دروب السلبية وكهوف التشاؤم(١).

وشارك في تلك الدعوة إلى الجهاد عدد كبير من الشعراء في حمية صادقة وحماسة متدفقة، وقد اخترت منهم تسعة شعراء:

الأول: محمود مفلح في قصيدته ((صرخة))، وقد استهلها بلهجة ساخرة لاذعة موجهة إلى المتخاذلين عن الجهاد في فلسطين، وليس همهم سوى العيش الرغيد.

---

(١) انظر الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق: ٤٠.

وفي المقابل يبرز صورة المجاهدين الأباة. فيقول[١]:

نحن قـــومٌ أعزنـــا اللهُ بالإســــ ـــلامِ يا قومُ فانهضـــوا وأفيقـــوا
وابعثوا النارَ في رمـــادِ الليـــالي وأضيؤوا كما تضـــيءُ الـــبروقُ
أمـــتي أمـــةُ العقيـــدةِ يـــا قـــو م وهـــذا ســـلاحُها الموثـــوقُ
حسبها أنها استطالت على الشمــــ ــسِ ومنها الفاروقُ والصـــديقُ

يقتبس الشاعر مقولة عمر الخالدة: ((نحن قوم أعزَّنا الله بالإســـلام ومهمـــا ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله)). ويبثّ الشاعر في بني قومه روح التوثّب والعزيمـــة؛ ليشعلوا النار التي علاها رماد الخنوع، ويعودوا بروقاً تضيء للعالم طريق الهداية. ويذكّر الشاعر بماضي الأمة المجيد مستمداً من شخصيتيّ الصديق والفاروق رضي الله عنهما إيحاءات العزة والمواقف المضيئة في مسيرة التاريخ؛ ليعود بقبس منها إلى الحاضر الأليم لعله من عثرته ينهض ومن لهوه يفيق[٢].

٢- أما الشاعر عمر بهاء الدين الأميري فيقدم لقصيدته -في الحـــث علـــى الجهاد- بقوله: ((ليس الأمر سهلاً ولا قريب المنال، ولكن له موعـــداً في قـــرار الأقدار -وهي صاحبة القرار- يدور الفلك نحوه، ويسير بنا إليه؛ ولا بد أن نبلغ القصد ونحقق المجد لأنفسنا وللعالمين بعون من الله العزيز القدير)). ثم يقول[٣]:

النواميسُ في ركابِك يـــا إســــ ـــلامُ تمضي وتستحثُّ الزمانـــا
سترى أعينُ العصـــورِ انبلاجـــاً مـــن دياجيرِنـــا لنـــورِ هـــدانا

(١) شموخاً أيتها المآذن: ٤٠.

(٢) انظر الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق: ٩٥.

(٣) حجارة من سجيل: ١٤٤.

وبعد هذه المقدمة المفعمة بالأمل والثقة بنصر الله، يسترسل الشاعر في نظرته المتفائلة[١]:

كان دينُ الإسلامِ مذ كان هدياً للبرايـــا ورحمـــةً وأمانـــا
وستبقى فينـــا حـــوافزُه المثـــ ـــلى ويبقى في أمرِنـــا فرقانـــا
سنوالي جهادَنـــا في فلسطيـــ ـــن نقيمُ الصلاةَ في ((أقصـــانا))
موعـــدٌ مـــبرمٌ إذا مـــات عنـــه شيخُنا القرمُ فيـــه ينمـــو فتانـــا
علَمُ الكون في غدٍ ونشيدُ الـــ ـــكونِ طُرّاً وخطُّنـــا وخطانـــا
ونجاة الوجـــود في القـــدرِ المـــر صـــودِ أمـــرٌ يحكّـــم القرآنـــا

ينادي الشاعر بأن البطولات التي انبثقت من هذه الانتفاضة المباركة لتـــدلل على أن روح أمة الإسلام لا تني تجدد في القلوب الإيمان والعزيمة تستمدها مـــن القرآن الكريم. ويؤكد الشاعر استمرارية الجهاد في فلسطين حتى التحرير؛ لينعم المسلمون بصلاة آمنة مطمئنة في رحاب الأقصى الشريف. وسيظل ذلك الهدف ماثلاً نصب أعيننا تتوارثه الأجيال عَلَماً ونشيداً وهدفاً سامياً.

٣- وإذا كان الشاعر الأميري يطرح الحل الإسلامي -من خلال هذه النظرة الواثقة بالنصر-، فإن الشاعر خالد الحليبي يطرحه من خلال تمجيـــده لأبطـــال الحجارة. يقول[٢]:

يا عربُ هذي صفحةٌ قد سُطِّرتْ بدمِ الشبابِ فأشرقتْ فتعلمـــوا
أبطالُ غزّة علمـــوكم بالزجـــا جةِ والحصى كيف المدججُ يُهزَمُ

(١) حجارة من سجيل: ١٤٥.

(٢) قلبي بين يديك: ٧١.

فرأيتُم أطفـــالَهم يجـــرون للــــــ موتِ الزؤامِ وليس فيهم محجـــمُ
ورأيتم شيباً بهـــم روحُ الشـــبا بِ توثبتْ وعلى الشهادةِ صمّموا
وشبيبةً لهبُ الحماســـةِ في دمـــا ئهـــم بـــنيرانِ العزيمـــةِ يُضـــرَمُ
قد أُشربوا روحَ الجهادِ فزلزلـــتْ شبحَ المخـــاوفِ فالمنايـــا سُـــلَّمُ

يهيب الشاعر بالأمة أن تتعلم من أولئك الأبطال؛ مذكياً فيهم روح الجهاد وموقظاً هممهم. فأبطال غزة يجاهدون العدو بسلاحهم البسيط، ومـــع ذلـــك يوقعون الرعب في صدور الجنود الصهاينة، ويفرون من أمامهم هـــاربين. كمـــا يشيد الشاعر ببطولة الأطفال الذين يقدمون على الموت بلا أدنى تهيّب، وكذلك الشيوخ والشباب، الذين ألهبت الحميّة الدينية عزيمتهم فصمدوا مجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله وفي سبيل كرامة الأمة.

٤- وفي قصيدة ((شموخ)) للشاعر أحمد محمد الصديق يعلن الشاعر في نبرة عالية- شموخ الأبطال وشجاعتهم رغم سياسة القمع الصهيونية. فيقول[(١)]:

حطّموا ساعدي ودقّوا عظـــامي لستُ أُحني على المذلـــةِ هـــامي
لا أبالي الردى وإن عربد الليـــــ ـــلُ وضجت عواصـــفُ الآلامِ

وينشط الشاعر في إذكاء روح الجهاد والاحتفال بالأمجاد الإسلامية؛ فيـــبين أن هذا الجهاد إنما يسير على سنن القادة أمثال أمين الحسيني وعز الدين القسّام، وعلى خطا القادة الفاتحين الأوائل الذين ملؤوا الأرض بنور الهداية وبدّدوا سجف الظلام.

(١) هكذا يقول الحجر: ٢٩.

يقول(١):

نحـــن لله مــــا حيينــــا جنـــودٌ   قد رضعنا الإباءَ قبـــل الفطـــامِ
ونهضنا على خطا القـــادة الغـــرّ   ونهجِ ((الأمينِ)) و((القسّـــامِ))
أوَلسنا أحفادَ من فتحوا الدنـــــ   ـــيا وسادوا بالعدل في الأقـــوامِ؟
نقتفي دربَهـــم جهـــاداً وإيمـــا   ناً ونمحو بالنورِ جـــيش الظـــلامِ

ويتوجه بالحديث إلى الأمة المتقاعسة عن نصرة الحق فيقول(٢):

أدخيـــلٌ ويســـتبدُّ بأرضـــي؟!   وجبـــانٌ يصـــولُ كالضـــرغامِ
تلك واللهِ ربِّ قاصمةُ الظهـــــ   ـــرِ فهبّي يـــا أمـــةَ الإســـلامِ
أم تُرى في الحضيضِ لَذَّ لكِ العيـــ   ـــشُ وطابت وخامـــةُ الانهـــزامِ
وتراخى الرعاةُ وانفرط العقـــــ   ـــدُ وعاث الذئابُ في الأغنـــامِ
يالخزي القعودِ في موقـــف البـــذ   ل وعـــارِ الخنـــوعِ والإحجـــامِ

ينظر الشاعر إلى سواد الواقع المضني، ويرى أحداثه قاصمة الظهر؛ حيث العدو الجبان يجوس في البقعة المباركة يدنس طهرها، ولا من يهب إلى تطهيرها من دنس العدو ورجسه. ويتساءل في مرارة: هل استمرأت الأمة العيش في الحضيض والتمرغ بأوحال الهزيمة؟ فالراعي إن غاب عاثت الذئاب في أغنامه. فيا لخزي القعود في موقف البذل!.

وينهي الشاعر قصيدته بتذكير الأمة بالأمجاد السالفة مؤكداً أنّها أمة الأمجاد التي سطرها التاريخ في بيض صفحاته، ويتساءل في استنكار؛ هل يضيع الأقصى

(١) هكذا يقول الحجر: ٣٠.

(٢) المرجع نفسه: ٣١-٣٢.

المبارك ويُترك للعدو الباغي؟ كما يدعو إلى هدم السدود الوهمية بيننا وبين مقدساتنا، إنها سدود الخور والهزيمة والخنوع، ودعا أيضاً إلى استعادة كرامة الأمة بالجهاد؛ لتتسنّم ذرى المجد؛ حيث كانت وحيث ينبغي أن تكون[1]:

أمتي أمةُ المجادةِ ماذا ... ما عهدناك للخنى والذّامِ؟
أيضيعُ الأقصى ويُترك في الأغـ ... ـلالِ تترو منه الجراحُ الدوامي؟
حال ما بيننا جدارٌ من الوهـ ... ـم فدُكّوا معاقلَ الأوهامِ
واستردوا كرامةً أهدروها ... واركبوا للمنى متونَ الحِمامِ
آن أن تستعيدَ قمتَها الرو ... حُ وترقى لفجرِها المتسامي
وتقودَ التاريخَ في موكبِ الشمـ ... ـسِ وتحظى بالمجدِ بين الأنامِ

٥- ويوجه الشاعر كمال رشيد حديثه إلى الفتاة الأسيرة التي لا تنفك تبكي وتستنجد بأبناء الإسلام الغُيُر؛ فيجيبها الشاعر مطمئناً[2]:

يا أختِ لا تتبرمي فغداً ... نأتيكِ نحمل رايةَ النصرِ
فالثورةُ الحمراءُ قد ظهرتْ ... كالشمسِ تسطع ساعةَ الظهرِ
ثارَ الصغارُ على عدوهِمُ ... وتجملوا بالعزمِ والصبرِ
شهباً على أعدائِهم نزلوا ... والعزمُ في جنباتِهم يسري

ينظر الشاعر إلى المستقبل نظرة متفائلة واثقة بالنصر من عند الله. ويرى في الانتفاضة إرهاصة بالثورة التي سيبزغ فجرها مبدداً ظلام الحاضر، ويشيد ببطولة الصغار الذين انطلقوا في همة وعزيمة، كالشهب الساقطة على العدو الطاغي.

---

(١) هكذا يقول الحجر: ٣٣-٣٤.

(٢) القدس في العيون: ٥٣.

ويسترسل الشاعر في حديثه المتفائل مؤكّداً شمولية الانتفاضة وانبثاقها في نواحي البلاد، وفي القدس ونابلس ورفح وفي كل بيت؛ فقد عمّت الثورة الأرض المباركة، ولا عجب في ذلك ((فالبطولة شيمة الحر))[١]:

في القدسِ في نابلس في رفحٍ　　في غزة الشماءِ كالنسرِ
في كل أرضٍ كلّ حاضرةٍ　　في القريةِ العزلاءِ في الوعرِ
لم يبقَ بيتٌ في مرابعِنا　　إلا وفيه صرخةُ الثأرِ
لا تعجبوا هذي أرومتُنا　　إن البطولةَ شيمةُ الحرِّ

وفي قصيدة ((أمي تناديني)) للشاعر أبي فراس محمد النطافي[٢]، يحكي الشاعر عن معاناته بعيداً عن وطنه وأهله، فيستهلّ قصيدته بقوله[٣]:

أمي تناديني وترقبُ عودتي　　في صوتِ كلّ مبشرٍ ومنادِ
تجثو على الأبوابِ تسأل أهلَها　　عنّي ومطويّ الجوانحِ بادِ

ثم يلجأ إلى أسلوب النداء إلى أمه واثقاً بالعودة إلى بلاده مجاهداً؛ وفي ذلك إثارة واستنهاض لهمم بني قومه؛ ليهبّوا لنجدة أهليهم في الأرض السليبة، ويرفعوا رؤوسهم ثائرين لكرامة الأمة، كالنسر لا يرضى بما دون القمم.

---

(١) القدس في العيون: ٥٣.

(٢) أبو فراس محمد ذيب النطافي: ولد في نطاف (من قرى القدس) عام ١٩٤١م تلقى تعليمه في قرية (بيت دقو) وفي (القبية) ثم ارتحل إلى عمان وتخرج من دار المعلمين، ودرس في بيروت والقاهرة، ثم حصل على الدكتوراة في الأدب من جامعة الأزهر، وعمل في الكويت والسعودية والأردن، وله إنتاج في الشعر والنقد والمسرح، (من بطاقة معلومات أولية من رابطة الأدب الإسلامي).

(٣) ديوان الانتفاضة، أحمد موسى الخطيب: ٥٩.

يقول[١]:

لبّيكِ يا أمي فإني عائدٌ ... رغم العدوّ، ومنعةِ الأسدادِ
لبّيكِ إني عائدٌ فترقّبي ... عَودي إليكِ بُعدتي وعتادي
وتسمّعي صوتي يجيئك هاتفاً ... أمي أردّدها من الأكبادِ
سأعود يا أمي وأهدم حاجزاً ... بيني وبينك شامخَ الأطوادِ
سأعود مرفوعَ الجبينِ كرامةً ... كالنسرِ يطوي زرقةَ الأبعادِ

وفي ختام قصيدته يصف يوم العودة، يوم معركة الثأر، فيقول[٢]:

سأعودُ بين مصفّحٍ ومجترٍ ... في يومِ كرٍّ قاتمٍ وجلادِ
سأعودُ واللهبُ المؤجّجُ في دمي ... حُمَم تدمّرُ زمرةَ الأوغادِ
لا تحسبيني غائباً لا تُرتَجى ... لي عودةٌ لأحبتي وبلادي
آتون يا أمي لهيباً محرقاً ... يكوي فؤادَ الغاصبِ الجلّادِ
لا يستطيع البطشُ وقفَ تقدمي ... ما دام كفّي ممسكاً بزنادي
إني على الجبلِ الأشمّ منارةٌ ... لقوافلِ الأبطالِ والآسادِ
فالأرضُ تزأرُ والسماءُ صواعقٌ ... والبحرُ ملتهبُ الجوانحِ صادِ

إنه يوم الأخذ بالثأر من زمرة الأوغاد يوم أن تلتهب حمم الثأر في نفوس الثائرين؛ فتحرق قلوب الغاصبين. ويجعل الشاعر الطبيعة تشاركهم الغضب والثورة؛ فالأرض تزأر، والسماء ترسل صواعقها، والبحر ملتهب الجوانح متعطشٌ للثأر.

---

(١) ديوان الانتفاضة: ٥٩.

(٢) المرجع نفسه: ٦٠.

٧- والشاعر خالد أبو العمرين يعبر عن مدى تفاؤله بالانتفاضة، مؤكداً انبثاق فجر التحرير، محتجاً على الشعارات كلها عدا شعار ((الله أكبر)) الذي حمله أبطال الأمة الأفذاذ أمثال خالد بن الوليد:

كما عبر الشاعر عن أمنيات شباب الأمة بالشهادة في سبيل الله، يقول[1]:

يـا إخـوتي انقشـع الضـبا بُ ولاحَ فجـرُكمُ الوليـدْ
كـلُّ السـيوفِ تكسّـرتْ لم يبـقَ إلا ابـنُ الوليـدْ
طـوبى لمـن طلـب الشـها دةَ في مقارعـةِ اليهـودْ
مـن عنـده النصـر العزيـ ـز وصاحب البطش الشـديدْ
((اللهُ أكـبرُ)) في قلـو بِ الشعب تقصـفُ كـالرعودْ
في فتيـةِ الإيمـانِ لا خـورٌ ولا جـبنُ العبيـدْ

ويسترسل في وصفه لفتية الإيمان، جند المعركة؛ الراكعين الساجدين الحاملين كتاب الله دستوراً ومنهاجاً[2]:

الـراكعين لـربهِم الـدائمين لـه سـجودْ
آمنـتُ بـالقرآنِ دسـ ـتوراً وهـدياً للجنـودْ
آمنـت بـالفتحِ المبيـ ـنِ يـدكّ أركـانَ الوجـودْ
آمنـتُ بـالفردوسِ دا راً للمجاهـدِ والشـهيدْ

(١) في القدس قد نطق الحجر: ٥٢.

(٢) في القدس قد نطق الحجر: ٥٢.

ويدعو الشاعر في مختتم مطولته إلى الجهاد دعـوة صـريحة إلى حرب مقدسة تتحرر من قيود الوهم، ولا تخشى في الله لومة لائـم، لتمسح عار الهزيمة والمذلة، وتكون الشرارة والوقود الذي يوقد نار الحرب ويغذّيها[1]:

يـا قـومُ حـيَّ علـى الجهـا ... دِ فإنـه النصـرُ الأكيـدْ
سنخوضُـها حربـاً مقـدّ ... سـةً ونهـزأُ بـالقيودْ
أنـا مسـلمٌ أخشـى الإلـ ... ـهَ ولا أخـافُ مـن العبيـدْ
فلتنهضـوا ولتمسـحوا ... عـارَ المذلـةِ والخمـودْ
إن لم تقـودوا الزحـفَ مـن ... يـا أخـوتي سـوف يقـودْ؟
لنكـون نحـن شَـرارَها ... ونكـون نحـن لهـا الوقـودْ

٨- ويخاطب الشاعر عبد الرحمن العشماوي أبناء أمته حاثّاً علـى الجهـاد حتى النصر، قائلاً[2]:

يا أمةً مـا زلـت أشـدو لهـا ... شدوَ محـبٌّ مـدنَفِ الخـاطرِ
لا تقفـي يـا أمـتي واركـبي ... ظهـرَ حصـانٍ جـامحٍ ثـائرِ
لا تسكني أرض الخنـوعِ الـتي ... ترفـع فيهـا هامـةُ الفـاجرِ

يدعو الشاعر أمته إلى التحرّك لتحرير الأرض المقدسة التي تنتظر تخليصها من نير الاحتلال. ويقرن العشماوي ذلك باستدعاء الشخصيات الإسلامية والنظـر إليها نظرة وجدانية تستوحي وهج الإيمان والشوق إلى روح التوثب والحمية لدى

---

(١) في القدس قد نطق الحجر: ٥٢-٥٣.

(٢) شموخ في زمن الانكسار: ١٤٨-١٤٩.

الصحابة الأفذاذ من أمثال بلال بن رباح وياسر أبي عمّار، وهما رمــز الفــداء والتضحية والصمود في سبيل العقيدة. فيقول(١):

سألتُ أحلامــي ســؤالاً لــه   طعمُ اللظى في شــفةِ الشــاعرِ
من أين لي اليــومَ بشــهمٍ لــه   عزمُ ((بلالٍ)) ورضا ((ياســرِ))
يا أمــةَ الإســلامِ قــولي لنــا: ((أما لهذا الليل مــن آخــرِ؟))

٩- ومن ديوان ((الفتية الأبابيل)) للشاعر يوسف العظم قصــيدة يهــديها الشاعر ((إلى الشامخين الأباة في قطاع غزة)) ويستهلّها بقوله(٢):

مزّقيهــا يــا غــزةَ الأحــرارِ   وارفضي العيشَ في ثيابِ العــارِ

ويتابع حديثه المتحدّي -بعد هذا المطلع الثائر- موجّهاً خطابه إلى غزة الأحرار:

وارفعي رايةَ الجهــادِ وقــولي: قد علتْ همّتي وعيل اصــطباري
علمتْنــا الأيــامُ أن التنــادي   للمنايــا يــديرُ خــيرَ حــوارِ
وحديثُ اللسانِ من غــيرِ فعــلٍ   يُلبس الخانعين ثــوبَ الصَّــغارِ
سوف ألقــاهُم بخــير ســلاحٍ   من صخورٍ تنــداحُ أو أحجــارِ
ليزول الظلامُ مــن كــل بيــتٍ   وتشــعّ القلــوبُ بــالأنوارِ

وهكذا تتوالى نداءات الشاعر لغزة الأحرار مهيبة بها إلى رفع راية الجهاد بعد اصطبار على الداء المتمثل في الاحتلال الغاشم. فقد عرفت سبيل الخلاص، إنــه الجهاد وحمل السلاح، وكل ما عدا ذلك خنوع وصغار واستسلام. ولا بــد أن

---

(١) شموخ في زمن الإنكسار: ١٤٩.

(٢) الفتية الأبابيل: ٢١-٢٤.

يثمر الجهاد ثمرته فتتبدد سحب الظلام لتشع شموس العزة والظفر. قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٠].

وبعد، فإنه لمن الواضح أن الشعراء عظّموا هذه الثورة المباركة تعظيماً كبيراً وربطوا بين هذه الانتفاضة الجهادية وبين المعارك الحاسمة في التاريخ، وهذا التعظيم من ناحية وذلك الربط من ناحية أخرى يعكسان أحاسيس الشعراء بالانتفاضة وهي أحاسيس التفاؤل الغامر بقرب الخلاص من الاحتلال البغيض.

كما أن هذا الطرح القوي للحل الإسلامي المتمثل بالجهاد يجلو دور الإنسان المسلم في العالم؛ فهو نور وضياء لأمة الإسلام وللناس كافة، مهما هاضت جناحيه عهود الضياع والهزيمة؛ لكن روح الوثبة كامن في الأعماق ينادي بعودة الإنسان المسلم لتسلّم دوره من جديد، ويستنهض في الأجيال وثبة الإيمان والقيام بأداء الأمانة(١).

وبعد، فإن شعر الانتفاضة ليستحق أن يفرِد له الباحث كتاباً خاصاً؛ فالقول فيها لا ينتهي والحديث عنها لا يُمَلّ، وتصوّرها محبّب إلى النفس؛ فهي إسلامية المبدأ والمسار. ولو حصرنا كل ما قيل فيها ما استطاع له الفرد حصراً؛ ولكن حسبي أن أكون قد وضعت قدمي على أول طريق البحث في هذا الأمر الجلل الذي ابتعث الأمل في النفوس وأعاد إليها الثقة.

وإذا كانت هذه الانتفاضة قد غذّت الشعر الإسلامي، فإنها جعلت الشعراء الإسلاميين يفتشون في مخزونهم التاريخي عن البداية الصحيحة للفتوح الإسلامية الأولى ويتتبعون مسيرها منهاجاً وعملاً حتى يصلوها بهذه الثورة الإسلامية المباركة.

---

(١) انظر الإنسان في الأدب الإسلامي، تأصيل وتحليل: ٤١٥.

الفصل الخامس

التجربة الإبداعية
في ميزان النقد الفني

- المبحث الأول: التجربة الوجدانية والتعبير عنها.
- المبحث الثاني: الوحدة العضوية.
- المبحث الثالث: الخيال الإبداعي.
- المبحث الرابع: الموسيقا الشعرية.

مقدمة

((حب الجمال فطرة في النفس الإنسانية، فهي بقوة فطرية قاسرة تميل إليه وتنجذب نحوه، وليس بمستطاع النفوس أن تغير فطرتها التي فطرها البارئ المصور عليها. والجمال شيء يصعب تحديده، ولكن باستطاعة النفوس أن تحس به متى أدركته، وعندئذ تميل إليه وتنجذب نحوه وتأنس به وترتاح إليه وتسعد بالاستمتاع بلذة إحساس المشاعر به ولو تخيلاً... والجمال يكون في جميع المجالات التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة حتى مجالات الأفكار والتخيلات والوجدانيات والطباع وأنواع السلوك الإرادي النفسي والظاهر))(1).

وما يهمنا في هذا المقام هو مجال المشاعر الوجدانية والأفكار والتخيلات، فالشعر لون من الجمال تنطبق عليه قواعد الجمال العامة، ولذا أقف وقفة موجزة عند التجربة الإبداعية الجمالية لدى الشعراء الإسلاميين الذين استلهموا القضية الفلسطينية مبرزة الخصائص الفنية لتلك التجربة.

---

(١) مبادئ في الأدب والدعوة:٣٦.

المبحث الأول

التجربة الوجدانية والتعبير عنها

لاشك أن من أهم الخصائص الفنية للقصيدة: التجربة الوجدانية أو الشعورية وهي: ((الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه))[1] أو بتعبير آخر هي: ((العنصر الذي يدفع إلى التعبير)) و ((الحالة التي تتشبع فيها نفس الشاعر بموضوع من الموضوعات أو مشهد من المشاهد أو فكرة من الأفكار أو مرأى من المرائي ثم يتهيأ بعدها للإعراب عن مشاهداته أو رؤيته... ثم يأتي دور الصياغة، فإذا كانت الصياغة موفقة مؤتلفة مع التجربة فقد بلغ الشاعر غايته وأبدع الإبداع الفني كاملاً))[2].

وهي بصورة أخرى: ((حدث وجداني أو عاطفي ينبع من نفس صاحبه، ومن عقله، ومن كل حواسه ودخائله النفسية والفكرية الظاهرة والباطنة))[3].

وتكاد هذه النصوص تجمع على أن التجربة الوجدانية الشعرية تنبثق عن الإحساس العميق للشاعر بقضية من القضايا حسية أو معنوية، فتتفاعل عناصر

---

(١) النقد الأدبي الحديث: ٣٦٣.

(٢) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث: ٢٩-٣٠.

(٣) في النقد الأدبي: ١٣٨-١٣٩.

هذه القضية، وتجيش أركانها وجوانبها في صدره، فتنعكس شعراً عميق التصوير قوي التأثير جياش العاطفة.

ويزيد هذا الانعكاس قوة وتأثيراً قدرة الشاعر على صب مشاعره في قوالب ملائمة لتلك المشاعر من ألفاظ رائقة وتراكيب مختارة.

وهكذا يصل الشاعر إلى ذروة التجربة الوجدانية إذا استطاع أن يوائم بين هذين الاتجاهين ويوفق بين هذين المحورين: محور الانفعال النفسي الناجم عن عميق التأثر بالفكرة وجزئيات معطياتها - حتى يتمكن من نقل هذا التأثر والتأثير إلى قلب القارئ والسامع وعقله، فيهز مشاعرهما ويملأ عقولهما- ومحور الصياغة الشعرية الرائقة التي تفوقت بألفاظها وتراكيبها وأساليبها الرصينة، فطرقت الأسماع والقلوب؛ لتدخل بلا استئذان وتتمكن منها فتطربها طرباً أصيلاً وتهزها هزاً عميقاً.

والتجربة الشعرية في صورتها الكاملة أشبه ما تكون بعملية الصعود إلى قمة جبل، صعود له أول يبتدئ منه وآخر ينتهي عنده، وكل جزء من هذا الطريق الممدود يسلم إلى جزء آخر، وكل جزء يحتاج إلى مدة من السكون والراحة ليستطيع الشاعر أن يتم رحلته ويأخذ وقته الكافي لإعادة النشاط ومتابعة الصعود من جزء إلى جزء. وهو خلال صعوده يستكشف ويتأمل فيما حوله، ويرصده من جميع جوانبه، حتى إذا وصل إلى القمة البعيدة أحس أنه قام -بالفعل- برحلة لا سابق لها، رحلة لها كل ما يميزها وعمل جديد كامل[١].

---

(١) في النقد الأدبي: ١٣٨.

هذا، وإن استلهام شعرائنا للقيم الإيمانية وتطعيم المعاني بالمشاعر الوجدانية جعل شعرهم -في مجموعه- مفعماً بالحرارة والعاطفة التي يلمسها القارئ المتذوق بوضوح ((مما أضفى على النتاج الفني غنىً وثراءً، مصدره المشاعر النفسية التي تبث الحياة في الأثر الفني وتخصبه))[١].

وأعرض فيما يأتي بعض النماذج التي تفصح عن طبيعة الجانب الوجداني.

يطالعنا الشاعر عمر بهاء الدين الأميري في قصيدته ((إهابة وأمل)) حيث يتفاعل الشاعر وجدانياً مع فلسطين ومكانتها وقدسية أرضها. فيقول[٢]:

فلسطينُ يـا آيـةَ الله في الـ ... ـوجودِ ويا روضةً مـن سـناءْ
مقـامُ الخليـلِ وعـزّ المقـام ... وجـلّ الخليـلُ أبـو الأنبيـاءْ
وحضـنُ البتـولِ ومحرابُهـا ... ومهدُ ((المسيحِ)) صفيِّ السـماءْ
ومسرى رسولِ هدى العـالمين ... ومعراجُه الفـذُّ يعلـو العـلاءْ
ليحظـى بـأسمى وأغلـى ذرا ... وأسـنى وأدنى وأرقـى لقـاءْ
فلسطين يا عروةً بين ((مكـ ... ـة)) و((القدس)) خالدةً من مضاءْ
وعهداً مـن الله في عنـقِ كـل ... أبي وأعظِـم بعهـد الإبـاءْ
وديـناً علـى كـلِّ حـرٍّ وفيٍّ ... يـروّي ثـراكِ بحَـرّ الـدماءْ

بهذه العاطفة المتقدة، وهذا الأسلوب القوي عبر شاعرنا عن مكانة فلسطين في نفوس المسلمين وعزمهم على تخليصها من براثن اليهود. وقد راوح الشاعر بين الأساليب الإنشائية والخبرية في الأبيات لتوضيح الفكرة وتأليقها: فمن الإنشاء

(١) أثر الإسلام في الشعر الحديث في سورية: ١٤٤.

(٢) من وحي فلسطين: ١٤-١٥.

قوله: ((يا آية الله، ويا روضة من سناء، ويا عروة بين مكة والقدس، ويا عهداً من الله، ويا ديناً على كل حر)) فأسلوب النداء يوحي بسمو مقام هذه البقعة المباركة. ومن الأسلوب الخبري: ((مقام الخليل وعز المقام، وحضن البتول ومحرابها، ومهد المسيح صفي السماء)). وفي هذه الأبيات حشد الشاعر مجموعة من فضائل الديار المقدسة وطائفة مما خصها به الله حتى غدت ((آية الوجود)) و((روضة السناء))، ليمكنه هذا الحشد من الفضائل والخصائص من تعميق التأثير الوجداني في نفس السامع، حتى تهزه التجربة الوجدانية هزاً عنيفاً، وتزيد من تأثره بقدسية هذه الأرض المباركة، وبالتالي العمل الجاد الدؤوب على تخليصها وتحريرها من الغاصب المحتل.

والشاعر أحمد محمد الصديق عاش حياة الاغتراب وعانى مشاعر الحنين إلى وطنه، وبدا شديد الحزن في غربته الطويلة. فقال[1]:

من وجهكَ تطلعُ أقماري ... وجمالُك مبعثُ أشعاري
يا وطني يا عينَ الدنيا ... يا هاجسَ ليلي ونهاري
فتشتُ كنوزَ الأرضِ فما ... ألفيتُ بديلاً عن داري
أشواقي أسرابُ طيورٍ ... عائدةٍ تحت الأمطارِ
وحنيني موقدُ أحزانٍ ... حرّى تتوهجُ كالنارِ
مهما تتقاذفني الأموا ... ج فأنت نهايةُ أسفاري

نلمس في الأبيات تأثر الشاعر بلواعج الاغتراب. وقد تمكن الشاعر من التعبير عن إحساسات الشوق والحنين إلى وطنه. واستخدم الشاعر أسلوب النداء

---

(١) قادمون مع الفجر: ٧١.

مكرراً في البيت الواحد: ((يا وطني يا عين الدنيا، يا هاجس ليلي ونهاري)) مما يوحي بالمناجاة الهامسة إلى وطنه، وكأنه الحبيب يناجي محبوبته. أما عموم الأبيات فتشيع فيها الجمل الخبرية؛ لتحكي معاناة الشاعر من مشاعر الأسى والحزن بعيداً عن وطنه، وقد أضفى الشاعر على حنينه وأشواقه عنصر الحركة القوية السريعة التي تعين أيضاً في تعميق الإحساس والشعور وتزيد نبض الوجدان، ويتمثل ذلك في حركة أسراب الطيور العائدة إلى مواطنها وأوكارها، لا يمنعها مطر ولا يحول بينها وبين تلك المواطن عائق. ويتمثل كذلك في هذا الموقد الذي يتوهج بالجمر ويتلظى بالنار فكأنه بركان اضطرمت نيرانه تحت الرماد فلا تلبث تلك النيران أن تنفجر حنيناً إلى الأوطان ترنو إليها وتشرئب إلى إطفاء تلك النيران في تلك الأوطان كما تنطفئ نيران حنين المحب في لقاء الحبيب. وأخيراً تتمثل تلك الحركة في صخب الأمواج العاتية التي تتقاذف الغريب الذي امتلأ قلبه لواعج شوق ودفقات حنين إلى الوطن، فهو يتحدى تلك الأمواج ويقرر بثقة مطلقة أنه سيصارعها ويتغلب عليها ليكون رسوه في الأخير على شاطئ بلاده الحبيبة ينعم بلقائها والعيش فيها.

وفي مجال التعبير عن الغربة والحنين نجد الشاعر كمال رشيد يرى الطبيعة تشاركه آلامه وأتراحه في غربته المرة، فيقول مناجياً البحر[1]:

أيها البحرُ إن فيك اضطراباً ... كاضطرابي في غربتي طولَ عمري
حدّث اليومَ عن قديم الليالي ... يا سجلَّ التاريخِ في كل عصرِ
حيثُ كانت بلادنا دارَ أنسٍ ... دار عرسٍ ورقةُ العيشِ تُغري

(١) شدو الغرباء: ٨٨-٨٩.

حيث كانت سواحلٌ وسـهولٌ ورياضٌ طابت بزهـرٍ وعطـرِ
أيها البحرُ هل مررتَ بـأهلي؟ وبصحبي ومسكني خلفَ نهـرِ؟
وفلسطينُ هـل سمعـتَ نِـداها لبنيها في كـل أرضٍ ومصـرِ؟
أترانا نعـود للسـهلِ والأهـ ـلِ ونحيا لسـاعةٍ مـن نصـرِ

نسمع في القصيدة أنيناً وحسرة على الماضي الجميل الـذي قضـاه الشاعر في ربوع وطنه الغالي، كما نلمح الأسلوب الإنشائي المتكـرر في صورة نداء ((أيها البحر)) ((يا سجل التاريخ)) يوحي بامتداد الآهـات المتولدة عن ألم الفراق، وفي صورة الاستفهام و((فلسطين هـل سمعـت نداها؟)) ((أترانا نعود للسهل والأهل؟)). كما نجد الجمل الخبرية تتخلل الأبيات: ((حيث كانت بلادنا دار أنس)) ((حيـث كانـت سـواحل وسهول)).

وما قيل في النص السابق يقال أيضاً في هذا الـنص؛ فالأشـعار تضـج بالحركة، وأمواج البحر صخابة مضطربة اضطراب الشاعر في غربتـه وعـدم قدرته على السكون والاستقرار، ولكن سرعان ما تتطـامن هـذه الحركـة المضطرمة فتؤول إلى حديث البحر عن التاريخ فكأنه غدا راوية له، وإلى سؤال البحر عن الأهل في الوطن فكأنه تحول إلى مراسل ينقل الأخبار ويجـيء بهـا، فينظر الأهل في الوطن النائي القريب ويتسقط أخبارهم، ثم يتلفت إلى هـؤلاء المشردين أصحاب الوطن الأصليين، فيلفته نداء الأرض أبناءهـا وحنينـها إلى عودتهم إليها والتئام الشمل فيها.

ومن الشعراء الذين توقفوا عند تصوير مشاعر النكبة (١٩٦٧م): أحمد فرح عقيلان في ((صرخة في مأتم العيد)) حيث يوجه الشاعر خطاباً مفعماً بالعاطفة الحارة إلى العيد عيد الهزيمة، فيفتتح قصيدته بقوله[١]:

يا عيدُ يا مأتماً للأهلِ والدارِ   لا عدتَ إن لم يزينْكَ الدمُ الجاري

ثم تمور في صدره مشاعر الحسرة والرغبة في الثأر، فيصرخ:

حطمتُ قيثارتي قطعتُ أوتاري   جفَّ الغناءُ ودقّتْ ساعةُ الثارِ
ماذا أغني وتاريخُ العروبةِ في   مستنقعِ الذلِّ والتشريدِ والعارِ
والقدسُ والمسجدُ الأقصى وصخرتُه   عاد الأذانُ بها تهريجَ كُفّارِ

إنه تصوير صادق للهزيمة وأثرها في نفوس المسلمين، وترد ثلاثة أساليب إنشائية في المطلع: فالنداء: ((يا عيد يا مأتماً)) والدعاء: ((لا عدت)) والشرط: ((إن لم يزينك الدم الجاري)) فجمع المطلع بين عاطفة الحزن والحسرة والثورة، ويقوي الشاعر هذا المعنى بالطباق بين العيد والمأتم، ثم يلجأ الشاعر في البيت الثاني إلى الأسلوب الخبري، ثم يعود إلى الأسلوب الإنشائي مستفهماً: ((ماذا أغني وتاريخ العروبة في مستنقع الذل..؟)).

ويغلف الشاعر مشاعر الهزيمة التي تملأ صدره بغلاف التحدي والرفض والتمرد على هذا الوضع الذي نجم عن الهزيمة، ويتمثل هذا التحدي بأنه هجر في دنياه مظاهر الفرح والسرور جميعاً فلا هو بحاجة بعد اليوم إلى الأعياد -والعيد بطبيعته يحمل معنى الفرح والسرور- ولا هو بحاجة إلى الغناء -وهو كذلك مظهر

(١) جرح الإباء: ٢١.

من مظاهر البهجة والسرور- لذا بادر إلى تحطيم أدوات الطرب والغناء، فحطم قيثارته وقطع أوتار عوده والتفت بكليته إلى الإعداد لساعة الثأر، ليخرج به من مستنقع الذل والعار الذي غاصت فيه الأمة نتيجة لتلك الهزيمة.

وإذا نظرنا في عاطفة الشاعر مأمون جرار وإحساساته إزاء النكبة الكبرى والمصيبة العظمى وجدناه صادقاً في إحساسه، عميقاً في تأثره، حيث يقول(١):

مالي أراكم ذاهلين سُكارى ... مالي أراكم تائهين حيارى؟
مالي أراكم قائمين على الخنا ... متقلّبين به دُجى ونهارا؟
مالي أراكم تركضون لِهُوّةٍ ... خلف السرابِ ألا ترون منارا؟
يا قوم أبكتْني مصائبُ أمةٍ ... لاقت سفينةُ رِكبِها إعصارا
يا قومَنا قد ذاب قلبي من أسى ... وتخافتتْ دقاتُهُ استنكارا
مما أصاب الشعبَ في مهدِ الهدى ... لما غدا قومي هناك أُسارى

فردة الفعل التي تركتها النكبة تتمثل لدى شاعرنا في هذه التساؤلات الحائرة المتكررة: ((مالي أراكم ذاهلين؟ مالي أراكم تائهين؟ مالي أراكم قائمين على الخنا؟...)) ولا شك أن في هذا التكرار تعميقاً للتجربة الشعورية واستيعاباً لمعنى الحيرة والاستنكار. وإننا لنرى الشاعر صادقاً في تعبيره عن مكنونات نفسه، وإفضائه بها، وفي تعبيره عن إحساسات الناس بآلامهم وأحزانهم وحيرتهم، فهو لم يعبر عن نفسه حسب، بل إنه يعبر عن مواقف المسلمين من هذا الحدث الجسيم، ويهز الشاعر في هذه الأبيات قومه النيام المهرولين إلى الهوة الوافدة خلف السراب، ويحذرهم أن يقعوا فيها فيكون الهلاك والمصير المحتوم.

(١) شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث: ٣/٧٧-٧٨.

وهو يجمع في الحقيقة بين ضياع البلاد وتشرد الأهل، فبعضهم أضحى أسيراً في بلده، وبعضهم غادرها مكرهاً وحيل بينه وبينها فما يستطيع لها عوداً ولا يحلم منها بلقاء!.

وقد تنوعت التجارب عند شعرائنا الإسلاميين؛ فمنها ما هو شخصي عاشه وعاناه الشاعر بنفسه، ويظهر ذلك في تصوير مأساة النازحين، وجراح الغربة، ومعاناة الحنين إلى الوطن، كما نراه في شعر محمد صيام. حين يقول موجهاً حديثه للفدائيين(١):

وسألتُهم عن أهلِنا ... بعد التشتتِ والفراقْ
ورفاقُنا في الموطنِ الـ ... ـغالي تُرى كيف الرفاقْ؟
فعلمتُ أن نفوسَهم ... مُلئَتْ حنيناً واشتياقْ
لكنّهم آلَوا بأن ... يبقوا هناك مرابطينْ
رغمَ التبجّح من عدوّ ... اللهِ والحقدِ الدفينْ

* * *

وسألتُ عن يافا وعن ... حيفا وغزّة والخليلْ
وبلادنا تلك التي في ... الأرضِ ليس لها مثيلْ
وعن البطولةِ في جبا ... لِ القدسِ أو على الجليلْ
والمسجدِ الأقصى الحبيـ ... ـبِ فقيل: برّحَهُ الحنينْ
وبه اشتياقٌ عارمٌ ... للراكعين الساجدينْ

---

(١) دعائم الحق: ١٤٤-١٤٥، والقصيدة متعددة القوافي.

نلمح في الأبيات العاطفة الصادقة المشبوبة حين بث الشاعر لواعج الحنين ومرارة الاشتياق إلى وطنه السليب. مستخدماً أسلوب الاستفهام في حسرة وألم وحنين ((ترى كيف الرفاق؟ وسألت عن يافا وحيفا، وعن البطولة في جبال القدس)) وانظر إلى هذا الأسلوب الحكيم في قوله:

والمسجدِ الأقصى الحبيـــبِ فقيل: برّحَهُ الحنينْ

ومن التجارب ما هو اجتماعي استلهمه الشاعر من المحيط الاجتماعي والإنساني مستنداً إلى الملاحظة والتفاعل والتأثر؛ ((فليس ضرورياً أن يكون الشاعر قد عانى التجربة بنفسه حتى يصفها، بل يكفي أن يكون قد لاحظها، وعرف بفكره عناصرها، وآمن بها، ودبت في نفسه حمياها. ولا بد أن تعينه دقة الملاحظة وقوة الذاكرة وسعة الخيال وعمق التفكير، حتى يخلق هذه التجربة التي تصورها عن قرب، على حين لم يخض غمارها بنفسه))[1].

ونضيف إلى مضمون هذا النص أن أقوى ما يشد الشاعر البعيد عن التجربة الذاتية والمعاناة الشخصية، صلة ما بالقضية التي تناولها، وهي هنا بطبيعة الحال صلة العقيدة ورابطة الدين التي سمت على كل رابطة.

كما نرى في قصيدة الشاعر يوسف العظم حين يعرض مأساة النازحين الفلسطينيين في المخيمات الفلسطينية؛ فيحكي المعاناة على لسان فلسطينية في لبنان تروي قصتها فتقول[2]:

ذبحوني من وريدٍ لوريدِ وسقوني المرّ في كل صعيدِ

(١) النقد الأدبي الحديث: ٣٦٥.

(٢) عرائس الضياء: ٢٧.

مزّقوا زوجي فلــم أعبــأْ بِهِــم ومضوا نحو صغيري ووحيــدي
غرســوا الحربــةَ في أحشــائه فغدا ((التكبيرُ)) أصداءَ نشــيدي
دمّروا بيتي وهــل بــيتي هنــا؟ إن بيتي خلف هاتيــك الحــدودِ
وتلفّــتُ فلــم أعثــر علــى غير أبنــاءِ الأفــاعي والقــرودِ
ذبحــوني مــن وريــدٍ لوريــدِ غــير أني لم أطــأطِئْ ليهــودي

فيا له من مشهد مؤثر يمثله هذا المقطع الأول من القصيدة؛ فهو يجسد معاناة الأم الفلسطينية وشراسة العدو ووحشيته وما يكون من هذه الأم الأبيــة مــن مشاعر الإباء والعزة والاصطبار.

ويبدأ الشاعر أبياته بعبارة ((ذبحوني من وريد لوريد)) والذبح هنا يعني إراقة الدماء، أي قطع أنفاس الحياة. هكذا بدأ الشاعر قصيدته بالدم، والــذبح علــى الطريقة الصحيحة إذن هنا إشارة هي الخبرة في الذبح وسفك الدماء... وتتصاعد الحركة الدموية في الأبيات؛ بأفعال تعطي معنى القتل وسفك الــدماء وغــرس الحراب، لتندمج مع صراخ المرأة على ابنها. وتصل إلى قمة المأساة ولا حول لها ولا قوة إلا التكبير... ثم يقول:

دمروا بيتي وهــل بــيتي هنــا؟ إن بيتي خلفَ هاتيــك الحــدودِ

هنا إشارة واضحة إلى أن المرأة شردت من بيتها في فلسطين ((خلف هاتيك الحدود)) فتدمير بيتها زاد من مرارتها وحرمانها... وفي خضم الأحداث والذهول لم يمنع المرأة الكسيرة أن تنظر حولها علها تجد نصيراً معيناً، خاب أملها، فلم تــر إلا الأعداء الذين شبههم الشاعر بالأفاعي والقرود، وهذه صورة منتزعــة مــن

القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢/٦٥][١].

ومثال آخر على التجربة الاجتماعية الإنسانية قصيدة ((رسالة من القدس)) للشاعر نفسه يصف فيها الملامح الكئيبة للمعاناة. حيث يبعث إلينا رسالة على لسان شيخ فلسطيني يحكي لنا فيها عن الضيق الذي يعانيه، والآلام التي يكابدها. فيقول[٢]:

في ساحةِ المسجدِ المحزونِ حدثني … شيخٌ على وجهِهِ الأيامُ ترتسمُ
لمن أبثُّ شَكاتي والشفاهُ غَدَتْ … خرساءَ ليس لها في الحادثاتِ فمُ؟
من ذا الذي هدَّ مني ساعداً ويداً … هل ضاع دربي أم زلت بي القدمُ؟
لقد جرعنا كؤوسَ الذلِّ مترعةً … والقدسُ في العارِ والمحرابُ والحرمُ
والصخرةُ اليومَ باتت غيرَ شامخةٍ … لأن نجمةَ صهيونٍ لها عَلَمُ

فنجد العاطفة في الأبيات قوية تحمل التفجع الحار وشكوى الأرزاء المتتابعة. نلمح ذلك في الألفاظ والعبارات الموحية: ((المسجد المحزون، أبث شكاتي، والشفاه غدت خرساء، ضاع دربي، زلت بي القدم، جرعنا كؤوس الذل...)).

فقد استعمل هذا ((الحشد)) من عبارات الشكاة والضياع والحرمان، مستلهماً بعضها مما سبق من الشعراء مثل شوقي في قوله في رثاء آثار بني أمية في دمشق[٣]:

(١) مأساة بيروت في الشعر العربي المعاصردراسة تحليلية نقدية: ٦٥٧-٦٥٨.

(٢) في رحاب الأقصى: ٦٧.

(٣) الشوقيات: ٢/١٠١.

تغير المسجدُ المحزونُ واختلفـتْ على المنـابرِ أحـرارٌ وعُبـدانُ
فـلا الأذانُ أذانٌ في منارتـهِ إذا تعـالى ولا الآذانُ آذانُ

ومن التجارب الوجدانية ما هو خيالي يتخذ الشاعر منه معبراً لبث آلامه وشجونه، مما يطعّم معانيه بالمشاعر الوجدانية الحارة، وبالتالي تنعكس هذه المشاعر على نفس القارئء المتذوق. ومن ذلك تجربة الشاعر كمال الوحيدي حين يبث شكواه إلى يمامة هيج هديلها كوامن الأسى في نفسه، وهي تجربة سار فيها على سنن الشعراء القدامى، إذ يقول(١):

هديلُك يا يمامـةُ هـزّ حِسـي وبثّ الشوقَ في أعماقِ نفسـي
أثـارَ الـذكرياتِ بهـا لهيبـاً فحنّت للـتي ألفيـتُ أُنسـي
إليهـا جـاد قلـبي بالتحايـا فمنها النورُ يسطعُ ضوءَ شمـسِ
يمامـةُ رددي سـجعاً فـإني بعيدُ الدارِ عن أهلـي وقدسـي
طريدٌ عن ديـاري منـذ حـين وقد سُـلِبتْ روابيهـا بخلـسِ
وكان الأهلُ صـرعى في عـراءٍ وفي الفلواتِ قتلى دون رمـسِ
بربـكِ يـا يمامـةُ شـاطريني بأسجاعٍ أجـد فيهـا التأسّـي
وبثّي الشوق إن يمتِ أرضـي كنفحِ الزهرِ في طياتِ طِرسـي

إننا نحس بعمق الشعور بالحنين ومعاناة لواعج الشوق الصادق، في تعبير الشاعر عن ألم الفراق المبرح، بعد أن تقطعت الأسباب بينه وبين وطنه.

---

(١) طريد الدار: ١٥٥-١٥٦.

كما أننا نجد التجربة الخيالية لدى الشاعر نفسه حين يوجه حديثه إلى الشمس مقدماً لقصيدته بقوله: ((شمس بيروت تغيب صوب بحر فلسطين التي حرمت منها منذ سنين، فتذكرت الأهل والأصدقاء والوطن))[1] ثم يقول:

يا شمسُ حيّي موطني وصِحابي   إن غبتِ أنتِ فقد يطول غيابي
طال الفراقُ وقُرّحَتْ أجفانُنا   واليأسُ حلَّ بساحتي ورحابي
عشرين عاماً قد قضيتُ ونيِّفاً   وأنا أؤمِلُ نصرةَ الأحبابِ
والشيبُ بان بعارضيّ ومفرقي   والخطبُ أفقدني عظيمَ صوابي

إنه يرسل التحية إلى موطنه مع الشمس الغاربة ويسألها ألا تغيب ليظل على أمل في العودة إلى وطنه الحبيب. فنجد الشاعر لا يصطنع ولا يتكلف وإنما عبر بصدق عن لواعج الأسى والحنين للوطن الغالي. متخيراً الألفاظ الرقيقة الموحية بلا أدنى لبسٍ أو غموض.

ومن التجارب الشعورية المتخيلة ما نراه لدى الشاعر محمود مفلح حين يحيي الشهداء ويرى أن انتفاضة أطفال الحجارة قد أورت زناد الثورة والغيرة من جديد؛ فيرى النصر وقد تحقق وصار المسك يعطر أجواء الأرض المباركة، أرض القناديل التي بددت ظلام الاستسلام. يقول[2]:

عاد الزمانُ الفذُّ يا وطني   وعلا صهيلُ المجدِ يا عمرُ
أرضُ الشهادةِ كيف ننكرُها   والمسكُ في أرجائِها مطرُ
أرضُ القناديلِ التي سطعتْ   في ليلِنا والليلُ معتكِرُ
أرضُ الحجارةِ غردي فأنا   في مسمعي التغريدُ ينهمرُ

(١) طريد الدار: ٩٣.

(٢) نقوش إسلامية على الحجر الفلسطيني: ١٧.

ثم يوجه حديثه للشهيد الذي علم الأمة لغة النصر والظفر. فقال[١]:

يـــا أيهـــا الماضـــي إلى دمِـــه ... يسقي العطاشَ فيورق الشـــجرُ
أســـقطتَ ألـــفَ خرافـــةٍ لهـــمُ ... وأتتْ علـــى أمجـــادِهم ســـقَرُ
علمتَنـــــا لغـــــةً تهـــــزُّ بنـــــا ... كلَّ الغصـــونِ فيســـقطُ الثمَـــرُ

ولا شك في أن هذه التجربة الشعورية تفيض بالحياة والتدفق؛ لتوقظ الأمل في نفوس أبناء الأمة والتفاؤل بالنصر والظفر للمضي قدماً في بذل أسباب النصر. ورأينا الألفاظ في هذه القصيدة قوية فخمة تحمل رعود الثورة والوعيد.

ومن التجارب الشعورية نوع رابع هو التجربة التاريخية، حين يمجد الشاعر الماضي الزاهر ويستدعي التاريخ مشيداً بالعظماء المسلمين الأوائل، ومستدعياً معاني العظمة في التاريخ الإسلامي، ومقرعاً الحاضر المتخاذل. ومن ذلك: قول الشاعر أحمد محمد الصديق[٢]:

رايةُ اليرموكِ فينا مـــا انطـــوتْ ... فارفعوها ترتفعْ للمجـــدِ هـــامْ
وصـــدى التكـــبيرِ في أرجائِهـــا ... أين من لبّى إذا حانَ الصِـــدامْ؟
في ســـبيلِ الله لا نصـــرَ ســـوى ... نصرِه والحربُ بـــذلٌ واقتحـــامْ
هكـــذا ترقـــى ذُراهـــا أمـــةٌ ... هكـــذا يرســـخُ للحـــقِّ دِعـــامْ
هكـــذا يـــبرزُ فينـــا خالـــدٌ ... وصلاحُ الدين والجيـــشُ اللـــهامْ
هكـــذا تُفـــتَحُ آفـــاقُ الـــدنى ... هكذا فـــالحقُّ يحميـــه الحســـامْ
عـــزةٌ تجتـــاحُ في اللهِ المـــدى ... وحدةٌ ما عابهـــا قـــطُّ انـــثلامْ

(١) نقوش إسلامية على الحجر الفلسطيني: ١٧-١٨.

(٢) قادمون مع الفجر: ٢٨-٢٩.

ويظهر في الأبيات المعاني الإسلامية القوية في إطار من الألفاظ الفخمة الرنانة التي توحي بالموقف النفسي الذي يعيشه الشاعر، إنه الإكبار والإجلال للتاريخ المجيد والشخصيات الإسلامية الفذة، ومواقع الإسلام الظافرة. كما نرى المشاكلة اللفظية التي أوردها الشاعر عفوية دون تكلف أو اصطناع ((فارفعوها ترتفع)) و((لا نصر إلا نصره)). ويكرر الشاعر كلمة ((هكذا)) في وصفه للتاريخ المجيد واستنهاضه لهمم الأجيال؛ فكان لها وقع قوي في الأبيات. كما راوح بين الأساليب الإنشائية والخبرية؛ مما ساعد على استيعاب المعنى واستيفائه.

ويبرز الشاعر عبد الرحمن العشماوي هذه التجربة التاريخية في استيحائه وهج الإيمان وروح التوثب والحمية التي تحلى بها الصحابة الأفذاذ أمثال: بلال بن رباح، وياسرٍ أبي عمار، رمزي الفداء والتضحية والصمود في سبيل العقيدة. فيقول[1]:

سألتُ أحلامي سؤالاً له — طعمُ اللظى في شفةِ الشاعرِ
من أين لي اليومَ بشهم له — عزمُ ((بلالٍ)) ورضا ((ياسرٍ))؟
يا أمةَ الإسلام قولي لنا: — ((أما لهذا الليلِ من آخرِ؟!))

يدعو الشاعر الأمة من خلال هذا الاستلهام لبذل أسباب النصر لاسترجاع الحق السليب فتأتي عاطفته قوية ثائرة بما حملته من اندفاع وانطلاق. ولا شك أن في ذلك قهراً للهزيمة في النفوس وإطلاقاً للطاقات الكامنة في أعماق الأمة لتمضي في طريق المقاومة والغلب والنصر.

وهكذا بعد أن ألمت ببعض النماذج المفصحة عن طبيعة التجربة الوجدانية التي لونت نتاج الشعراء الإسلاميين يجمل بيَ القول إن هؤلاء الشعراء كانوا

(١) شموخ في زمن الانكسار: ١٤٨-١٤٩.

صادقي الالتزام بالإسلام ديناً ومنهاجاً وشريعة وجهاداً، وقد نفذت هذه المعاني إلى عواطفهم فأذكت فيها روح الصدق والحرارة الدافقة. كما نفذت إلى الأسلوب فجاء معظمه مطبوعاً واضحاً لا تكلف فيه ولا غموض. وجاءت الألفاظ والتراكيب مقدودة على قدود المعاني مناسبة لها لا تزيد عن المعنى ولا تنقص عنه. ومن اللافت للنظر كثرة استخدام الشعراء أسلوب التكرار -كما رأينا في النماذج السابقة- مما أضفى على الأبيات إيقاعات مميزة واستوعب المعاني وأكدها فكان عفوياً غير متكلف.

المبحث الثاني

الوحدة العضوية

الوحدة العضوية: هي ((وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية، لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر))[1].

((فليست القصيدة خواطر مبعثرة تتجمع في إطار موسيقي؛ إنما هي بنية نابضة بالحياة، بنية تتجمع فيها إحساسات الشاعر وذكرياته لتكون مزيجاً لم يسبق إليه من الفكر والشعور))[2].

وكلا التعريفين يؤكد أن الوحدة العضوية هي وحدة تقوم على المشاعر النفسية التي يمليها الوجدان، وهذه الوحدة النفسية قد تتشابك فيها الموضوعات وتتوارد فيها الأفكار والخواطر، ما دامت النفس هي التي تملي هذه الوقائع وتنظمها في خيط واحد يسري متصلاً في أبيات القصيدة من أولها إلى نهايتها محدثاً أثراً فعالاً في نفس القارئ.

---

(١) النقد الأدبي الحديث: ٣٧٣.

(٢) في النقد الأدبي: ١٥٣.

والناظر إلى الشعر الإسلامي في القضية الفلسطينية يرى أن كثيراً من الشعراء قد حققوا هذه الوحدة؛ إذ انتظمت قصائدهم وحدة عضوية ونفسية تقوم على المشاعر النفسية التي يمليها الوجدان.

ومن ذلك قصيدة ((فراق وأشواق)) التي يبث الشاعر أحمد الصديق فيها شجونه وآلامه إثر فراقه لأهله ووطنه، وذلك في سياق قصصي تلتحم فيه الأبيات وترتبط ارتباطاً عضوياً. يقول[1]:

كانوا وكان الحبُّ والأملُ ... وتفرقوا فالدمعُ ينهملُ
بالأمسِ ولّوا عن مرابعِهم ... وتشعبتْ في الغربةِ السُّبُلُ

ثم يلتفت -في عفوية بالغة- إلى ذاته ومشاعره في غربته الموحشة؛ ليصف أوضاعه بعد فراق الأحبة، وإحساسه بالوحدة والوحشة:

كلُّ الأحبةِ هاجروا وأنا ... وحدي هنا تنتابني العللُ
واحرّ قلبي بعد غيبتِهم ... في أي أرضٍ يا تُرى نزلوا؟

وتسلمه هذه المشاعر إلى حالة من اليأس، فيصف غربته الطويلة بقوله:

أحلامي الخضراءُ قد ذبلتْ ... والروضُ يلوي زهرهُ الأجلُ
ويداي ترتعشان من وهنٍ ... وشبابي المحزونُ يكتهلُ

فقد كانت له أحلام مستقبلية خضراء، أصبحت اليوم ذابلة، وذهبت أدراج الرياح. كما أذابت الغربة جسمه وأوهنته فغدا كهلاً تثقله الهموم والأحزان.

---

(١) قادمون مع الفجر: ٦٣-٦٥.

ثم يضيف لبنة أخرى في بناء القصيدة المتكامل، حين يتحدث عن ذكريات الأحبة وما خلفوه من آثار في أنحاء البيت الذي كان عامراً بهم:

أطيـافُهم في البيـتِ تصـحبني وتحفّـني النظـراتُ والمقـلُ
وأُحسُّـهم في كـل زاويـةٍ ضمّتْ خيـالاتِ الأُلى رحلـوا
وأشـمُّ أثوابـاً لهـم تُركـتْ مـن أدمعـي في طيِّهـا بَلَـلُ

ثم يرى صاحبنا مفردات المكان تشاطره معاناته، فالموقد سهده طول الفراق، وصار يعاني طول الصمت بعد أن كان يشهد أصوات الراحلين وجلبتهم، وشجرة الزيتون افتقدهم كذلك، وكذا المقعد المهجور، والملاعب الموحشة، والسفح والجبل. يقول:

الموقـدُ الوسـنانُ سـهّده طولُ النوى والصمتُ والوجـلُ
وشـجيرةُ الزيتـونِ مطرقـةٌ والمقعـدُ المهجـورُ يتـهلُ
وملاعـبُ الأطفـالِ موحشـةٌ من بعـدِهم والسـفحُ والجبـلُ

ثم يقدم خلاصة لمشاعره وانفعالاته في بيت واحد يوجز فيه شدة معاناته، إذ يقول:

الشـوقُ في الأعمـاقِ محتـدمٌ والفكـرُ مهمـومٌ ومنشـغلُ

وبعد هذه الهواجس الأليمة تتطلع نفس الشاعر -في انتقال عفوي تلقائي- إلى التفكير في المستقبل المشرق الذي يتمناه، فيلتئم الشمل البديد، وتندمل جراح القلب، حين يعود الأحبة بعد طول غياب؛ فيحل الفرح محل الحزن وتبدد أنوار اللقاء ظلمات الغربة والمعاناة يقول:

فمتى سيلتئمُ الشتاتُ متى　　يا ربِّ جرحُ القلبِ يندملُ؟!
ويؤوب بعد البينِ غائبُهم　　وبعودةِ الأحبابِ نحتفلُ
ويضمنا عشٌّ نهيمُ به　　والعينُ بالأضواءِ تكتحلُ
حيثُ الطفولةُ والصبا درجا　　حيث الرضا والطهرُ والجذلُ

وفي نهاية المطاف يقدم الشاعر وعداً تبدو فيه اللوحة الحزينة السابقة ذات طابع إيجابي، مشيرة إلى بداية تحرك المغترب، وتظهر فيها بوادر الثورة، فيختم أبياته بقوله:

الحر لا ينسى وشائجَه　　أبداً إذا ما الناس قد غفلوا
وطنُ الفتى أغلى وإن عَذُبتْ　　في غيرِه الأمواهُ والظللُ
وإذا دعا الداعي لنصرتِه　　ألفيتَه كالبرقِ يمتثلُ

فكانت هذه الأبيات خاتمة لقصة المغترب الذي قرر في نهاية حكايته أن الحر يرفض -من أعماقه- أن تسرق أرضه وأن يبقى مشرداً. ويؤكد تصميمه على الرجوع إلى أرضه. ولسانه يردد عبارات حارة تعصف في رأسه، لتدفعه إلى المضي قدماً نحو تحرير أرضه في عزم وثورة وتصميم.

وهكذا رأينا الشاعر يحسن الانتقال بين الأفكار في قصيدته حتى انتهى إلى خاتمة استلزمها ترتيب الأفكار والصور.

وفي قصيدة ((الأطفال الزلزال)) للشاعر عمر الأميري نلمس البناء العضوي للقصيدة متنامياً متكاملاً بتقدم الأبيات وتتابعها.

فنسمع الزلزلة الكبرى -التي أحدثتها الانتفاضة المباركة- في المطلع الــذي اختاره الشاعر، إذ قال[(١)]:

اللهُ أكـــــــــبرُ دوّتْ تزلـــــزلُ الكُفــــارا
هـــي الغيـــوبُ تنـــادي أن الزمـــانَ اســـتدارا

بهذا المطلع الهادر استهل الشاعر قصيدته، مما أشعرنا بإيذان فجــر الثــورة والنهوض، فهذه بشائر الصحوة والانتفاضة تظهر عنيفة بارزة:

فصــــحوةٌ تتنـــــامى قـــد عمّـــتِ الأمصـــارا
والله يهـــــدي ويرعـــــى رجالَهـــــا الأبـــــرارا

فالصحوة قد عمت أمصار الإسلام قاطبة، وقادها رجال أبرار، ثم خــص فلسطين بعد هذا الحديث العام فقال:

وفي فلســـــطين زحـــــفٌ يشــــتد ليــــلَ نهـــارا

وهكذا قرر الشاعر أن الانتفاضة كانت باكورة ثمار الصحوة الإسلامية التي عمت أقطار الإسلام في كل مكان، ثم بدأ في ذكر تفصيلات هذه الثورة. فقال:

تلاحـــــمٌ وامتــــــدادٌ فالكــــلُّ جــــدٌ وثــــارا
بــــأسٌ عنيــــدٌ وطيــــدٌ قـــد وحّـــد الأعمـــارا

ثم يضيف تفصيلات أخرى عن هذه الانتفاضة، فقد شارك فيها قطاعــات الشعب كافة من كبار وصغار، ورجال ونساء. يقول:

---

(١) حجارة من سجيل: ٧١-٧٤.

فـــرُبَّ طفـــلٍ غـــريضٍ   للحـــــقّ ردَّ اعتبــــارا
صـــارَ النســـاءُ رجـــالاً   قـــادَ الصـــغارُ الكبـــارا
مـــن كـــلّ فـــجٌّ عميـــقٍ   أفـــــواجُهم تتبـــــارى

ثم قدم خلاصة لهذه الثورة، وقرر أنها ليست مجرد انتفاضة لا تلبث أن تهدأ، وإنما هي جهادٌ إسلامي:

ولـــيس ذاك ((انتفاضـــاً))   بـــل الجهـــادُ اســـتطارا
العـــزمُ فـــلّ حديـــداً   والكـــفُّ ترمـــي حجـــارا
فكـــلٌّ قذفـــةِ زنـــدٍ   تَصُـــدُّ ثَـــمّ عيـــارا

وبعد هذه الأفكار المتتابعة في تلقائية وانسجام تأتي الخاتمة البدهية. إذ يقول:

يا قـــومُ للقـــدس شـــدوا الـــرِّ   حـــالَ وارمـــوا الجمـــارا
علـــى طغـــامِ يهـــودٍ   بغَـــوا وخـــانوا الجِـــوارا
هـــم الشـــياطين مكـــراً   عَـــمّ الـــدنى كُبّـــارا

فأنهى حديثه بالدعوة إلى الجهاد وإبادة العدو الباغي الـذي عـمَّ فسـاده الأرجاء. وبذلك حققت القصيدة الوحدة العضوية ووحدة المشاعر الجهادية التي أملاها الوجدان الثائر. فالقصيدة -كما رأينا- دارت حول محور واحد من أولها إلى نهايتها وهو تمجيد الانتفاضة وأبطالها، وإن تعددت اللوحات الـتي رسمهـا الشاعر، إلا أنها اجتمعت في لون شعوري واحد، جعلها تتسم بوحدة الأثر، فهي تمثل تسجيلاً أميناً لأحاسيس المسلم الثائر لدينه ومقدساته.

وللشاعر محمود مفلح قصيدة بعنوان ((يا قدس)) جعلها معرضاً لبث آلامه ومعاناته بعيداً عن وطنه، بدأها بهذا المطلع[١]:

من أين أجترحُ الأمواجَ والسفُنَا وقد عييتُ فما أبصرتُ لي وطنا؟

فهذه هي القضية الكبرى التي تدور حولها القصيدة: اللجوء والتروح عن الوطن. ثم بدأ في تفصيل جزئيات هذه القضية العامة. فقال:

كلُّ الطيورِ إلى أعشاشِها هرعتْ إلا طيوري لا عشاً ولا كَفَنا
الأربعون مضَتْ والهمُّ يثقلني وما رأيتُ بدربِ التائهين سنا
وكلما لمحتْ عيناي بارقةً صرختُ إن قطافَ الجائعين دنا

وهكذا صور لنا الشاعر رحلة البحث عن وطن، فالطيور تعود إلى أعشاشها، لكن طيور المغترب لا عش لها ولا كفن، وكأنما كتب عليها الموت بعيدة عن وطنها، وأوجز المعاناة الطويلة بقوله: الأربعون مضت فقد تتابعت الأعوام على معاناته ولم يرَ بارقة من أمل. وقد بحث عن هذا الأمل في التطلع إلى نصرة إخوانه وبني عمومته. فقال:

وللمآذنِ شجوٌ في أضالعِنا لو صادفتْ من بني أعمامِنا أُذُنا

ولكنها لم تصادف من يسمع أو يعين.

ويختم الشاعر معزوفته الحزينة بهذا اللحن الباكي الموجه إلى وطنه. فيقول:

يا أيها الوطن المصفودُ معذرةً إنا نخوضُ إليك الليلَ والمحنا
لي ذكرياتٌ بها ترتاحُ قافلتي ولي سفوحٌ إليها كم هفوتُ أنا

(١) نقوش إسلامية على الحجر الفلسطيني: ٩.

فأنهى الشاعر قصيدته بإعلان تشوقه الدائم إلى وطنه رغم الليـــل الحالـــك والمحن المتتابعة، ففي ربوع وطنه ذكريات يتوق المغترب إليها وترتاح نفسه حين تذكرها.

وهكذا التحمت أجزاء القصيدة في رباط عضوي قوي هيمن على القصيدة من أولها إلى نهايتها، محدثاً أثراً نفسياً قوياً في نفوسنا. ومحققاً الوحدة الشـــعورية والعضوية في القصيدة.

وفي قصيدة ((رسالة إلى ليلى)) للشاعر أحمد فرح عقيلان يقف الشاعر وقفة هادئة يسرد فيها أخبار الأهل والأحبة في الأرض المحتلة، فيبدأ بهذا المطلع[1]:

بعد التحياتِ وأزكـــى الســـلام   أخبارنا ليست على مـــا يـــرامْ

وبعد هذه التحية التي بدأ بها الشاعر رسالته تتوالى الأخبار في تسلسل وتتابع منطقي. فيقول:

الربعُ يا ليلـــى عفـــاهُ البِلـــى   والروضُ يا ليلى جَفـــاه الغَمـــامْ
والصمتُ كالموتِ يلـــفُّ الرُّبـــا   والبلبلُ الغاوي عصـــاه الكـــلامْ
والدوحـــةُ الغنّـــاءُ مســـكينةٌ   ما أزهرتْ منـــذُ ثلاثـــينَ عـــامْ
وملعبُ الأتـــرابِ مســـتوحشٌ   يسأل ليلى عن أخيهـــا عصـــامْ

عرض الشاعر في الأبيات السابقة صوراً من الأماكن المهجـــورة في الأرض المحتلة، فالرياض جفاها المطر، والصمت يغلف الربا، والبلابل كفت عن السجع، والأشجار جفت، وملاعب الأتراب موحشة.

---

(١) رسالة إلى ليلى: ٩-١١.

ثم يستمر الشاعر في الحديث عن الديار المهجورة ويضيف إليها ما اقترفته يد الإجرام الصهيوني، مما مثل لبنة أخرى في التصميم الهندسي للأبيات. إذ يقول:

وحقلُنا المعطاءُ خيراتُه نَهبُ العِدا وهي علينا حرامْ
والحب يا ليلى وأحلامُنا جفّتْ على قبرِ الشهيدِ الهُمامْ
وأهلُنا يا ليلُ قد أُدرِجوا في كَفَنٍ من باليات الخِيامْ
والمسجدُ المعهودُ في حيّنا فيه النّدامى يكرعون المُدامْ
لم يبقَ من آثارِنا حوله إلا بقايا من دماءِ الإمامْ

وهكذا عرض الشاعر صوراً من جور العدو وممارساته التعسفية، فالحقل نهبت خيراته، والأحلام ذبلت على قبور الشهداء، والأهل مشردون في الخيام البالية، والمساجد استبيحت حرماتها، وقتل من فيها. وفي هذه الصور الحزينة امتزجت المقاطع الشعرية في بنية القصيدة بحيث تحركت القصيدة إلى النهاية المنطقية، لإحداث الأثر المقصود منها، فنجده في المقطع الأخير يقول:

أبعدَ هذا يا مُنى مُهجتي أطرقُ أحلامَ الهوى أو أنامْ؟

فجملة (أبعد هذا) مهدت للانتقال إلى الفكرة الأخيرة حتى لا يكون انتقالاً مفاجئاً مما جعل الكلام يتصل ببعضه اتصالاً لطيفاً، بلا انفصال للمعنى الأخير عما قبله، بل كان متصلاً به وممتزجاً معه، لنسمعه يقول في حديث ثائر:

لا عشتُ يا ليلى إذا لم أَثُر كما يثورُ الليثُ إذ يستضامْ
غداً سألقاكِ وفي عرسِنا تحتفلُ الدنيا بنصرِ الكرامْ
شعبكِ يا ليلى وإن شُرّدوا قوافلُ من كل شهمٍ هُمامْ

مـــا غـــيروا يومـــاً ولا بـــدلوا   ولا استكانوا لرهيـــبِ الحِمـــامْ
تجـــارةُ الأرواحِ في ســـوقِهم   وغيرُهم قد تـــاجروا بـــالكلامْ
إيـــاكِ يـــا لـــيلاي أن تيأســـي   فالفجر أقوى من جيوشِ الظلامْ

يقدم الشاعر إلى ليلاه وعداً بأن يثور ثورة الليث إذا استبيح عرينه، وحينها تحتفل الدنيا بالنصر المؤزر، ثم يكشف عن شخصية ليلاه في قوله: ((شعبك يـــا ليلى)) إنها بلاده الحبيبة التي شرد أهلها في كل مكان، ولكنهم رغم ذلك كله لن يستسلموا للموت بل سيتاجرون بأرواحهم شهداء في سبيل الله، في حين يتاجر غيرهم بالكلام فحسب، ثم يحذر من اليأس لأن ((الفجر أقـــوى مـــن جيـــوش الظلام)).

وهكذا ارتبطت مقاطع القصيدة -بل الرسالة- وتلاحمت، فأتت الصـــورة الشعرية وكأنها لوحة فنية يربط بين أجزائها الحالة النفسية ذاتها؛ مما يدل علـــى الطاقة التعبيرية الكبيرة لدى الشاعر وتمكنه من السيطرة وتوجيه مجريات الـــنص الشعري.

وعلى لسان الشهيد يجري الشاعر صالح الجيتاوي قصيدته ((هتاف المجاهـــد الشهيد)) ويبدؤها بهذا المطلع(١):

ربطتُ على قلبي وأرخيتُ غضبتي   وقلتُ لنفسي: دونك اليومَ أفلتي

وبعد هذا المطلع الذي يوجه فيه الحديث إلى نفسه، يتـــابع الشـــاعر بنـــاء قصيدته مستمراً في توجيه الحديث إلى نفسه المتمردة، فيقول:

(١) صدى الصحراء: ٦١-٦٢.

فيا طالما قاسيتُ منكِ مشقةً ويا طالما جاهتِني بالتعنتِ
كمهرٍ حرونٍ في الموقف الذي تسامين فيه الضيمَ جَمّ التغلبِ
أمنّيكِ يوماً فيه أنقع غلتي(١) وأفري عِقالاً صارماً من تَعِلةِ(٢)

إنه يناشد نفسه الإقدام والتوثب بعد طول معاناة من تعنت هذه النفس وعنادها كالمهر الحرون، وبخاصة في المواقف التي تسام فيه الضيم، وهو يتوق إلى يوم يروي فيه ظمأه، ويحقق أمله، فيقطع حبل التكاسل والتعلل بالأسباب الواهية.

ثم تتجمع إحساسات الشاعر لتضيف لبنة أخرى إلى بناء القصيدة وذلك حين يطلق الشاعر إسار نفسه ويأمرها بالإقدام في عزيمة وهمة لا تتردد، ويجعل مداها رحيباً في الآفاق فلا تتوقف إلا على هام النجوم. يقول:

وها قد أتاكِ الوعدُ فانطلقي على مداكِ ولا تُصغي ولا تتفلّتي
مواردكِ الآفاقُ والكونُ ساحةٌ فلا تقفي إلا على هام نجمةِ

ويتابع الشاعر أبياته في حديث متدفق يأخذ بعضه برقاب بعض في نمو عضوي ظاهر، إذ يقول:

قضيتُ حياتي في عناءٍ وكربةٍ على الصبرِ والآمالِ نومي وصحوتي
أطامن من كبري وأكبت لوعتي وأطفىء نيراني بتَسكاب دمعتي
أقول لعل الدهرَ يبرىءُ علتي ويأسو جراحاتي ويرجو مودتي

(١) نقع الغلة، أي: تسكين الظمأ والمقصود تحقيق الأمل.

(٢) تعلة: تعليل وتبرير.

فلـــم أرَه إلا يســـنُّ نيوبَــه   و لم أرَه إلا يعمّـــقُ نكـــبتي

يحكي الشاعر في الأبيات الدوافع التي أملت عليه الثورة وحث النفس على الإقدام، إنها الكربة والمعاناة والصراع بين الشعور بالكبرياء والشعور باللوعة، وإطفاء نيران الجراح بسكب الدموع، وتعليل النفس بالأماني والأمل في ابتسام الدهر، ولكنه كان يزداد شراسة ويمعن في تعميق الحزن والنكبات، وهنا تبلغ عواطف الشاعر مداها وتسير الأحداث نحو النهاية الحتمية حين يقول:

فلما غدا عذري مبينـاً و لم أجـد   مَفراً من الإقدام أعلنـتُ ثـورتي
تناولتُ رشاشي وأعليتُ صـرختي   وكبّرتُ للباري وباعـدتُ وثـبتي
وواجهتُ أعدائي وأحكمتُ ضربتي   فأطفأتُ نيراني وعانقـتُ جـنتي

وبهذا أعلن المجاهد ثورته بعد أن لم يعد له عذر، فتناول رشاشه، وأعلى تكبيره، وواجه أعداءه؛ فأطفأ نيران ثورته، وفاز بالشهادة والجنة. إنها قصة شعرية حاكها خيال الشاعر في مهارة وبراعة، وبرزت فيها عناصر القصة والتسلسل المنطقي والحوار. فكانت معانيها منتظمة، وأفكارها مترابطة ونسيجها متلاحماً من مطلعها وحتى نهايتها، كما أنها ذات وحدة نفسية وموضوعية متماسكة.

ويلجأ الشاعر عبد الرحمن العشماوي إلى الحوار القصصي الشعري، فيجري قصيدته على لسان الطفل الفلسطيني الذي أثقلته الجراح، وطال ليل المآسي في حياته، وأقام الأعداء بينه وبين مطامحه سداً من المعاناة والقهر. يقول موجهاً حديثه إلى أبيه[1]:

---

(١) ديوان الانتفاضة دراسة أحمد الخاني: ١٥-١٧.

أبتاه ما زالت جراحي تنزفُ والليلُ أعمى والمدافعُ تقصفُ
بيني وبين مطامحي ألفا يدٍ هذي تريقُ دمي وهذي تغرفُ

ثم يوضح الشاعر صورة الألم في هذا القلب الصغير لما يراه من واقع إخوانه المتخاذلين عن نصرته، متناسين واجبهم في الدفاع عن إخوانهم في العقيدة. يقول:

ليلُ التخاذلِ سيطرت ظلماتُه والقلبُ بالهمّ الثقيلِ مغلفُ
وتثاءب الصمتُ الطويلُ ومقلتي ترنو إلى الأفقِ البعيدِ وتذرفُ

ويضيف جزءاً آخر من أجزاء هذه الصورة المؤلمة، في تسلسل منطقي، مصوراً حالة الخوف والتمزق وضياع الأمن التي يفرضها المحتل على حياة ذلك الطفل:

وأمامَ بابِ الدار يرقُبُني الردى وعلى النوافذ ما يخيفُ ويرجفُ
يسومنا الأعداءُ شرَّ عذابِهِم فإلى متى لعدوِّنا نتلطَّفُ؟

وفي انتقالة لطيفة أحسن الشاعر حبكها يمضي الطفل نحو أفق الأمل المنتصر على ليل الأسى، فنرى فيه نموذجاً للمسلم المتصدي للصعاب والمندفع بقوة الإيمان واليقين. فبعد أن مهد الشاعر لهذه النقلة بالتساؤل السابق: ((فإلى متى لعدونا نتلطف؟)) بدأ بنا رحلة البطولة المتمثلة في ذلك الطفل الذي تحرك حين توقف الكبارُ! وعزف بالحصى لحن الكرامة والبطولة. وتحدث بلغة الثورة التي لا يفهم العدو غيرها، فأقض مضاجع المحتل وسلبه الأمن على الأرض التي احتلها ظلماً وعدواناً:

ها نحن يا أبتي نعيدُ لقومِنا ... شرفَ الدفاعِ عن الحِمى ونشرّفُ
طال انتظارُ صغارِكم فتحركوا ... لما رأوا أن الكبارَ توقفوا
وتلفتوا نحو السلاحِ فما رأوا ... إلا الحصى من حولهم تتلهفُ
عزفوا بها لحنَ البطولةِ والحصى ... ي كفٍّ من يأبى المذلةَ تعزِفُ
هذي الحجارةُ يا أبي لغةٌ لنا ... لما رأينا أننا لا ننصَفُ
جيشُ الحجارةِ يا أبي متطورٌ ... والمعتدي بسلاحه متخلفُ
أنا لا أتوقُ إلى الغِناءِ وإنما ... موتُ الكريمِ على الشهادةِ أشرفُ
بيني وبين حصى بلادي موعدٌ ... ما كان يعرفُه العدوُّ المرجِفُ
يتعوذُ الرشاشُ من طلقاتِها ... ويفرُّ منه المستبدُّ الأجوفُ
لغةُ الحجارةِ يا أبي رسمتْ لنا ... وعدَ الإباءِ. ووعدُها لا يُخْلَفُ

ثم يتابع الطفل حديث الثورة موقداً الحمية في نفوس أبناء الأمة، حيث يهيب بهم على لسان الحجر بأن يعودوا إلى فريضة الجهاد، ويرفضوا واقع التخاذل؛ لتنبعث الروح في هذا الجسد الفاني:

وغدتْ تنادينا نداءً صادقاً ... وفؤادُها من ضعفنا يتأفّفُ
لا تألفوا هذا الركونَ إلى العِدا ... فالمرءُ مشدودٌ إلى ما يألَفُ
هزوا سيوفَ الحقِّ في زمن على ... كتفيْه من ظلمِ العِدا ما يُجحِفُ

ويختم الشاعر قصيدته في عفوية بالغة بنتيجة طبعية تطلبها السياق، وهي الدعوة -على لسان ذلك الطفل- إلى الرجوع إلى طاقة الإيمان المعطاءة؛ لتمضي كتائب الجهاد في سبيل الله، وتعود راية الإسلام عالية خفاقة، ويعود للأمة مجدها التليد. يقول:

يا زورقَ الأحلامِ في بحرِ الأســـى هذي يدي رغم القيودِ تُجـــدِّفُ
واجهتُ يا أبتِ الخطوبَ وَعُدّتي قلبٌ عصاميٌّ وحـــسٌّ مُرهَـــفُ
وتوجُّـــهٌ للهِ يجعـــل هـــامتي أعلى وإن جار الطغاةُ وأســـرفوا
أبتاه لن يحمـــي حمـــى أوطاننـــا إلا حسامٌ لا يُفَـــلُّ ومصـــحفُ

وبذلك رأينا الشاعر العشماوي في هذه القصيدة قد رتب أفكاره ترتيباً يقوم على النمو المطرد، بحيث نشأت الموضوعات عن بعضها نشوءاً تلقائيـــاً مقنعـــاً وتحققت في القصيدة الوحدة العضوية والنفسية.

وجملة القول إن الشعراء الإسلاميين قد فطنوا إلى الوحدة العضوية والنفسية وطبقوهما في أشعارهم إلى حد كبير، وبخاصة في القصائد التي حملـــت الطـــابع القصصي. ففيها ظهر البناء العضوي أكثر تماسكاً وتلاحماً ووضوحاً. وبتتبع مـــا جاء في القصائد السابقة من صور ومشاعر وأفكار نراها ملتحمة التحاماً عضوياً شديداً ومرتبطة بالموقف النفسي العام ((فإن القصيدة وحدة تامة أو نسيج تام، لا يمكن جذب خيط منه دون أن يختل نظامه، بل هي بنية عضوية نامية، فأجزاؤها تتابع متسلسلة متلاحقة، قد تركّب بعضها فوق بعض))[1].

(١) في النقد الأدبي: ١٥٩.

المبحث الثالث

الخيال الإبداعي

((الخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم، وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها، تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم، حتى يحين الوقت، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها، صورة تصبح لهم لأنها من عملهم وخلقهم))(1).

كما يمكن تعريف الخيال بأنه ((نوع من الحدقة الداخلية التي تحول المشاعر السلبية إلى رؤيا، وتنقل التجربة من شيء يعانى إلى شيء يبصر ويفهم، والخيال بذلك معبر يصل المادة بالروح، والروح بالمادة، ناقلاً التجربة، في الآن ذاته، إلى طور التجسيد، وهو الذي يحتضن العالم الخارجي بجموده وثباته ومعطياته الدائمة ويبدعه من جديد تحت وطأة الانفعال))(2).

وقد تميز الشعر الإسلامي -في مجموعه- بالحرارة والصدق والعاطفة الدافقة لذلك عمد الشعراء إلى الصورة البيانية المعبرة من تشبيهات واستعارات وكنايات تصور ما يمور في نفوسهم من إحساس صادق من غير ما تكلف أو تصنع.

ويمكن تقسيم الصور لدى شعرائنا الإسلاميين إلى صور جزئية وصور مركبة كلية:

---

(1) في النقد الأدبي: ١٦٧.

(2) نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص: ٢٠٧.

١- الصور الجزئية: وتشمل الكلام على التشبيه والاستعارة والكناية.

أ- التشبيه:

استعمل الشعراء التشبيه لاستيعاب المعاني واستيفائها. ومن هذا قول الشاعر يوسف العظم واصفاً القدس(١):

تلك العروسُ التي باهى الشهيدُ بها ومهرُها من دمِ الأحرارِ مطلــولُ

إنه تشبيه قوي مؤثر، فقد شبه القدس بالعروس التي تــزف إلى الشــهيد، وجعل مهرها الدماء الحرة التي غلت في عروقه ودفعته إلى الجهاد.

وفي القصيدة ذاتها يستلهم الشاعر التاريخ المجيد فــيرى القــادة الأفــذاذ يشاركون في الجهاد، ويشبه جعفر بن أبي طالب بالليث. فيقول(٢):

وجعفرٌ جاثمٌ كالليــثِ يرقبــها وقد أطــلّ يناجيهــا شُــرَحْبيلُ

ويشبه الشاعر -نفسه- أبطال الحجارة بالطير الأبابيل التي بعثها الله لترجم العدو بحجارة من سجيل(٣):

حجارةُ القدسِ نيرانٌ وســجيلُ وفتيةُ القــدسِ أطيــارٌ أبابيــلُ

ويشبه الشاعر أحمد الصديق دوي التكبير بالبراكين والرعود وهي صــورة مفعمة بالقوة والحركة(٤):

---

(١) الفتية الأبابيل: ١٤.

(٢) المرجع نفسه: ١٥.

(٣) المرجع والصفحة نفسها.

(٤) هكذا يقول الحجر: ١٦.

صيحةُ التكـــبيرِ تحـــدو ركبَهـــا كـــالبراكينِ تـــدوّي كـــالرعود

وفي قصيدة ((قالوا هو العيد)) يشبه الشاعر شعائر العيد بالســـنا الهـــادي، وأفراحه بالروض الذي فاح عبير أزهاره(١):

قالوا هو العيدُ قد هلّتْ بشـــائرُه فأشرقتْ كالسنا الهادي شـــعائرُهُ
يمتد جسراً من الأفراحِ متصـــلاً كالروضِ فاحتْ على الدنيا أزاهرُهُ

كما يشبه تفرق الشمل بالريشة الحيرى في مهب الريح. حيث يقول(٢):

والشملُ كالريشةِ الحيرى يبعثـــرُهُ صرفُ النّوى والعوادي لا تغادرُهُ

ويشبه حلكة الظلام بالأشباح المخيفة في قوله(٣):

وحالكُ الليلِ أشـــباحٌ مروعـــةٌ لكنما الفجرُ مهما طالَ قـــاهرُهُ

وفي قصيدة ((يا أمتي)) يخاطب الأمة التي غدت كاللعبة في يـــد الخصـــوم. فيقول(٤):

عجبـــــاً كأنـــــك لعبـــــةٌ في قبضـــةِ الخصـــمِ اللـــدودِ!

وفي قصيدة ((طفل فلسطين المارد)) يشبه الشاعر الأميري طفل الانتفاضـــة بالشهاب في انقضاضه واندفاعه نحو العدو(٥):

---

(١) جراح وكلمات: ٣١.
(٢) جراح وكلمات: ٣٤.
(٣) المرجع نفسه: ٣٤.
(٤) نداء الحق: ١٢٣.
(٥) حجارة من سجيل: ٧٥.

ضـــاق بـــالقمقمِ واســـــ ـــــتعلى عليـــه فتكسَّــرْ
وانـــبرى مـــن ســجنِه مثـــ ـــلَ شـــهابٍ وتحــرّرْ

كما شبهه بالصاعقة المرسلة لتحرق جند صهيون[1]:

إنـــه يـــنقضّ لا ينْـــ ـــفَضُّ مثـــلَ الصـــاعقةْ
من سمـــاواتِ الهـــدى والــ ـــحقّ خـــرّتْ حارقَـــهْ

ويشبه الشاعر عبد الرحمن العشماوي علو منزلة المسلمين المجاهدين الأوائل بمنزلة الشهب. فيقول[2]:

بالأمسِ كنّا نوازي الشهبَ منزلةً واليومَ تسخرُ من إغضائِنا الشهبُ

وفي القصيدة ذاتها يشبه الحقيقة بالشمس في وضوحها، وذلـــك في معرض حديثه عن الضلال والتخبط الـــذي يحيـــاه الإنســـان في هـــذا العصر[3]:

يرى الحقيقةَ كالشمسِ التي بَرِئَتْ من الغيومِ فيرضى السيرَ في الظُّلَمِ

ويشبه الشاعر محمد نبيل الأصباشي العدو المخادع بالذئب. فيقول[4]:

لا تهـــادنْ ولا تعاهـــدْ عـــدواً ما عَهِدْنا في الذئبِ لينَ الأظـــافرِ

وهو تشبيه ضمني.

---

(١) حجارة من سجيل: ٥٧.

(٢) قصائدي إلى لبنان: ١٧.

(٣) المرجع نفسه: ١٩.

(٤) لحن الجراح: ٨٨.

ويشبه تلاشي أمجاد الماضي بتلاشي الأفكار والخواطر[١]:

ما لتلك الأمجادِ غاضتْ فأضحتْ يوم بادتْ كأنها طيفُ خـــاطِرْ؟

ويصف نداء الهدى حينما يشق ظلمة الضلال. فيقول[٢]:

فأَبْشِرْ أيهـــا المـــأفونُ واسْمَـــع نـــداءَ هـــدى يرتِّلُـــه الـــنبيُّ
فيزهـــو في ليـــالٍ داجيـــاتٍ كما الجـــوزاء طالعُهـــا بَهِـــيٌّ
كأن البـــدرَ فيـــه قـــد تجلّـــى على الظلماءِ وهو بهـــا رَضِـــيٌّ

فهذا النداء له نور كالجوزاء ذات الضياء البهي، وهو كالبدر الســـاطع في الدجى.

ويشبه الشاعر أحمد عقيلان خفق راية التوحيد بالإعصار المدوي؛ لأنها رمز القوة والنصر. يقول[٣]:

وجلجلتْ رايةُ التوحيدِ تحرسُـــنا كأنما خفقُهـــا أنفـــاسُ إعصـــارِ

كما شبه الشاعر -في القصيدة نفسها- الجيش إذا تجرد من إيمانه وعقيدتـــه بالقطيع من الضأن يساق إلى حتفه[٤]:

والجيشُ من دون إيمانٍ ومعتقـــدٍ ضأنٌ يساقُ إلى حانوتِ جـــزّارِ

---

(١) لحن الجراح: ٨٨.

(٢) المرجع نفسه: ٩٣.

(٣) جرح الإباء: ٢١.

(٤) المرجع السابق: ٢٣.

وفي معرض الحديث عن الحنين إلى الماضي السعيد. يقول كمال رشيد[١]:

أعيشُ في قريتي طيراً على فَـــنَنٍ   أشدو وأطربُ سُمّاري بتلحـــيني
والبرتقالُ علـــى أغصـــانِه دُرَرٌ   والريحُ عطرٌ بـــأنواعِ الريـــاحينِ

وهكذا جمع في البيتين ثلاثة تشبيهات متتابعة، حيث شبه نفسه بالطير المغرد، وشبه البرتقال على الأغصان بالدرر، وهبوب الريح بعبير الرياحين.

ويشبه موطنه بجنة الفردوس. فيقول[٢]:

وغادروا جنةَ الفردوسِ في أَسَفٍ   واستوطنوا في خيامِ الذُلّ والهونِ

وهي تشبيهات توحي بالسعادة والبهجة التي كان يحياها الشاعر في موطنه.

ويشبه داود معلا أمة الإسلام باليتيمة الباكية لتخلي أهلها عنها[٣]:

يتيمةٌ أمـــةُ الإســـلامِ مغمـــدةٌ   سيوفُها وهي تبكي الحقَّ مغتصبا

وهكذا أدى التشبيه دوره أحسن الأداء وأبلغه حيث كان له هذا الأثر الذي نلمسه في النفس، والإقناع البارز في الوجدان.

ب- الاستعارة:

ومن الاستعارات الجيدة التي استمدها الشعراء من مخيلتهم الفياضـــة ومـــن عواطفهم المتقدة ما يلي:

---

(١) شدو الغرباء: ٧٨.

(٢) المرجع والصفحة نفسها.

(٣) الطريق إلى القدس: ١٥.

يشخّص الشاعر يوسف العظم الحجر القدسي بصورة حية، فهو يتكلم ليبث العزيمة في نفوس الثائرين. فيقول[١]:

تكلم الحجرُ القدسيُّ فانتفضَــتْ   سواعدُ الصِّيدِ واندكّتْ أباطيــلُ

فشبه الحجر بالإنسان المتكلم وحذف الإنسان وجاء بصفة من صفاته وهي الكلام، على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية. وهي استعارة ساعدت علــى خلق الصورة التي شاء الشاعر أن يبرزها لنا.

ومترلة الشهداء مترلة رفيعة عند شعرائنا. فهذا الشــاعر أحمــد الصديق يستعير لأرواحهم صفة الأقلام التي تخلد أسماءهم إلى الأبد. فيقول[٢]:

يا رجالاً سَــطرت أرواحُهــم   بالدّمِ الســاطعِ أمجــادَ الخلــودِ

شبه الأرواح المبذولة في سبيل الله بالأقلام التي تسطر المآثر والأمجاد، حذف الأقلام وجاء بصفة من صفاتها وهي التسطير. فجاءت استعارة مصــورة حــال الشهداء أصدق تصوير.

ويتحدث الشاعر إلى بلاده مشخصاً إياها. فيقول[٣]:

اذكــري التــاريخَ ثم ارتقــبي   فجرَنا رغــمَ ديــاجيرِ الهزيمــةْ

---

(١) الفتية الأبابيل: ١٥.

(٢) هكذا يقول الحجر: ١٦.

(٣) جراح وكلمات: ٣٠.

فشبه بلاده بالإنسان وحذف الإنسان وجاء بشيئين من لوازمه وهما التذكر والترقب، على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية. وهي استعارة أحسن الشاعر استخدامها في موضعها.

كما شخص الإسلام في صورة إنسان له يد، وحذف الإنسان وجاء بلازمة من لوازمه وهي اليد، على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية. فقال[١]:

فقلت: مرحى يدُ الإسلامِ تجمعُنا فيـــه وتربطُنـــا حبـــاً أواصـــرُهُ

واستعار للأرض صفة الاجترار في الحيوان وذكر المشـــبه الأرض وحـــذف المشبه به ((الحيوان المجتر)) على سبيل الاستعارة المكنية. فقال[٢]:

والأرضُ تجتـــرُّ في أحشـــائِها حَمَماً ما عاد للحُرِّ فيها ما يحاذِرُهُ

ويذكر الشاعر الأمة بمكانتها العالية فوق الأمم. فيقول[٣]:

عـــودي إلى الإســـلامِ عـــودي وتســـنّمي عـــرشَ الوجـــودِ

فيشبهها بالملكة التي تعود إلى عرشها، فحذف المشبه به (الملكة) وأتى بلازمة من لوازمها وهي (العرش). وهي استعارة مكنية تشخيصية دقيقـــة في موقعهـــا. حيث تبث في أبناء الأمة روح التوثب والتشوف إلى المعالي.

كما يشخص المسجد الأقصى، ويسبغ عليـــه الحيـــاة، فهـــو يشـــكو ويتفجع[٤]:

---

(١) جراح وكلمات: ٣١.
(٢) المرجع والصفة نفسها.
(٣) نداء الحق: ١٥٣.
(٤) نداء الحق: ١٥٥.

لا تتركوا القبلةَ الأولى ومسجدَها يشكو وكم طال في البلوى تفجعُهُ

فشبه المسجد الأقصى بإنسان يشكو ويتفجع، فحذف الإنسان وأتى بصفتين من صفاته وهما الشكوى والتفجع، على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية.

ومن الاستعارات البديعة قوله[1]:

أرواحُنا للجهادِ الحرِّ ظامئةٌ وأصعبُ الشيءِ بالإقدامِ أطوعُهُ

فشبه الروح بالإنسان الذي يظمأ، فحذف الإنسان وجاء بلازمة من لوازمه وهي الظمأ، على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية. ولهذه الاستعارة دلالات إيحائية قوية.

ومن ذلك أيضاً قوله[2]:

تلفتتْ أرضُنا السمراءُ في وَجَلٍ فما رأتْ حولها إلا المرائينا

شبه الأرض بإنسان يتلفت ويوجل ويرى، فذكر المشبه (الأرض) وحذف المشبه به (الإنسان)، على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية. وهي صورة فيها إسباغ الحياة على الأرض الجامدة.

ويتذكر الشاعر ما خلفه في وطنه من ذكريات فيشخص الموقد ويجعله وسنان مسهداً صامتاً وجلاً، فحذف المشبه به (الإنسان) وأتى بأربع صفات من

---

(١) نداء الحق: ١٥٦.

(٢) نداء الحق: ١٥٨.

صفاته، على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية، وقد أدت الاستعارة هنا دورها على أحسن أداء. قال(١):

المُوقَدُ الوسنانُ سهّده طولُ النوى والصمتُ والوجلُ

ويجعل الشاعر عبد الرحمن العشماوي من الأرض إنساناً ينتحب. فيقول(٢):

لبنان هذا زمانُ الدمعِ فانتحبي فأرضُنا منذ طاشَ السهمُ تنتحبُ

فشبه الأرض بإنسان ينتحب وحذف المشبه به (الإنسان) وأتى بصفة من صفاته وهي النحيب، على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية. ويخلع على خواطره صفة الاضطراب على صفحة الماء غرقاً وعوماً. فيقول(٣):

قصيدتي قطعةٌ من خاطرٍ لعبتْ به الهمومُ فلم يغرقْ ولم يعُمِ

حيث شبه خواطره بشيء على سطح الماء يغرق ويطفو، فحذف المشبه به وجاء بصفة من صفاته وهو الطفو والغرق، على سبيل الاستعارة المكنية. وهي استعارة ذات دلالات إيحائية حركية.

ويصور الشاعر محمد نبيل الأصباشي الأمة في صورة إنسان له منكب يزاحم به العروش العالية. فيقول(٤):

أوَ يرضيكَ أن تُدَكَّ عروشٌ زاحمتْ منكبَ العُلا بالمفاخرْ؟

---

(١) قادمون مع الفجر: ٦٤.

(٢) قصائدي إلى لبنان: ١٦.

(٣) المرجع نفسه: ٢١.

(٤) لحن الجراح: ٨٨.

فشبه الأمة بالإنسان، وحذف المشبه به، وأتى بأحد لوازمه وهو المنكب، على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية. وهي استعارة قوية ألبست المعنى ثوباً قشيباً.

ومن الاستعارات البارعة قول الشاعر أحمد فرح عقيلان(١):

يا عيدُ يا مأتماً للأهلِ والدارِ لا عدتَ إنْ لم يُزَيِّنْكَ الدّمُ الجاري

فشبه دم الشهداء بالزينة التي تزين الأعياد، لأن الجهاد والاستشهاد هما طريق النصر المأمول. فذكر المشبه (الدم) وحذف المشبه به (الزينة) على سبيل الاستعارة المكنية.

ويوجه الشاعر -نفسه- حديثه إلى قادة الأمة مصوراً الإسلام بأنه السهم الذي يجب أن يُرمى به أعداء الإسلام، أما غيره من الدعاوى الباطلة فلا قيمة لها البتة. يقول(٢):

يا قادةَ الأمةِ الغراءِ أمتُنا إذا رمَتْ بسوى الإسلامِ لم تُصِبِ

فشبه الإسلام بالسهم المسدد نحو الأعداء، فذكر المشبه، وحذف المشبه به، وأتى بصفة من صفاته وهي الرمي، على سبيل الاستعارة المكنية.

ومن الاستعارات البديعة قول الشاعر عمر الأميري(٣):

في مطمحي أملٌ لم تخبُ جذوتُه برحمةِ اللهِ والأعباءُ في عُنُقي

---

(١) جرح الإباء: ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ٢٨.

(٣) من وحي فلسطين: ١٦٥.

فشبه الأمل بالنار ذات الجذوة، فحذف المشبه به (النار) وأتى بلازمة من لوازمه وهي الجذوة، على سبيل الاستعارة المكنية. وهي استعارة بارعة تتسم بالجدة والإبداع.

ويستعير الشاعر عبد الرحمن بارود صفة الولادة للفجر الآتي، وصفة الرحيل لليل في نظرة مستقبلية متفائلة. فيقول[1]:

أرى في سماءِ الشرقِ ميلادَ فجرِنا الـــ ـــجديدِ وأنّ الليلَ -يا قدسُ- راحلُ

فشبه الفجر بكائن حي يولد، فحذف المشبه به وأتى بصفة من صفاته وهي الولادة، وشبه الليل بإنسان يرحل، وحذف المشبه به، وأتى بصفة من صفاته وهي الرحيل، وهما استعارتان مكنيتان جاءتا في موقعهما، وأضفتا على المعنى إيحاءات قوية.

جـ- الكناية:

ولشعرائنا في باب الخيال كنايات جميلة صوروا فيها المعاني الإسلامية الرفيعة، ومن ذلك إبراز فكرة العزة والشمم برفع الرأس والجباه عالياً. ومن ذلك قول الشاعر أحمد الصديق[2]:

وجباهاً للعُلا شامخةً تتحدى جاوزتْ كلَّ السدودْ

فكنى عن العزة والتشوف إلى المعالي بالجباه الشامخات.

وقوله[1]:

(١) قصائد وأناشيد للانتفاضة: ٥٦.

(٢) هكذا يقول الحجر: ١٦.

وأرى جبينَك في المنـــافي شـــامخاً رغمَ الخطوبِ هناك تعصِفُ أو هُنا

كنى بالجبين الشامخ عن الصمود والأنفة والعزة.

وقوله[٢]:

وعلى حرابِ الغاصــبين بقيــةٌ من مهجتي لكن رأسي ما انحـــنى

فكنى بعدم انحناء الرأس عن الإباء والعزة والشمم.

وعبر الشاعر عمر الأميري عن هذا المعنى فقال[٣]:

ونمـــا ثم نمـــا في الرّفـــــــــضِ جبّـــاراً عنيــــدا
يركـــب المـــوتَ ليحيـــا رافــــعَ الـــرأسِ مجيــــدا

فكنى برفع الرأس عن الحياة في عزة وإباء.

وقوله[٤]:

ما لي أرى الصخرةَ الشماءَ في كمدٍ تذوي وعهدي بها مرفوعةُ العُنُــقِ

فكنى عن العزة والمنعة برفع العنق.

وقول الشاعر أحمد حسن القضاة[٥]:

(١) جراح وكلمات: ٤٥.

(٢) المرجع نفسه: ٤٦.

(٣) حجارة من سجيل: ٧٥.

(٤) من وحي فلسطين: ٦٥.

(٥) بشراك يا قدس: ٦.

سـأعودُ مرفـوعَ الجبيـ ـنِ إلى بـلادي الطـاهرة

فجعل رفع الجبين كناية عن العزة والسؤدد، وفي المقابل الكناية بطأطأة الرأس عن الذلة والانكسار.

يقول الشاعر داود معلا[1]:

إذا نظرتُ إلى الأقصى يعـاتِبُني أطأطئ الرأسَ في محرابِـه أدبـا

فكنى بخفض الرأس عن الخضوع والانكسار.

ويقول الشاعر أحمد عقيلان[2]:

وطأطأتْ هامةُ التاريخِ من خجلٍ وديس في التربِ عزُّ الشرقِ والعَرَبِ

جعل طأطأة الرأس كناية عن الخجل والانكسار.

ومن الكنايات الأخرى قول الشاعر أحمد الصديق[3]:

إخـوةُ الإسـلامِ أحفـادُ الألى فتحوا الدنيا وما خانوا العهـودْ

فكنى عن الالتزام بالإسلام بالحفاظ على العهد.

وقوله مستخدماً الكناية والاستعارة معاً[4]:

رضـعوا فيهـا المعـالي مثلمـا رضعوا الآلامَ في عمـرِ الـورودْ

(١) الطريق إلى القدس: ١٩.

(٢) جرح وإباء: ٢٦.

(٣) هكذا يقول الحجر: ١٦.

(٤) المرجع والصفحة نفسها.

فكنى عن صغر السن بقوله: ((في عمر الـــورود)). واســـتعار الرضـــاعة للمعالي،فشبه المعالي بشيء يرضع، فحذف المشبه وجاء بلازمة من لوازمه وهـــي الرضاعة على سبيل الاستعارة المكنية.

كما استعان بالكناية في قوله[1]:

بالصدرِ يستقبلُ النيرانَ مقتحِمـــاً لا يرهبُ الموتَ إن دارتْ دوائرُهُ

فكنى عن الشجاعة باستقبال الأهوال بالصدر.

وفي معرض السخرية من القرارات الجوفاء، قال الشـــاعر عبـــد الـــرحمن العشماوي[2]:

جاؤوا إليك قـــرارات مزججـــرةً أوراقُها في مهبِّ الريحِ تضطربُ

فكنى عن عدم فائدة هذه القرارات بهذه الكناية الجميلة. ((أوراقها في مهب الريح تضطرب)).

ويقول في قصيدة ((يا ضيعة الحق))[3]:

لمـــن أغـــني وآمـــالي محطمـــةٌ في عالمٍ قد بـــلاه الله بالصّـــمَمِ

فكنى عن سكوت العالم أمام المآسي التي يشـــهدها الشـــعب الفلســـطيني بالصمم.

(١) جراح وكلمات: ٣٤.

(٢) قصائدي إلى لبنان: ١٤.

(٣) المرجع نفسه: ١٩.

ويكني الشاعر الأصباشي عن الفساد والإفساد الذي ينشره العدو في كل مكان وعن تمتعه بخيرات البلاد فيقول[١]:

كيف والنـارُ تستبيح حِمانا والروابي غدت تلالَ مقابرْ؟
والعدوُّ اللدودُ يَنْعُم بالأمـ ـانِ هنيَّ الكرى قريرَ المحاجرْ؟

ومن كناياته التي صاغها في براعة قوله[٢]:

إيهِ يا قدسُ لم يعد سيفُنا اليو مَ فريًّا وكان بالأمسِ باتِر

فكنى عن ماضي الأمة المجيد بحدة السيف، وكنى عن الحاضر الأليم بعدم الحدة فيه.

ويكني الشاعر أحمد عقيلان عن هوان الشعوب إذا ضلت وعميت عن الحقيقة. فيقول[٣]:

إن الشعوب إذا ضلت حقيقتَها أمسى بها العبدُ نخاساً لأحرارِ

كما استعان الشاعر داود معلا بالتشبيه والكناية في قوله[٤]:

يتيمةٌ أمةُ الإسلام مغمدةٌ سيوفُها وهي تبكي الحقَّ مغتصَبا

فشبه الأمة باليتيمة وهو تشبيه بليغ، وكنى عن قعود الأمة عن الجهاد بإغماد السيوف.

---

(١) لحن الجراح: ٨٨.

(٢) لحن الجراح: ٨٨.

(٣) جرح الإباء: ٢٣.

(٤) الطريق إلى القدس: ١٥.

وكنى الشاعر الأميري عن العسف الصهيوني بقوله(١):

ويساق الشعبُ المكبلُ بالأغـــــ ـــلالِ في موكبِ التحررِ ســـوقا

ويكني الشاعر حسان حتحوت عن شدة حزنه واكتئابه بقوله(٢):

ولقد برى عودي وأرق مقلـــتي أني رأيـــتُ الـــداءَ لا يتـــوارى

فكنى عن شدة حزنه بدقة عوده والأرق في عينيه.

٢- الصور الكلية المركبة:

كان لشعرائنا إلى جانب الصور الجزئية (التشبيه والاستعارة والكناية) تصوير كلي مركب تعددت فيه الصور، واجتمعت في أكثر مـــن بيـــت، فظهرت فيه براعة الشعراء في التصوير ودقة الملاحظة. ومن مـــواطن هـــذه الصورة المركبة:

قول الشاعر الأميري في طفل الانتفاضة(٣):

إنـــــه يـــــنقضّ لا ينْـــــ ـــــفضّ مثـــلَ الصـــاعقةْ
من سمـــاواتِ الهـــدى والـــ ـــحقِّ خـــرّتْ حارقـــةْ
بعثرتْ مـــن جنـــدِ ((صـــهيو نْ)) جموعـــــاً ناعقـــــةْ

فالطفل البطل يهجم على العدو كالصاعقة المرسلة من السماء تحرق العدو وتبعثر جموعه. فهي صورة مركبة أدت المعنى أحسن أداء.

(١) من وحي فلسطين: ١٦٦.

(٢) جراح وأفراح: ٨٥.

(٣) حجارة من سجيل: ٧٥.

واستمع إليه وهو يبدع لنا هذه الصورة[١]:

ولرُبَّ جُرحٍ في فلسطينٍ جرى بدمٍ فأجرى المدمعَ المِدرارا
ما زال ينتظرُ الدواءَ كتائباً تَهوى الحِمامَ وأنفساً أحرارا

فالجرح يجري الدم والدموع الغزيرة، وهو في انتظار الدواء الناجع، وهو الكتائب التي تستعذب الموت في سبيل العقيدة والحرية. وهي صورة غاية في الدقة، حيث يظهر فيها اللون (الدم) والحركة في جريانه من الجراح وجريان الدموع، فصورت هذه الصورة انفعال الشاعر أصدق تصوير.

ومن التصوير الكلي الحركي المركب: قول الشاعر عبد الرحمن العشماوي مصوراً تخاذل المسلمين عن نصرة إخوانهم، فهم يطربون لأخبار الموت التي يسمعونها دون أن تحرك فيهم ساكناً وهم مغمدو الأسياف لا نخوة لهم ولا حمية. يقول موجهاً حديثه إلى لبنان[٢]:

جاؤوا إليكِ وما للموتِ أغنيةٌ إلا وكان لهم من لحنها طربُ
جاؤوا إليكِ بأسيافٍ ملمعةٍ سهامُهم فوق صدرِ الليلِ تنتصبُ

ففي هذه الصورة عنصر الصوت (أغنية الموت) واللون (أسياف ملمعة) والحركة (السهام المنصوبة).

ومن هذا التصوير قول الشاعر أحمد الصديق مستنهضاً أبناء الإسلام إلى العودة للدين الحنيف؛ لتعود لهم مكانتهم على رؤوس الأمم، بعد هذا الارتحال في دروب الضياع والتخبط[٣]:

---

(١) من وحي فلسطين: ٩٠.

(٢) قصائدي إلى لبنان: ١٤.

(٣) نداء الحق: ١٢٣.

عـــودي إلى الإســـلامِ عـــودي وتســـنّمي عـــرشَ الوجـــودِ
عـــودي إلى النبـــعِ الأصـــيلِ إلى نبوغِـــكِ مـــن جديـــدِ
عـــودي إلى الأمجـــادِ بعـــ ـــد متاهـــةِ الفكـــرِ الشـــرودِ
بعـــــد ارتحــــالٍ لاهـــثٍ خلـــفَ الســـرابِ بـــلا ورودِ
بعد التخبّطِ في الـــدجى الـــ ـــحيرانِ ضـــائعةَ الجهـــودِ

فالصورة تضج بالحركة من (تسنم عرش الوجود) و(عودة إلى النبع الأصيل) بعد (المتاهة) و(الارتحال اللاهث) و(التخبط في الدجى الحيران). وقـد منحهـا الشاعر حرارة التجربة وصدق الانفعال؛ فأتت غاية في الدقة والتكثيف.

ومن التصوير المركب أيضاً قوله في وصف توثب الثورة في صدر الشـهيد وتأرجح مشاعره بين حنين وتطلع إلى الفجر واقتحام السدود[1]:

تتوثـــبُ الآمـــالُ والـــ أحـــلامُ في صـــدرِ الشـــهيدِ
بـــين الحـــنينِ ودفئِـــه وتطلـــعِ الفجـــرِ الوليـــدِ
ويظل بعـــثُ الـــروحِ جســـ ـــراً خالـــداً عـــبرَ الســـدودِ

فالصورة مفعمة بالحركة والتوثب مما يعكس توثب الأمل والحلم في صـدر الشهيد والحنين والدفء والتطلع إلى الفجر وبعث الروح جسـراً موصـلاً إلى الأماني.

ونسمع صوت المعركة المحتدمة بين أبطال الحجارة وقوات المعتدي في قول الشاعر عبد الرحمن بارود متحدثاً عن أبطال الانتفاضة[2]:

---

(١) نداء الحق: ١٢٥.
(٢) قصائد وأناشيد للانتفاضة: ٥٤.

هم غرةُ الفجرِ الذي غرّدتْ لــه قوافلُ ليلٍ أثقلتْهــا السلاســلُ
وحمرُ المنايــا في يــدينا لجامُهــا إذا ما ركبناها تشــيبُ المعاقــلُ
صِباحٌ ورثناهنّ مــن عهــدِ آدمٍ يطِرنَ بنا كالبرقِ والليــلُ لائــلُ

إنها صورة حركية سمعية (أثقلتها السلاسل) وبصرية ملونة (غــرة الفجــر) (حمر المنايا) (تشيب المعاقل) (كالبرق والليل لائل) تمثل لوحة يرسمها رسام بارع.

وهكذا رأينا أن شعراءنا كان لهم في عالم الخيال صور لا تخلو من الروعــة الشعرية، وكانت طبعية لا تكلف فيها ولا تصنع، مما أضفى على شعرهم غلالة من الجمال والجدة، ومثّل إجادة فنية عالية، حيث جاءت هذه الصور في مواضعها وأدت الغرض منها في تكثيف المعاني واستيعابها.

المبحث الرابع

الموسيقا الشعرية

((حين حاول القدماء تعريف الشعر عرفوه بأنه الكلام الموزون المقفى فهم يرون الانسجام الموسيقي في توالي مقاطع الكلام وخضوعها إلى ترتيب خـــاص، مضافاً إلى هذا تردد القوافي وتكرارها، أهم خاصية تميز الشعر من النثر))[1].

وقد وفق الشعراء الإسلاميون -موضع الدراسة- في اختيار الأوزان حسب ما يتطلبه الموقف الانفعالي، فالأوزان الكثيرة المقاطع مثل البسيط والوافر والطويل والكامل تتسع لكثير من المعاني وتستوعبها. ففي موضع وصف المعانـــاة الــــتي يقاسيها الشعب الفلسطيني تحت نير الاحتلال الغاشم، نجد الشاعر يوسف العظم يبعث إلينا ((رسالة من القدس)) على لسان شيخ فلسطيني يحكي لنا عـــن الآلام التي يكابدها، فيقول[2]:

في ساحةِ المسجدِ المحزونِ حدثني ... شيخٌ على وجههِ الأيامُ ترتســـمُ

لمن أبث شَكاتي والشفاهُ غــدتْ ... خرساءَ ليس لها في الحادثاتِ فمُ؟

من ذا الذي هدّ مني ساعداً ويداً ... هل ضاعَ دربي أم زلتْ بيَ القدمُ؟

لقد جرعنا كؤوسَ الذلِّ مترعـــةً ... والقدسُ في العارِ والمحرابُ والحرمُ

فجاءت الأبيات على وزن بحر البسيط الذي يناسب هذا المقام الذي يتطلب

(١) موسيقا الشعر، إبراهيم أنيس: ٢١.

(٢) في رحاب الأقصى: ٦٦.

التأني في التعبير بإسهاب عن الحزن والأسى والحسرة. وجاءت القافية سهلة مألوفة ذات إيقاع مناسب للموضوع.

وفي مقام الحنين والتعبير عن مشاعر الغربة نسمع الشاعر كمال الوحيدي يستخدم بحر الوافر. فيقول[1]:

هديلكِ يا يمامةُ هزّ حِسّي وبثّ الشوقَ في أعماقِ نفسي
أثارَ الذكرياتِ بها لهيباً فحنّتْ للتي ألفيتُ أُنسي
إليها جاد قلبي بالتحايا فمنها النورُ يسطع ضوءَ شمسِ
وفي ربواها أنشدتُ شعري نقياً ليس ذا زورٍ ولبسٍ
يمامةُ رددي سجعاً فإني بعيدُ الدارِ عن أهلي وقدسي
طريدٌ عن دياري منذ حين وقد سُلبتْ روابيها بخَلسِ

إننا نسمع في القصيدة نغماً شجياً، معبراً عن حسرة القلب الملتاع والحزن المكنون في نفس الشاعر. وقد صب هذا النغم الشجي الذي يفيض بالحسرة والالتياع والحزن في قالب البحر الوافر الذي يمتاز بإيقاع شعري خاص يتسع لمثل هذه المعاني ويستوعبها، ويحيط بانفعالات الشاعر التي تنفس عن حزنه وألمه، ويضاف إلى ذلك تقفية البيت الأول الذي سحب القافية من ضرب البيت إلى عروضه، فأضفى ذلك إيقاعاً موسيقياً واضحاً ولاسيما وأن القافية المختارة هي قافية السين المكسورة الهامسة التي تذكي ذلك الإيقاع وتجسمه وتبرزه في أنحاء القصيدة وأبياتها جميعاً.

(١) طريد الدار: ١٥٥-١٥٦.

ونسمع الشاعر كمال رشيد فنجد هذا النغم الحزين بعد حريق المسجد الأقصى إذ يقول[١]:

جـــل المصـــابُ وزادت الآلامُ وعَدَتْ على أرضِ الهدى الأقوامُ
يا ثالثَ الحرمينِ حرقُـك نكبـةٌ فيها يزيـدُ الجـرحُ والإيـلامُ
إن يحرقوكَ فليس ذلـك بدعـة في دينِهم بـل إنهـا الأحـلامُ
أسفي على الأقصى وقد عبثتْ به نارُ العـدوِّ وقـد عـلاه قتـامُ

فاختار الشاعر بحر الكامل للتعبير عن المرارة والأسى، جراء هذه الفجيعة، وجاء التصريع[٢] ليشعرنا بالجمال الإيقاعي النابع عن انفعال الشاعر دون تكلف أو تصنيع. كما أن القافية المردوفة في الأبيات تعطي إيقاعاً جميلاً.

وفي مقام استنهاض الهمم للجهاد والثورة تأتي الموسيقا قوية صاخبة كالرعود، ومن ذلك: قول الشاعر أحمد الصديق داعياً الأمة إلى الوحدة والعمل الإيجابي للوقوف في وجه العدوان[٣]:

قادمٌ فجري وإن طـال الظـلامُ لـيس يثنيـه ضـبابٌ أو قتـامُ
قادم فجـري ومـن أشـواقِنا يتلظّـى في حواشـيه الضـرامُ
آن يومُ البعثِ وانشـق الـدجى عن جبينِ الحق هُبّـوا لا تنـاموا
وانهضوا في اللهِ صـفاً واحـداً تنطق الأفعالُ منكم لا الكـلامُ

---

(١) شدو الغرباء: ٣٢.

(٢) التصريع: هو أن يجانس الشاعر بين شطري البيت الواحد في مطلع القصيدة أي يجعل العروض مشبهاً للضرب وزناً وقافية. انظر علم العروض والقافية: ٣٤.

(٣) قادمون مع الفجر: ٢٨.

كشّـــرَ الباطـــلُ عـــن أنيابِـــه   وحمى الإسلامِ في البلوى يضـــامُ
فادفعوا عنكم أعاصـــيرَ العـــدا   واتركوا أوكارَهم وهْيَ حُطـــامُ

استخدم الشاعر بحر الرمل وهو من البحور الطويلة أيضاً، ونظـــراً لكثـــرة تفاعيله ومقاطعه جاءت إيقاعاته قوية سريعة. وجاء المطلع مصرّعاً لتقوية الإيقاع.

وجاءت الألفاظ قوية الجرس ((قادم، قتام، يتلظى، الضرام، انشق)) مما يدل على قدرة الشاعر على أن يجعل اللفظة في مكانها المناسب. كما أن تكرار جملـــة (قادم فجري) أعطى جمالاً وإيقاعاً وثيق الصلة بالمعنى العام للأبيات.

حين يعبر الشاعر أحمد الخاني عن ابتهاجه بالانتفاضة وأبطالها الميامين، تأتي قصيدته ((لغة الحجارة)) على وزن مجزوء الكامل. فيقول(١):

ذكـــرى حـــرابِ الغـــادرينْ   هتفـــتْ علـــى الـــوترِ الحـــزينْ
فتمـــرّدَ الإعصـــارُ يـــز   أرُ بـــالعرينِ المســـتكينْ
مـــن نفحـــةِ الخُلـــدِ النـــد   يّ ســـرى عـــبيرُ الظـــافرينْ
تعطـــي دمـــاؤهمُ أكـــا   ليـــلَ الكرامـــةِ كـــلَّ حـــينْ
فـــإذا الجهـــادُ يشـــبّ مـــن   شـــفقِ الهـــداةِ الباســـلينْ
وإذا بأحفـــادِ المـــلا   حـــمِ في الـــوغى مستبســـلينْ

هكذا اختار الشاعر هذا البحر الراقص للتعبير عن انفعاله المبتهج بالثورة على الظلم. وقد جاءت الألفاظ معبرة موحية بجرســـها الســـريع لمناســـبة الموقـــف الشعوري. كما جاء المطلع مصرعاً مما قوى الإيقاع في القصيدة.

---

(١) ديوان الانتفاضة، دراسة أحمد الخاني: ١٠.

وحين يرثي الشاعر عبد الرحمن بارود الشهيد نجده يستخدم بحر المتقــارب لأن المقام مقام فخر واعتزاز وفرح. إذ يقول[(١)]:

وفرســـانُنا كنجـــومِ الســـماء وأكفانُنا البـيضُ فـوق البنـودِ
رِدِ الموتَ تملـك عنـانَ الحيـاة شـهيداً وتعتـق رقـابَ العبيـدِ
أأعـداء ((اللهُ أكـبرُ)) موتـوا فـ((الله أكـبرُ)) لحـنُ الخلـودِ
وما الأرضُ؟ إني أرى الأرضَ أصْغـ ـر من قطرةٍ من دمـاءِ الشـهيدِ

وكما حافظ الشعراء على الإيقاع بالتصريع وبالتكرار حيناً، حافظوا عليـه بالترصيع[(٢)] حيناً آخر، ومن أمثلة الترصيع قول الشاعر محمد التاجي[(٣)]:

فيمَ الوجومُ؟ تقدم غاضباً حنِقـاً عبرَ الخطوبِ وزمجرْ صاخباً عَرِما
كالسيلِ منطلقاً كالويلِ مسـتبِقاً كالليلِ محتدِماً كالنـارِ ملتـهِبا

ومن الظواهر الموسيقية في الشعر الإسلامي: القافية المنوعة، إذ قسم بعـض الشعراء قصائدهم إلى مقطوعات تتناول كل منها فكرة، وجعلوا لكل مقطع قافية معينة، مع التزام الوزن الشعري نفسه في جميع مقاطع القصيدة. ومن ذلك:

قصيدة الشاعر كمال رشيد ((وطـني))، إذ جـاءت في خمسـة مقـاطع كالتالي[(٤)]:

---

(١) غريب الديار: ٨٩-٩٩.

(٢) الترصيع: هو تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيهة به. انظر: مدخل إلى تحليل النص الأدبي: ٧٨.

(٣) شعراء الدعوة: ٩/٧٧-٨١.

(٤) شدو الغرباء: ١٥-١٦.

الأول:

آذاه جـــــرحٌ أوجعــــــهْ فبكـــى وأبكـــى مـــن معــهْ

والثاني:

أمـــا أنـــا فلقـــد سئمْـــــــت مـــن المعـــاني الضـــائعة

والثالث:

وطني وفيـــك الشـــدوُ والتـــــــرجيع والـــنغمُ الشـــجيّ

والرابع:

وغدتْ بـــلادُ الخيـــلِ والتـــــــــصهالِ داراً للخنــــــا

والخامس:

وطـــني وإن طـــال الزمـــــــانُ وإن تعـــددتِ السّـــهامُ

كما نجد هذه القافية المنوعة لدى الشـاعر محمـد التـاجي في قصيدته على هامش الإسراء، فقد جاءت القصيدة مكونة من أربعـة مقاطع على أربع قواف مختلفة. يقول في المقطع الأول(١):

وحدي مع الليلِ بل وحدي مـع الأرقِ حيرانُ أنـزفُ آلامـاً علـى الـورقِ

والثاني:

في خاطرِ الليلِ في مسرى كواكبِهِ خطّ الزمانُ عريقَ الذكرياتِ بـهِ

(١) شعراء الدعوة: ٩/٧٧-٨١.

والثالث:

حاشا لذكراكِ يا إسراءُ نسـيانُ فأنتِ أنتِ لسفرِ الدهرِ عنـوانُ

وفي الرابع والأخير:

لا كنتَ يا شرقُ يوماً للكرام حِمى إن أنتَ لم تنفجرْ في غضبةٍ حُمَما

وبهذا اتضحت معالم الصورة الموسيقية لدى الشعراء الإسلاميين، حيث جاءت موسيقاهم ملائمة للموضوعات التي طرقوها، فالأوزان القصيرة الرشيقة يناسبها الموضوعات الخفيفة السريعة الإيقاع، والأبحر الطويلة يوافقها موضوعات الجد والرصانة والأسى. والقوافي جاءت مناسبة للتجارب الشعورية التي يمر بها الشاعر. وجاءت موحدة في معظم الإنتاج الشعري، إلا أنها تنوعت في بعض الأحيان لتعطي الشاعر مجالاً أوسع ومدى أرحب.

والخلاصة أن هذه الإلمامة الموجزة بأدوات التشكيل الشعري لدى الشعراء موضع الدراسة، تقفنا على الإمكانيات الفنية للشعر الإسلامي، والطاقة الإبداعية لدى الشعراء الإسلاميين وذلك بالجمع بين رقي الشكل والمضمون، كما تقفنا أيضاً على قدرة الشاعر المسلم على تسخير الكلمة الشعرية لخدمة قضايا أمته مما يشجع الشعراء على مزيد من الإضاءات التي تثري الأدب الإسلامي وتبرز خصائصه وتأخذ بيد الأجيال إلى التبصر بواقعهم والعمل على النهوض من جديد للذب عن مقدساتهم، وطرد المعتدي، وبناء مستقبل مشرق.